أحمد علي الملا
مجاز في الحقوق
مساعد قضائي في وزارة العدل

أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية

دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

أثر العلماء المسلمين
في الحضارة الأوربية

تصوير ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م
الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
ط ١ - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

بسم الله الرحمن الرحيم

كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله

صدق الله العظيم

مقدّمة

الاسلام رسالة (علمية ــ تربوية) تهدف الى سعادة الانسان والانسانية ٠

لقــد ربّى الاسلام (الانسان الفاضل) وأقام (الدولة الراشدة) لحراسة العقيدة وتنمية الوعي الاجتماعي ، وإنعاش القوة المحركة للحضارة الانسانية ، لتكون كلمة الله (رحمته ، حكمته ، عدالته) هي العليا ، رائدة موجهة ، ضابطة للسلوك الفردي والاجتماعي ، ترقى بالحياة نحو التطور والازدهار والتكامل ٠

لقد صاغ الاسلام الأمة العربية صياغة جديدة ، فغيّر كثيرا من مفاهيمها ، وطبائعها ، ومثلها ، وقيمها وعاداتها وتطلعاتها ، فإذا بها خير أمــة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ٠ انطلقت تحت راية العقيدة الجديدة التي آمنت بهــا تخترق الحدود وتحطم الحواجز ، التي تفصل بينها وبين دولتي فارس والروم وقد تهاوت الدّول أمــام الدفع العربي الإسلامي ، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك ، وانجلى غبار الفتح عن امبراطورية جديدة ولا أوسع، وعن حضارة ولا أسطع ، وعن مدنية ولا أروع ، عوّل عليها الغرب ، في تطوّره الصاعد ورقيّه البنّاء ٠

لقد كان تأثير الحضارة الاسلامية في العالم الغربيّ المسيحي كبيرا (خلال العصور الوسطى) إذ انتقلت كثــير من المؤلفات العلمية ، في مختلف العــلوم والفنون ، الى أوربا ، وترجمت الى اللغات اللاتينية مرات متعددة وكانت تدرّس في المؤسسات والمعاهد والجامعات ، ويعتمد عليهــا كمراجع أساسية ، ولذلك يعترف كثير من المستشرقين بعظمة الدور الذي قامت به الثقافة الاسلامية ، في إثراء الفكر الأوربي ، لفترة طويلة من الزمن ، استمرت لقرون عديدة ٠

ومن المعروف والثابت تاريخياً ، أنه في الوقت الذي كانت البلاد الاسلامية ، تشكّل المشعل الفكري الوضّاء الذي ينشر النور فيما حوله ، ويملأ الدنيا علماً ومعرفة ، كانت أوربا تعيش في حالة من الجهل والتخلّف والضّياع والتمزق ، ولما أرادت أن ترفع عن كاهلها عبء ذلك الوضع المهين ، التفتت الى الحضارة الاسلامية تنهل من رحيق المعرفة والفكر ، ما أمكنها ذلك ، ولذلك عكف علماؤها ، ورجال الدين فيها ، على دراسة — الآثار العلمية التي كتبها العلماء المسلمون من أمثال : ابن سينا والرازي والبتاني وابن الهيثم والبيروني والخوارزمي والكندي والفارابي وغيرهم ، فكانت هذه المؤلفات ، تمثّل المنهل العذب ، الذي كان طلاب المعرفة ينهلون منه .

وبينما وقعت أوربا فريسة الفوضى والاضطراب ، وكانت الحضارة فيها تحتضر (بعد القرن الخامس الميلادي) نهض الشرق نهضة مباركة ، وعلا شأن الحضارة فيه ، إذ ظهر الاسلام في شبه الجزيرة العربية ، في القرن السابع الميلادي وامتد فيها الى الشام والعراق وفارس وبلاد ما وراء النهر (التركستان) والسند في آسيا ، والى مصر والمغرب والسودان في أفريقيا ، والى الأندلس وصقلية وكريت في أوربا ، وقامت في هذه الرقعة الواسعة دولة عربية كبيرة ، كان لها شأن كبير في العصور الوسطى . وتفوقت الحضارة العربية في العصور الوسطى على ما جاورها من الحضارات في الشرق (الهند والصين) وفي الغرب (الدولة البيزنطية ، ودولة شارلمان وخلفائه) إذ أن البلاد العربية — استطاعت في ظل التسامح الاسلامي ، وبفضل موقعها الجغرافي وسط العالم القديم ، ونشاط أهلها ، أن تكون بمثابة البوتقة التي جمعت أحسن العناصر للحضارات المجاورة ، وأضافت إليها ما أتى به الاسلام ، وما حفظه المصريون والسوريون والعراقيون والفرس ، وما ابتكره العقل والفكر الاسلامي ، وأنشأت من كل هذا حضارة يعدها المؤرخون أقوى وأعظم حضارة في القرون الوسطى ، سواء في ذلك في العلوم أو الآداب أو الفنون .

وليعلم كل عاقل مفكر أن الاسلام دين حضارة ، لم تقم لغيره حضارة خاصة

به ، وقد أضفى على كل البــلاد التي شملها لوناً مشتركا من الفكــر الديني ، والعلاقات الانسانية والاجتماعية ، كما أن المسلمين أخذوا من الحضارات السابقة، وتفاعلت حضارة الاسلام مع الحضارات العالمية الأخرى ... وهذا هو ناموس الحياة (في الأخــذ والعطاء) فكانت حضارة متكاملة وستبقى من أجل الانسانية مــدى الحيــاة .

وقــد قال الدكتور (كويلر بونج) أستاذ العلاقات الأجنبية في جامعــة برنستون (في واشنطن) :

كل الشواهد تؤكد أن العلم الغربيّ ، مدين بوجوده الى الثقافة العــربية الاسلامية ، كما وأن المنهج العلمي الحديث القائم على البحث والملاحظة والتجربة ، والذي أخــذ به علماء أوربا ، إنما كان نتــاج اتصال العلماء الأوربيين بالعــالم الاسلامي عن طريق دولة العرب في الأندلس .

وقد قال الاستاذ (كويلر بونج) أيضا : في محاضرته التي ألقاها في مؤتمر الثقافة الاسلامية الذي عقد برعاية (جامعة برنستون) و (مكتبة الكونغرس) في واشنطن عام ١٩٥٣ تحت عنوان :

أثر الاسلام الثقــافي في المسيحيّة

وبعد فهــذا عرض تاريخيّ قصد به التذكير بالدَّين الثقافي (بفتح الدال المشددة) الذي ندين به للاسلام ، منذ أن كنا نحن المسيحيّين ـــ داخل هــذه الألف السّنة ـــ نسافر الى العواصم الاسلامية ، والى المعلمين المسلمين ندرس عليهم العلــوم والفنون ، وفلسفة الحياة الانسانية ... ولن نتجــاوز حــدود العدالة ، إذا نحن أدّينا ما علينا بربحه ، ولكن سنكون مسيحيّين حقاً ، إذا نحن تناسينا شروط التبادل ، وأعطينا في حبّ واعتراف بالجميل [1] .

لقد بوّأنا الاسلام مركــز القيادة ، في الحضارة الانسانية (علماً وعمــلا

---

(١) الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ص ٢٥٧ ، مجموعة محاضرات القيت في مؤتمر الثقافة الاسلامية (في واشنطن) عــام ١٩٥٣ .

وأخلاقاً) فجعل من الأمة العربية خير أمة أخرجت للناس ، حيث أعطانا تصوّرا شاملا ، عن الحيـاة وطبيعتها ، والوجود ومكانة الانسان فيه ، ونوعيّة النظام الذي يجب أن يحكم المجتمع البشري ، وكان هدف الاسلام من إعطـاء هـذا التصور الشامل هو :

ايجاد أمـة ذات طابع خاص تتميز به عن جميع الأمم ، تحقق المنهاج الإلهي ، الذي أراده الله للانسان ، لينقذ به المجتمع البشري ، من حافّة الضياع والتّيه ، وليقوده الى حيث النور والهدى ، قال تعالى :

● قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين • يهـدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم مـن الظلمات الى النور بإذنه ، ويهـديهم الى صراط مستقيم (١) •

ولما كان القرآن الكريم ، والسنّة النبوية الشريفة ، يمثّلان القوة الدافعة للحركة الحضارية في الاسلام اقتضتنا الحكمة أن نستهل بحثنا الأساسي « أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية » بعرض تمهيدي موجـز ، يهدف الى التعريف (بكتاب الله وسنة رسول الله) وينتهي بنا المطاف لوضع الإطار التربوي لشخصية الرسول الكريم ﷺ مـع مقتطفات من أقوال المنصفين من الغرب في عظمة الرسول الكريم ﷺ ونختم بحثنا الأساسي المشار اليه ، بخاتمة ممتعة تصور المقابلة بين الدين والعلم والفلسفة ، توضح لنا عظمة الاسلام بمقوّماته (العلمية ـ التربوية) التي تربط بين الدين والحياة ، بين واقع الانسان ومثله الأعـلى ، وأن الوحي الإلهي موصوف بالعصمة ، وبريء من ازدواجية القيـادة ، يضمن تآلف القلوب ، ووحـدة الرأي والهدف ، وحراسة العدالة وشمول الرحمـة والسـعادة •

ان الإسلام (عقيدة ومنهجاً ، عبادة وسلوكا) كان (ولا يزال) قوة دافعة للحـركة الحضارية ، سعادة للانسان والانسانية ، يرقى بالحيـاة نحـو التطور والازدهار والتكامل •

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٥ ـ ١٦ •

الباب الأول

الثقافة الاسلامية

تمثل الثقافة التراث الفكري الذي تتميز به الأمم عــن بعضها ، وتختلف طبيعة هذه الثقافة وخصائصها بين مجتمع وآخر ، نظرا للارتباط الوثيق الــذي يربط بين واقع الأمة وتراثها الفكري والحضاري ، وهذه الثقافة تنمو مع النمو الحضاري للأمة ، وتتراجع مع التخلف الذي تصاب به تلك الأمة ، ولذا فان ثقافة الأمة تعبر عن مكانتها الحضارية التي وصلت اليها .

وإذا كانت الثقافة تعبر عن الخصائص الحضارية والفكرية التي تمتاز بهــا أمــة ما ، فإننا نلاحظ أن الثقافات المختلفة تلتقي مع بعضها في كثير من الوجوه ، كما أن هــذه الثقافات المختلفة تتلاقح فيما بينها عن طريق الامتزاج واللقاء بين الشعوب فتتفاعل مع بعضها ، فيؤدي هذا التفاعل الى تأثيرات جزئية أو كليّة ، في طبيعة هذه الثقافات وفي خصائصها .

الفصل الأول

تعريف الثقافة وخصائصها

معنى الثقـافة (١) :

تطلق كلمة الثقافة في اللغة على معان متعدّدة ، وهذه المعاني تفيد : الحذق والفطنة والذكاء ، يقال : ثقف الشيء إذا أدركه وحذقه ومهر فيه ، والثقيف هو الفطين ، وثقف الكلام فهمه بسرعة ، ويوصف الرجل الذكي بأنه « ثقف » .

وتستعمل كلمـة « ثقف » في الحسّيات ، يقـال : تثقيف الرماح بمعنى تسويتها وتقويم اعوجاجها كما تستعمل في المعنويات ، كتثقيف العقل .

وقد اتسع مفهوم هـذه الكلمة في العصر الحديث ، فأصبحت تستعمل في معان مختلفة ، لا تخرج عن المعنى الأصلي وإن كان مدلولها يتسع لما لا يتسع له المعنى اللغـوي .

ولذلك نلاحظ أن الثقافة تطلق الآن ويراد بها ، التراث الحضاري والفكري، في جميع جوانبه النظرية والعملية ، التي تمتاز بها الأمـة .

وكل ما نستطيع الوصول إليه هو أن كلمة « الحضارة والثقـافة » تدل على مجموع ما خلّفته الأمـة من آثار حضارية وفكرية وفنية وأدبية ، في جميع المجالات المـادية والمعنوية .

خصائص الثقـافة الاسلامية :

تطلق الثقافة الاسلامية على التراث الفكري الذي خلفته الحضارة الاسلامية مـن جميع جوانبه : الديني والفلسفي والتشريعي واللغوي والأدبي ، والفني ،

(١) محاضرات في الثقـافة الاسلامية : للاستاذ احمـد محمد جمال .

وهذا التراث انبثق من التصور الشامل الذي كوّنه الاسلام في المجتمع الاسلامي، والذي يستمد حقيقته من القرآن الكريم الذي يمثل المصدر الأساسي والرئيسي لجميع أوجه التراث الحضاري للأمة الاسلامية .

وعندما جاء الاسلام أراد أن يعطي المسلم تصوراً شاملا عن الحياة وطبيعتها ، والوجود ومكانة الانسان فيه ، ونوعيّة النظام الذي يجب أن يحكم المجتمع البشري ، وكانت غاية الاسلام من إعطاء هذا التصور الشامل هي ايجاد أمة ذات طابع خاص تتميز به عن جميع أمم الأرض ، تحقق المنهاج الإلهي الذي أراده الله للانسان ، لينقذ به المجتمع البشري من حافة الضياع والتيه ، وليقوده الى حيث النور والهدى . ولهذا شعرنا أن الجماعة الاسلامية الأولى قد تكيفت تكيفاً صحيحا وكاملا مع التصور الشامل الذي قادها إليه الاسلام ، وأصبحت تتحرك في حياتها طبقاً لذلك الهدف الواضح الشامل ، فقدمت بذلك للمجتمعات البشرية الأخرى نموذجاً فريداً ، لم يعهده التاريخ الانساني إذ انطلقت في مسيرتها نحو أهدافها التي حددها القرآن لها ، لتحقق للمجتمعات الصورة المثلى التي أرادها الاسلام وحرص عليها .

الثقافة الاسلامية والثقافات الاخرى :

تمتاز الثقافة الاسلامية بشخصية متميزة من حيث مصادرها ومقوماتها ، وخصائصها وأهدافها ، ويدرك كل متتبع لجوانب هذه الثقافة هذا التميز الذي أعطى لثقافتنا عمقاً حضاريا أصيلا ، وطابعاً إنسانيا معتدلا ، ونظرة للوجود شاملة وكاملة .

وقد استطاعت هذه الثقافة أن تستفيد من التراث الحضاري الذي خلفته الأمم الأخرى في المجالات العلمية ، حيث ترجمت كتب التراث الإغريقي والفارسي الى اللغة العربية في عصر العباسيين ، ثم أضاف العلماء المسلمون الجديد من فكرهم وإنتاجهم الى هذا التراث الحضاري ، فصحّحوا كثيرا من النظريات ، وعدلوا كثيرا من الآراء ، حتى استطاعوا أن ينتزعوا من مؤرخي الغرب اعترافاً بعظمة التراث الاسلامي ، وبتميّز الحضارة الاسلامية ، وبدورها الكبير في

الحضارة المعاصرة .

ومن أهم مظاهر الحضارة الاسلامية أنها استطاعت أن تؤثر تأثيرا كبيرا في جميع الشعوب التي خضعت للدولة الاسلامية ، بل ان الثقافة الإسلامية قد طغت على الثقافة الأصلية للشعوب التي انتشرت فوق ربوعها راية الاسلام ، ومن أعجب العجائب أن يتم هذا التحول الفكري العظيم بدون إكراه أو إجبار ، ولهذا نجد كثيرا من المستشرقين يأخذهم العجب وتعقد ألسنتهم الدهشة حين يجدون أن ما عجز عنه الأغارقة والفرس والرومان عندما خضع الشرق لهم ، قد قدر عليه المسلمون ، فتلك الحضارات التي أخضعت الشرق لها ، لم تستطع أن تؤثر في عقائد الشعوب ولا في لغاتها ، ولا في ثقافتها ، في الوقت ذاته استطاع المسلمون أن ينشروا حضارتهم وثقافتهم ودينهم ولغتهم في البلاد التي فتحوها ، وأصبحت هذه الشعوب فيما بعد ، تنشر رسالة الاسلام ، وتدعو بدعوة القرآن ، وتتكلم بلغة العرب والاسلام .

وقد أشار العلامة الفرنسي ـ الدكتور غوستاف لوبون ـ الى هذه الظاهرة بقوله :

« ومن ذلك أن مصر الذي كان يلوح أنها أصعب أقطار العالم إذعاناً للمؤثرات الأجنبية ، نسيت في أقل من قرن واحد مرّ على افتتاح « عمرو بن العاص » لها ، ماضي حضارتها ، الذي دام نحو سبعة آلاف سنة ، معتنقة ديناً جديداً ولغة جديدة ، وفنّاً جديدا ، اعتناقاً متينا دام بعد تواري الأمة التي حملتها عليه » .

من ذلك يتبين لنا أن الحضارة الاسلامية بفضل مصدرها الإلهي ، ومقوماتها الفكرية ، ونزعتها الانسانية ، وشمولها الثقافي ، وحيويّتها النابضة ، ومنهجها العلمي ، قد استطاعت أن تمثل الأمل الذي كانت الشعوب تتطلّع إليه ، ولذلك ارتضت الشعوب المختلفة ، ذات الحضارات المتباينة أن تتخلى عن ثقافتها الأصليّة ، وعقائدها السابقة ، وتدخل في الاسلام فتكون عقيدته ديناً لها ، وتكون تعاليمه لها شريعة وتكون لغة القرآن هي لغتها الأصلية .

وإذا كان المسلمون قد نقلوا وترجموا كثيرا من التراث العلمي للأمم

الأخرى ، كاليونان والفرس ، فانهم لم يلبثوا أن اعتمدوا على أنفسهم ، وعلى المناهج العلمية التي ابتكروها ، فافتتحوا المدارس والمعاهد والجامعات ، وألّفوا الكتب والمراجع والأبحاث ، وأقاموا المراصد والمشافي والمختبرات ، يدفعهم الى ذلك نشاط وثّاب ، وهمّة عليّة ، لفتت الأنظار إليهم ، وانتزعت الإعجاب بهم ، حتى لهج أعداؤهم بالاعتراف لهم بالفضل والسبق .

الحضارة الاسلامية :

تشير كلمة الحضارة الاسلامية الى المبادىء الاصلاحية التي تضمنها الدين الاسلامي الحنيف ، وهي تلك المبادىء التي أرسل الله بها رسوله الأمين محمداً صلى الله عليه وسلم ، لتنظيم هذا العالم وإصلاحه ، وقيادته الى الطريق السليم الذي يوجهه الى الخير والسعادة ، وينأى به عن الشر والشقاء ، ثم تركها الرسول الكريم إلى الخلفاء الذين جاءوا من بعده ، لينشروها ما وسعتهم الطاقة في أرجاء العالم .

ولا شك أن مبادىء الاسلام تتعاون كلها لمصلحة الفرد ومصلحة الجماعة في وقت واحد ، وتكاد تنتظمها جميعا كلمة واحدة هي « الايمان بالله » لأن الايمان بالله هو إخلاص المخلوق لخالقه ، ولن يتم ذلك إلاّ إذا أدّى واجبه نحو نفسه ، وواجبه نحو الناس ، فاتّجه في تصرفاته الخاصة الى طريق سليم ، واتجه في علاقته بالناس ومعاملته لهم ، إلى نفس هذا الطريق السليم ــ طريق الرحمة والحكمة والعدالة ــ الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين ، ليصفو لهم العيش ، وتزدهر بهم الحياة . وفي ظل هذا الاتجاه ، تزدهر الشورى ، وتعمّ الأخوّة والمساواة ، ويسود العدل والإنصاف بين الناس ، وتلكم هي أسس الحضارة الحقيقية ، التي يهنأ الفرد في جنباتها ، وتسعد الجماعة تحت ظلالها الوارفة .

ولما كان القرآن الكريم ، والسنّة النبوية الشريفة ، يمثلان القوة الدافعة للحركة الحضارية في الاسلام اقتضتنا الحكمة أن نقدم عرضاً (تمهيدياً) موجزاً يهدف الى التعريف بكتاب الله ، وسنة رسول الله ، وينتهي بنا المطاف لوضع الإطار الشخصي لعظمة الرسول الكريم ﷺ .

الباب الثاني

القرآن والسنة

لقيت الدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة عناية فائقة من العلماء المسلمين خلال التاريخ الاسلامي لأنهما يمثلان المصدرين الرئيسيين اللذين يعتمد عليهما كل الاعتماد في مجال التوجيه والتشريع ، فمنهما يستمد المسلم المبادىء الأساسية والقواعد الرئيسية التي ترسم له طريق حياته ، وتحدد له ملامح فكره ، وهما المصدران النقليان من مصادر التشريع الاسلامي .

وإذا كان القرآن والسنة يتبوءآن هذه المكانة العظيمة في المجتمع الاسلامي، فلا عجب — بعد ذلك — إذا وجدنا أن الحركة العلمية في صدر الاسلام قد ابتدأت بالدراسات المتعلقة بهما ، خدمة لهما ، وتفسيراً لأحكامهما ، ليكون الرجوع إليهما ميسّراً ، وفهم نصوصهما مبيّناً وواضحاً .

الفصل الأول

القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كتابنا الخالد الذي أنزله الله على رسوله ، ليكون مشعل النور والضياء لكل مسلم في أرجاء الأرض ، يستمد منه عقيدته التي يؤمن بها ، وتشريعه الذي ينظم حيـاته ، ويرسم له ملامح الطريق الذي يجب أن يسير عليه ، وهو الكتاب العربي الأول ، والمعجزة البيانية الخالدة ، الذي سحر العقول ببديع نظمه ، وروعة بيـانه ، ودقة تصويره ، وجمال ألفاظه وتعابيره .

وقد استطاع القرآن الكريم بما اشتمل عليه من تعاليم وأحكام ، أن يوقظ النفوس البشرية من رقادها وأن يجعل منها طاقة هائلة ، متماسكة متحدة ، تنشر رسالة الاسلام خفاقة في ربوع الشام والعراق وفارس ومصر والمغرب .

والقرآن اليوم هو الكتاب الذي تلتقي عليه شعوبنا في مختلف أقطـارها ، فيقرب ما تباعد من لغاتهم ولهجاتهم ، ويقوّم ما انحرف من سلوكهم وعاداتهم ، ويوحّد ما تمزق من شملهم وتشتت من اتجاهاتهم ويوقظ منهم شعلة الحياة كلما خفت بريقها ، فيعيدها قـوية فتيّة .

المبحث الأول

التعريف بالقرآن وتاريخه

كلمة « القرآن » مشتقة من « قرأ » بمعنى (تلا) ، والقراءة تعني التلاوة ، لقـوله تعـالى :

- « إن علينا جمعه وقرآنه، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » سورة القيامة: ١٦ــ١٨

ثم أصبحت كلمة « القرآن » علمـاً على كتاب الله ، المنزل على الرسول الكريم ، المكتوب في المصاحف ، والمنقول إلينـا بالتواتر ، عن طـريق الكتابة والحفظ في الصدور .

وللقرآن أسماء أخـرى تطلق عليه ، منها : « الكتاب ، الفرقان ، الذكر ، التنزيل ، وغيرها ... » وهذه الأسماء والأوصاف قد استعملها القرآن في كثير من المواطن .

وقد نزل القرآن (منجّماً) أي مفرقّا ، بحسب الحوادث المتجددة ، فأحيانا كانت تنزل بضع آيات ، وأحيانا آية واحدة ، أو بعض آية ، وذلك ليكون في هذا التنزّل المستمر ، تلبية لمـا يتجدد من الأحداث والمشاكل ، وتقـوية للرسول وصحابته ، وتثبيتاً لفؤادهم ، وتسهيلا لحفظ آياته ، وفهم أحكامه ، ولو رجعنا الى آيات القرآن الكريم لوجدناها تقصّ على رسول الله قصص الأنبياء السابقين، وما لاقوه من قومهم من مشقّة وعنت ، وتدعوه الى الصبر والاحتمال ، لئـلا يتطرّق اليأس إلى قلبه ، والحزن إلى نفسه ، وهـذا التدرّج يساعد على حفظ الآيات واستذكارها ، وتلقينها لصحابته الذين يعكفون على حفظها ، والعمـل بمقتضاها ، وبالاضافة الى هـذا ، فان نزول القرآن بشكل متدرّج ، كان يهدف

الى التدرج في الأحكام لئلا تنزل دفعة واحـدة ، فيكون فيها الحرج والمشقّة على الناس ، ولذلك وجدنا أن الأحكام التي كانت تنزل كانت تتناسب مع الأحداث الجارية ، فتعرض لها ، مبيّنة حكمها ، وموضحة ما غمض منها ، ومرشدة للطريق السويّ وقد ابتدأ نزول القرآن ـ على أصح الروايات ـ ليلة السابع عشر من رمضان ، للسنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول الكريم ، في غـار حراء ، حيث كان يتعبّد ربّه ، وأول آية نزلت قوله تعالى :

● اقرأ باسم ربّك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقـلم ، علم الانسان ما لم يعـلم .

واستمر نزول القرآن فترة تزيد عن اثنتين وعشرين سنة ، حيث نزلت الآية الأخيرة في يوم عرفة ، من السنة العاشرة للهجرة ، وهي قوله تعالى :

● « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينـاً » المائدة : ٣ .

المكي والمدني من آيات القرآن

تنقسم فترة نزول القرآن الى مرحلتين تاريخيتين : أولاهما المرحلة المكية ، وهي مرحلة ما قبل الهجرة ، وثانيهما المرحلة المدنية ، وهي مرحلة ما بعد الهجرة ، فما نزل من القرآن قبل الهجرة ، يقال له الآيات المكية ، وما نزل بعـد الهجرة يسمى بالآيات المدنيـة .

ولم يرتّب القرآن بحسب نزوله الزمني ، ولذلك نجـد أن السّور المكية والمدنية متداخلة مع بعضها ، وأحياناً نجد بعض الآيات المدنية ضمن سورة مكيّة أو العكس ، ويعود ذلك إلى أمر الرسول الكريم الذي كان يأمر كتبة الوحي بأن يضعوا كل آية من الآيات في مكانها الذي نراه عليـه اليوم ، وبالتالي لا يملك الصحابة ، تغييراً فيما أمـر به الرسول الكريم أو تبديلا ، وكل ذلك لحكمـة لا يدركها الانسان .

رلو رجعنا الى آيات القرآن لوجدنا اختلافا بين هـذه الآيات من ناحية الاسلوب ، ومن ناحية الموضوع ، وهذا الاختلاف في الاسلوب يؤكد لنا الإعجاز القرآني ويبرزه ، أما الاختلاف في الموضوع ، فيعود الى طبيعـة التطور المرحلي الذي مرت به الدعوة الاسلامية ، فالموضوع الذي تعالجه الآيات التي نزلت في بداية العصر المكّي حيث كانت الدعوة في بدايتها ، يختلف على وجـه التأكيد عن الموضوع الذي تتناوله الآيات في القسم الأخير من المرحلة المدنية ، وذلك لاختلاف الظروف وتباين الواقع بين هـاتين المرحلتين •

ــ فمن الخصائص الاسلوبية للآيات المكيّة ، أنها ذات نبرة خاصة ، وايقاع مؤثر يتمثّل في ألفاظ قوية وجمل مختصرة ، وصور معبّرة ، وأمثال موضحّة ، ومشاهد حيّة •

ــ وأما خصائصها الموضوعية ، فقد كانت هذه الآيات تتناول قضايا الخالق والخلق ، والجنـة والنار ، والدنيا والآخـرة ، والموت والبعث ، وعالم الغيب والشهادة ، ولهذا نلاحظ أن هـذه الآيات تستخدم أسلوب المناقشة ــ والإقناع ، والقَسَم ، للوصول الى مبادىء الايمان بالله واليوم الآخر ، ومناقشة المشركين ، ودحض معتقداتهم وتسفيه عقولهم ، والدعوة إلى الأخلاق القويمة ، والاستقامة في السلوك ، والصدق في المعـاملة •

ــ أما الخصائص الاسلوبية والموضوعية للآيات المدنيـة ، فتختلف عـن الخصائص الأسلوبية والموضوعية التي تمتاز بها الآيات المكيّة ، فالآيات المدنية ذات أسلوب تشريعي هادىء ، السور طويلة والآيات طويلة ، والموضوعات تتناول قضايا جديدة ، يعيش في ظلها المسلمون في المدنية ، ويحتاجون اليها ، كالقتـال والحرب والسلم والغنائم ، والمعاملات ، والبيوع ، والزواج والطلاق ، والنفقات والإرث والوصية ، والعقوبات ، ومسائل الحكم والمـال والزكاة ، والحج •••• ومن الطبيعي أن يتغيّر الأسلوب الذي يعالج هذه الموضوعات ، عن الاسلوب المكّي كما يختلف الاسلوب الذي يخاطب المؤمنين ، عن الاسلوب الذي يخاطب المنكرين والمشركين •

جمع القرآن وكتابته (١) :

يراد بجمع القرآن حفظه في الصدور ، لقوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه » سورة القيامة : (١٧) ومنها جمّاع القرآن أي حفّاظه ، ويراد به أيضاً كتابته وترتيب آيات سوره •

فأما حفظه في الصدور ، فقد تمّ في عصر الرسول الكريم ، حيث كان الرسول ﷺ يحفظه ويعلمه لأصحابه ، الذين كانوا يجلسون في المسجد ، يتدارسون القرآن ويحفظونه • وقد اشتهر عدد من الصحابة بحفظ القرآن أو إقرائه ، منهم : أبيّ بن كعب ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو موسى الأشعري ، وزيد بن ثابت •

وأما كتابة القرآن فقد كان الرسول الكريم يكلف كتّاب الوحي أن يكتبوا له ما ينزل عليه ، فكانوا يكتبون هذه الآيات ، في الرّقاع ، واللّخاف ، والعسب ، والأكتاف ، والأقتاب ، وقطع الأديم (٢) •

وكانت هذه الأدوات هي الوسائل الميسّرة للكتابة في ذلك العصر ، وقد اشتهر عدد من الصحابة بكتابة الوحي فكانوا يكتبون الوحي بين يدي رسول الله ﷺ الذي كان يرشدهم الى مكان الآيات النازلة ، وبعدها تحفظ الآيات المكتوبة في بيت رسول الله ، في الوقت الذي يبتدىء الصحابة بقراءتها وتدارسها وحفظها •

وبعد وفاة الرسول الكريم ، وعقب موقعة اليمامة بين المسلمين والمرتدين التي استشهد فيها سبعون من حفظة القرآن اقترح الخليفة عمر بن الخطاب على الخليفة أبي بكر الصديق ، أن يجمع القرآن ، وقد روى البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال :

---

(١) ينظر ـ مباحث في علوم القرآن : للدكتور صبحي الصالح ص٦٥ وما بعدها •

(٢) تمثل هذه الأصناف المختلفة أدوات الكتابة التي كانت معروفة وميسرة في عصر الرسول الكريم، وتشمل الجلد ، وصفائح الحجارة وجريد النخل ، وعظام البعير او الشاة •

أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فاذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر (أي اشتد) يوم اليمامة بقرّاء القرآن ، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقرّاء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر .

كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هو والله خير ... فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا تتّهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبّع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ قال هو والله خير ... فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر .

وكان زيد بن ثابت يتشدد في قبول الآيات ، ويشترط لذلك أن تكون الآية محفوظة في الصدور ، ومكتوبة في الصحف بين يدي رسول الله ﷺ لئلا يتطرق الشك الى آية من آيات القرآن ، وبعد اكتمال الجمع والكتابة الذي استغرق جهداً كبيراً ، وضعت هذه الصحف عند أبي بكر ، وبعد وفاته انتقلت الى عمر بن الخطاب ، وبعد وفاته حفظت لدى ابنته « حفصة » لأنها زوج الرسول الكريم ، وبخاصة وأنه لم يعين بنفسه خليفة له ، يوصي بأن تنتقل تلك الصحف إليه .

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان جاء اليه حذيفة بن اليمان ـ وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزعه اختلاف المسلمين في قراءة القرآن ـ فقال له : يا أمير المؤمنين : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب ، اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان الى « حفصة » أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة الى عثمان ، وعندها كلف جماعة ممن اختصوا بالقرآن ، وعرفوا بحفظه أن ينسخوا

هذه الصحف بالمصاحف، ثم ردّ الصحف الى السيدة « حفصة » وأرسل بمصحف من المصاحف التي نسخت إلى كل مصر من الأمصار ، وأمر بأن تحرق جميع الصحف والمصاحف الأخرى لئلا يكون في وجودها ما يدعو الى اختلاف جديد ، يؤدي الى بلبلة الرأي ، وضياع النص القرآني الصحيح •

ونلاحظ أن الخليفة عثمان بن عفان ، قد اعتمد في جمعه للقرآن على النسخة التي جمعت في عهد أبي بكر ، وقد اشترك جامع مصحف أبي بكر — وهو زيد بن ثابت — مع اللجنة الرباعية التي شكلها عثمان ، وكانت هذه اللجنة مكونة من كبار الصحابة الذين اشتهروا بحفظ القرآن وهم : عبد اللهبن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ، بالاضافة الى زيد بن ثابث ، وقد احتفظ عثمان بمصحف أبي بكر ، حيث أعاده للسيدة « حفصة » ولم يغيّر عثمان من مصحف أبي بكر شيئاً ، وإنما أراد من وراء جمعه للقرآن ، أن يجمع الناس على القراءات الثابتة المنسوبة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، لئلا يؤدي عدم ذلك إلى قراءة القرآن بلغات العرب ولهجاتهم المتعددة ، فيقود ذلك الى الاختلاف في قراءة القرآن •••• ويؤكد هذا ما ذكره الخليفة عثمان ، لأعضاء اللجنة المكلفة بجمع القرآن ، أن يكتبوه بلسان قريش لأنه إنما أنزل بلسانهم •

★ ★ ★

المبحث الثاني

الجوانب التي اشتمل عليها القرآن

لقد أنزل الله القرآن الكريم على رسوله المصطفى ، ليكون للناس دستوراً يسيرون عليه ، وهادياً يهديهم الى سواء السبيل ، ومرشداً يقودهم الى الحق والصواب ... قال تعالى :

- إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم .. الإسراء : ٩ وقال أيضا :
- ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ... النحل : ٨٩

وقد اشتمل هذا القرآن على جوانب كثيرة ، منها ما يتعلق بالعقيدة ، ومنها ما يتناول التشريع ، ومنها ما يدعو الى الأخلاق الفاضلة ، ومنها ما يتكلم فيها عن قضايا الخلق والكون والوجود ، ومنها ما يعرض فيها للأمم السابقة ، والأنبياء السابقين ، ومنها ما يذكر فيها قضايا الغيب ، من البعث والحساب والجنة والنار..

ولعله من العسير علينا أن تتناول في هذا البحث تلك الجوانب بشكل مفصل ، ولذلك سنكتفي بعرض الملامح العامة ، وأهم الجوانب التي تناولها القرآن ما يلي :

أولا : العقيدة الدينية :

لقد أعطى القرآن الكريم عناية كبيرة لبناء العقيدة الدينية في نفس الانسان ، واستخدم لذلك أسلوب الإقناع المنطقي ، الذي يجد صداه في نفس الانسان ، منطلقاً في ذلك من الكون والانسان والمخلوقات فيلفت النظر إليها ، ثم يستثير عقل الانسان وحواسه للتفكير في خالق هذه المخلوقات وموجدها ، قال تعالى :

- « والأرض مددناها وألقينا فيهــا رواسي وأنبتنا فيها من كل شـــيء موزون » سورة الحجر
- « الذي جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل مــن السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى ، كلوا وارعوا أنعــامكم إن في ذلك لآيات لأولي النّهى • » سورة طه •

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك الى الخالق وهــو الله ، فيعرض لعقائد الشرك ويناقشها بالحجة والدليل المنطقي ، ويؤكــد على الوحدة الدينية بين الأديان السماوية ، وأن الأنبياء جميعا جاءوا لغاية واحدة ، كل واحد منهم يعزّز ويؤكد فكرة الخالق ، ويدعو إلى التوحيد ، الذي يمثل أصل العقيدة الدينية ، وبمقتضى هذه العقيدة النقيّة الصافية ، يؤمن الإنسان بأن الله هــو الخالق الذي خلق الخلق ويهيمن عليه بقدرته ، يستحق العبادة والخضوع دون غيره من المخلوقات التي لا تستطيع الخروج عن ارادة الله ، قال تعالى :

- وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون • الأنبياء : ٢٥
- قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب • الرعد : ٣٥
- فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيّم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون • منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ، ولا تكونوا من المشركين • الروم : ٣٠ ــ ٣١
- شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العــلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم • آل عمران : ١٨
- أمر ألاّ تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيّم، ولكن أكثر الناس لايعلمون• يوسف : ٣٩
- فإلهكم إله واحــد ، فله أسلموا وبشّر المخبتين[1] ، الذين إذا ذكر الله

(١) المخبتين : المتواضعين ، المذعنين لله بأنهم عبيده •

وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون • سورة الحج : ٣٥

فهذه الآيات الكريمة تشير بوضوح إلى أن :

عقيدة التوحيد (لا إله إلا الله) أصل العقيدة الدينية لدى الأنبياء جميعاً •

إن محور الدين (التوحيد الإلهي) هو (توحيد الله) و (الخضوع لعدالته سبحانه) •

وهذا المعنى مغروس في (فطرة الانسان) (أصل الخلق والتكوين) بل هو الأساس الذي قامت به السموات والأرض ، وكما قال تعالى :

- « وخلق الله السموات والأرض بالحق (أي على أساس العدالة) ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » • الجاثية : ٢٢
- « سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » • فصلت : ٥٣
- يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خلقك فسواك فعدلك • الانفطار : ٦ — ٧

أجل — ان نبضات القلب ، وخلجات الفكر ، وعمل أجهزة الجسم بانتظام وانسجام ، آيات واضحة على (توحيد الله) و (وعدالته سبحانه) ، قال تعالى :

- إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد • سورة ق : ٣٧

فإذا آمن الانسان بالله ، وأنه يستحق العبادة ، دون أي مخلوق من مخلوقاته ، وجب عليه أن يؤمن بما جاء من عند الله ، عن طريق الايمان بالرسل الكرام ، وبما جاءوا من تعاليم ، حول العقيدة الدينية ، التي تتضمن الايمان بالبعث والحساب والجنة والنار ••••

ثانيا : القصص الهادفة :

اعتمد القرآن على القصة ، وجعلها وسيلة من وسائل الإقناع ، لتثبيت

العقيدة ، وتقريبها إلى النفوس ، ولو رجعنا الى القصص الموجودة في القرآن ، لوجدنا أن القرآن قد عرض كثيرا منها ، في مواطن شتّى ، لا لمجـرد القصة ، ولكن ليصل الى التوجيه الديني الذي يريده ، سواء لتأكيد فكرة الخالق ، أو لاثبات الوحدانية ، أو لإقرار عقيدة البعث والحساب ، أو لبيـان مظاهر القدرة الإلهية ، أو لبيـان عاقبة الصبر والشكر ، أو البغي والشـر • وتهدف القصة القرآنية الى ما يـلي :

١ ــ **إثبات الوحي والرسـالة :** قـال تعـالى

- « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون • نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » سورة يوسف

٢ ــ **تأكيـد الدعوة الواحـدة التي يدعو اليها جميع الأنبياء** ، وهي عبـادة الله ، الواحـد الأحـد • قال تعالى :

- لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره•••
- وإلى عاد أخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غـيره •••
- وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ••• سورة الأعراف

٣ ــ **بيان أن النصر في النهاية سيكتبه الله لأنبيائه** ، ويظهـر لنا هـذا من خلال القصص الكثيرة التي ذكرها القرآن ، عن أصحاب نوح ، الذين أخذهم الطوفان ، وأصحاب لوط الذين أهلكوا ، وأصحاب شعيب الذين أخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ••• قال تعالى :

- فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخـذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا بـه الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون •

والقرآن ــ غالباً ــ لا يذكـر القصة من بدايتها الى نهايتها ، وإنما يشير إشارة عابرة الى مواضع العبرة التي يريدها •

ثالثا : الفضـائل الخلقيـة :

أعطى القرآن أهمية كبيرة للجانب الأخلاقي والسلوكي في حياة الانسان ، نظـراً لأن الله خلـق الانسان وأودع فيه حبّاً فطرياً للفضائل ، وكرهاً غريزياً للمفاسد ، وبالرغم من مؤثرات بيئيّة ، قد تبعد الإنسان عن هذه الطبيعة ، إلا أنها تبقى كامنة في النفس ، تنبجس في لحظات الصفاء النفسي والروحي التي يحسّ بها الانسان عندما يخلو ــ ولو للحظات ــ صادقاً مخلصاً مع نفسه • وقد جـاء القرآن حاضّاً على الالتزام والتمسك بهذا الجانب المشرق من سلوكنا ، بل ان التعاليم الدينية من واجبات ومحرمات ، قد جاءت لتؤكد هذه المعاني في النفوس البشرية ، التي تبعد في كثير من الأحيان عن المنهج الأخلاقي ، ولهذا نجد أن القرآن يستعمل كثيراً من العبارات التي تدل على الغـاية من التشريع والتوجيه ، وتتمثل هذه الغاية في تعميق المبادىء الخلقية في نفس الانسان •

قال تعالى : ــ مؤكداً هـذه المعاني ــ

- قل إنما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغـير الحـق ••• الأعراف : ٣٢
- إن الله يأمر بالعـدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ••• النحل : ٩٠
- لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقـوم الناس بالقسط ••• الحديد : ٢٥

ولقد لخص القرآن مهمة الرسول الكريم، بأنه يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ، ويقيم فيهم حكم الله ، فيأمرهم بعبادته وتوحيده ، وينهاهم عن عبادة الأوثان والأصنام ، وكان الرسول الكريم قدوة للناس في سلوكه ، وفي أخلاقه ، ولذلك وصفه الله تعالى بقوله :

- وإنك لعـلى خـلق عظيم • سورة القلم : ٤

والتعاليم الأخلاقية التي جـاء بها الاسلام ، قد جاءت بها الأديان السماوية

السابقة ، والتي تتعاون جميعها على تشجيع الفضيلة ، في سلوك الفرد وحياة الجماعة ، ولذلك يقول الله تعالى لرسوله الأمين عن الرسل السابقين :

- أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ••• الأنعام : ٩

ومن هذا المنطلق جاءت النظرية الأخلاقية في الديانات السماوية ، متقاربة المعالم ، متحدة الأهداف تسعى لتقويم الحياة البشرية ، لتسير على الطريق الصحيح ، على هدى حكمة الله ورحمته وعدالته •

رابعاً : الأحكام التشريعية :

يتميز القرآن عن غيره من الكتب السماوية ، أنه قد وضع للناس دستورا شاملا ينظم لهم حياتهم ، في جميع جوانبها الدينية والدنيوية ، في مجال العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة ، أو في مجال العلاقات بين أفراد المجتمع ، وتشمل أحكاماً تتعلق بالمعاملات والأموال ، والعقوبات ، بالاضافة إلى وضع القواعد المنظمة للمجتمع الاسلامي في علاقته مع الحاكم ، أو علاقة الحاكم به ، في علاقته مع الدول الأخرى في حال السلم أو الحرب ، في علاقته مع رعايا الدولة الاسلامية (من غير المسلمين) •

وكان منهج القرآن في عرض هذه الأحكام مختلفا بحسب الموضوعات ، فالموضوعات الثابتة التي لا تقبل التغيير والتبديل ، جاء بها القرآن بشكل مفصّل ودقيق ، كأحكام الميراث ، والعقوبات المرتبة على الجرائم الكبيرة ، كالقصاص والحدود ، نظراً لأن هذه الأحكام ثابتة ، وفي الوقت ذاته وضع الملامح العامة للكثير من الأحكام التي تتناولها ، دون أن يتدخل في التفاصيل والجزئيات ، تاركاً ذلك لولاة الأمور ، الذين يطبقون في مجتمعاتهم ما يلائمها ، ويحقق المصلحة في إطار المنهج القرآني العام [١] •

★ ★ ★

(١) ينظر كتاب مبادىء الثقافة الاسلامية للدكتور محمد فاروق النبهان ، ص ١٣٧ وما بعدها •

المبحث الثالث

ترجمة القرآن

كثيرا ما يدور في أذهاننا تساؤل حول ترجمة القرآن ، من اللغة العربية الى اللغات الأخرى ، ما حكم هذه الترجمة ؟ ومدى إمكانها ؟

وأول ذي بدىء نقرر أن ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى ، ضرورية وواجبة ، لأنها الطريق الوحيد لاطلاع من لم يتقن اللغة العربية على القرآن ، وما اشتمل عليه من عقائد وآداب وأحكام ، فاذا لم يترجم القرآن إلى اللغات الأخرى ، فقد حرمنا منه كثيراً من المسلمين ، الذين يسعدهم معرفة ما اشتمل عليه القرآن •

ولكن السؤال الذي يتبادر الى الذهن هو : ما مدى إمكان ترجمة القرآن ؟ وما هي الطريقة المثلى للترجمة الممكنة ؟

الترجمة الممكنة (١) :

القرآن كتاب الله المنزل على الرسول الكريم ، وهو المعجزة الكبرى له ، وقد تحدى العرب قاطبة ، فعجزوا عن الإتيان بمثله ، أو بمثل سورة من سوره ، بالرغم من حرصهم على عدم الرضوخ لذلك التحدّي ••• ومن هنا فالقرآن يتميز بطبيعة خاصة ، تجعله مختلفاً عن أي كتاب آخر ، وبالتالي فان ترجمته من اللغة العربية التي نزل بها ــ وكان التحدّي يشمل الإعجاز البياني الذي اشتمل عليه النص العربي للقرآن ــ إلى أية لغة أخرى غير ممكنة لأن أية ترجمة لايمكن أن تحقق الإعجاز الذي اشتمل عليه النص القرآني •••

---

(١) التفسير والمفسرون للشيخ محمد حسين الذهبي ، جـ ١ ص ٢٦ ــ ٣٠ •

ونستطيع أن نفرق هنا بين نوعين من الترجمة : الترجمة الحرفية ، والترجمة التفسيرية .

أولا : الترجمة الحرفية :

والتي يراد بها ترجمة النص العربي بنص مماثل له لفظاً ومعنى ، وهذه الترجمة إن أمكن إتقانها من ناحية تخيّر الألفاظ ودقة التعابير ، والتقارب بين الأسلوبين ، فان الشيء الذي يتميز به النص العربي هو « الإعجاز » ولا يمكن لأية ترجمة أن تنقل هذا الإعجاز ....

هذا جانب ، أما الجانب الثاني فهو ، أن القرآن قد اشتمل على نصوص تشريعية ذات طبيعة مرنة ، يمكن تفسيرها بطرق مختلفة ، وقد اختلف الصحابة ومن جاء بعدهم في تفسير تلك النصوص ، ولا زالت هذه النصوص قابلة للتفسير أيضاً ، ولا بد للمترجم عند ترجمته للقرآن أن يتخير معنى من المعاني التي يحتملها النص، ويتجاوز بقية المعاني ، وفي هذه الحالة تعتبر الترجمة باطلة ، لعدم استيعابها النص الأصلي استيعاباً كاملا ، وأمام هذا الواقع الذي لا مجال لنكرانه ، نحسّ أن الترجمة الحرفية للقرآن غير ممكنة ، لأنها لا يمكن أن تعبّر تعبيراً حقيقياً عن النص الأصلي ، إلا أن هذه الاستحالة لاتمنعنا من تفسير القرآن بطريقة ينتفي معها ذلك المحظور ، وهي : الترجمة التفسيرية .

ثانيا : الترجمة التفسيرية :

ويراد بهذه الترجمة تفسير النص القرآني بحسب رأي المترجم واجتهاده ، بحيث ينقل المترجم الى اللغة التي يريد الترجمة اليها ما يفهمه من النص القرآني ، فيتخيّر الألفاظ المعبرة عن ذلك المعنى الذي ترجم في ذهنه ، وهذه الترجمة هي نوع من التفسير الى لغة أخرى ... وهي قابلة للخطأ والصواب وعلى من يقرأ ترجمة القرآن أن يتوضح في ذهنه أنه يقرأ الترجمة وليس القرآن ، فالقرآن قد نزل بلغة عربية ، والنص العربي هو الحجة ، ومنه تستنبط الأحكام ، أما الترجمة فليست بحجة ، ولا يستنبط منها أي حكم ، لأن صياغة الترجمة خاضعة لإرادة

المترجم ، وقد تختلف الآية الواحدة بين ترجمة وأخرى ، وفي هـذه الحالة يبقى النص الأصلي ، هو المصدر الذي يعتمد عليه ، ويرجع إليه •

شـروط الترجمـة الجـائزة (١) :

يشترط لكي تكون ترجمة القرآن جـائزة ما يلي :

أولا ـ أن يكون المترجم قادراً على الترجمة بشكل دقيـق وصحيح ، ولا يتوفر هذا إلا لمن تعمق في الدراسات العربية ، وتذوق الأسلوب القرآني ، وفهم اللمحات القرآنية التي تعجز القواميس اللغوية عن تفسيرها •

ثانيا ـ أن يكون المترجم بعيداً عن أية شبهة في عقيدته وسلوكه •

ثالثا ـ الأفضل أن تتم الترجمة القرآنية على يد « لجنة علمية متخصصة » بحيث تكون الترجمة خاضعة ، لنوع من الدقة والعناية والضبط ، ومثل هـذه الترجمة توحي بالثقة ، ولهذا يفضل منـع الترجمة الفردية للقرآن ، لئلا يؤدي تعدد الترجمات إلى ابراز الاتجاهات الشخصية المعبرة عن آراء المترجم •

ولو قامت الحكومات الاسلامية أو الهيئات الرسمية بتكليف لجنة متخصصة لترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية وأخضعت هذه الترجمة الى التدقيق والمراجعة قبل إجازتها وطبعها ، لضمنّا ترجمة للقرآن أقرب الى الصواب •

رابعا ـ أن تكون الترجمة خاضعة للشروط التي يجب توافرها في التفسير ، من حيث اعتمادها على الروايات المأثورة وإخضاعها لقواعـد اللغـة العـربية ، وموافقتها لروح الاسلام ، وفي جميع هـذه الأحوال تبقى الترجمة « ترجمـة تفسيرية » للقرآن ، وليست هي القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفـه (٢) •••

---

(١) ينظـر كتاب مبادىء الثقـافة الاسلامية للدكتور محمد فاروق نبهـان ص ١٥٦ وما بعدها •

(٢) ظهرت ترجمات متعددة للقرآن ، وكلهـا ترجمات تفسيرية بهـا نقص أو زيادة ، وليست كاملة منهـا ترجمة الى الفرنسية عام ١٦٤٧ ، وترجمة الى اللغـة الالمانية عام ١٦١٦ والهولندية عـام ١٦٤١ ، والروسية ١٧٧٦ والانكليزية ١٧٣٤ والفارسية ١٨٢١ ، والتركية ١٩١٣ •

« عن كتاب فضل الحضارة الاسلامية العربية على العـالم للاستاذ زكريا هاشم زكريا ص ٢٤٦ » •

الفصل الثاني

ظاهرة الوحي

ظاهرة الوحي ليست خاصة بالرسول الكريم ﷺ وإنما هي عامة في جميع الأنبياء ، الذين كان يأتيهم الوحي من عند الله بطريقة متقاربة ، وعن طريق الوحي يقوم الملك المكلف بنقل الرسالة من الله إلى الأنبياء ، بتبليغ ما أمر بتبليغه ، قال تعالى :

● إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيّين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبوراً ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلّم الله موسى تكليما • سورة النساء : ١٦٣ — ١٦٤

تعريف الوحي :

كلمة الوحي في اللغة مأخوذة من الاعلام الخفي السريع ، وقد استعملت في اللغة لمعان متعددة ، كما استعملت في القرآن الكريم لعدة معان أيضا ، وتفيد هذه الكلمة في اللغة : الإلهام ، والإشارة ، والايحاء ، والوسوسة والكتابة ...

وقد استعمل القرآن كلمة الوحي في معانيها اللغوية المتعددة ، فجاءت بمعنى الإلهام ، في قوله تعالى :

● وأوحى ربّك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون • النحل : ٦٨

وجاءت بمعنى الإشارة والايماء في قوله تعالى : (حكاية عن زكريا عليه السلام)

● فخرج على قومه من المحراب ، فأوحى إليهم أن سبّحوا بكرة وعشيا •
سورة مريم : ١١

وجاءت بمعنى الوسوسة ، في قوله تعـالى :

● وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ••• الأنعام ١٢١

أما المعنى الشرعي المراد من كلمة الوحي ، فأحياناً يراد بالوحي ، الموحى به ، وهو القرآن ، كما في قوله تعالى :

● إن هو إلا وحي يوحى ••• سورة النجم : ٤

وأحياناً يراد به الايحاء الى النبي الكريم ، وإعلامه بمراد الله ، كما في قوله تعـالى :

● وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ، لتنذر أم القرى ومن حولها •• الشورى : ٧

أنواع الوحي :

الوحي ظاهرة عامة في الأنبياء ، وليس له طريقة محـددة ، وكيفية معينة ، وإنما له صور متعددة ، يتم عـن طريقهـا الاتصال بين الخـالق وأنبيائه الذين اصطفاهم ، وغالبا ما يسبق نزول الوحي على الأنبياء « الرؤيا الصادقة في المنام » وقد وقعت هـذه الرؤيا للرسول الكريم قبل مجيء الرسالة إليه ، لتكون مقدمة للرسالة ، ولتهيّىء الرسول الكريم لقبول الوحي الإلهي الذي سيلقى إليـه •

روى البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنهـا قالت :

أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي ، الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبّب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغـار حراء ••• حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاء الملك فقال : اقرأ [1] •

أما أنواع الوحي فقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعـالى :

(١) صحيح البخاري ـ باب بـدء الوحي •

● وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم • الشورى : ٥١

ومن هنا نستطيع أن نحدد هذه الصور بما يلي :

١ ـ **الإلهام الإلهي :** ويتم ذلك عن طريق ما يلقيه الله في قلب نبيّه ، ولعل هذا هو الوارد في حديث رسول الله ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » •

٢ ـ **التكلم المباشر :** من الله إلى رسوله ، بحيث يسمع النبي الكلام ويفهم المراد منه ، وفي ذلك يقول تعالى :

● ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلّمه ربّه قال : ربّ أرني أنظر إليك ، قال : لن تراني ، ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني •••
الأعراف : ١٤٣

٣ ـ **الوحي عن طريق جبريل :** وكانت هذه الصورة هي الصورة التي نزل القرآن بها على الرسول الكريم ، فكان جبريل ينزل بالوحي على رسولنا الكريم ، قال تعالى : (مبيّناً كيفية نزول القرآن) :

● وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين • بلسان عربي مبين • الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٥

ولعلنا نتساءل الآن عن كيفية نزول الوحي على الرسول الكريم•••والجواب على ذلك ليس بالأمر اليسير ، الذي يمكننا الاجتهاد فيه ••• ولذلك نقتصر على ذكر الكيفية والوصف ، الذي جاء على لسان الرسول الكريم ، وهذه الكيفية تبين لنا ، أن الرسول الكريم يرقى بطبيعته البشرية إلى الحالة الروحانية التي يحصل من خلالها التلاؤم بين طبيعة الملقي والملقى إليه ، ولذلك كان يبدو التعب والإرهاق على جسم الرسول الكريم ﷺ حيث يتفصّد جبينه عرقاً [1] •••

(١) ينظر كتاب مبادىء الثقافة الاسلامية ـ الدكتور محمد فاروق النبهان ص ١٦٢ •

وقد روت السيدة عائشة أن الحارث بن هشام سأل الرسول الكريم عن الكيفية التي يأتيه الوحي بها ، فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني ، فأعي ما يقول ، قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، وان جبينه ليتفصّد عرقاً .

ظاهرة الوحي بين المؤيدين والمنكرين :

ولا يمكننا أن نفصل ظاهرة الوحي عن فكرة الايمان بالله ، وبما جاء من عنده ، لأن هذه الظاهرة ترتبط أصلا بفكرة الايمان بالخالق ، ثم الايمان بالأنبياء والمرسلين الذين يحملون الرسالة الى الناس ، ومن هذا المنطلق نشعر أن كل مؤمن بدين سماوي يسلّم بظاهرة الوحي ، لأنها ليست خاصة بمحمد ﷺ وإنما هي عامة في الأنبياء جميعا ، لأنهم جاءوا من مصدر واحد ، ولتحقيق هدف واحد وغاية معينة .

والمؤمن يدرك أن كل ما في الوجود لا يمكن أن يخضع لمعايير العقل والمشاهدة ، لأن الوجود أوسع مدى من حدود العقل ، الذي يتفاوت في مداركه بين فرد وآخر .

والى جانب هذا الفريق المؤمن ، نجد الفريق المنكر الذي ينظر الى الأمور نظرة مادية بحتة ، ويخضع الكون لتفسير ينسجم مع النظرة المادية التي يؤمن بها ، وهذا الفريق ينكر الوحي لا كظاهرة مجردة ، وإنما ينكره انسجاماً مع إنكاره لفكرة الخالق أصلا ، ويعتقد أن فكرة الخالق وما يتصل بها من مباحث تتعلق بالوحي وبالنبوة والغيب ما هي إلا مجرد معتقدات قديمة خضع لها الانسان في العصور البدائية ، ثم اندثرت مع تطور العقل البشري وهذا الافتراض مرفوض من الناحية العقلية ، ومن الناحية الواقعية .

فالناحية العقلية :

تثبت أن فكرة الايمان بالله ، والايمان بالغيب ، ليست مرفوضة ، والذين يتمسكون بالإنكار ، لم يقيموا أي دليل على هذا الإنكار ، بل إن أدلة المؤمنين أقوى من أدلة المنكرين ، والعقل يستطيع أن يقبل فكرة الايمان ، لأنها تفسر له كثيرا من الظواهر الطبيعية ، التي لا يجد الوسيلة المقنعة لتفسيرها التفسير المقبول ، والعقل البشري قد قبل فكرة الايمان وفكرة الغيب وظاهرة الوحي على أنها وسيلة الاتصال بين الخالق والأنبياء ، ولم يجد صعوبة في قبول هذه المعتقدات التي تنسجم مع غريزته وفطرته ، ولكنه يجد صعوبة كبيرة في رفض هذه المعتقدات ، لأن أدلة المنكرين لم ترق الى الدرجة المقنعة ، ولم تتمكن من إقامة الدليل المنطقي على الإنكار ، وإذا كان المنكرون لم يستطيعوا إقامة أي دليل مقبول على دعوتهم ، فان الأنبياء قد أقاموا الأدلة العقلية والبراهين المقنعة على صدق رسالتهم ، فكان لكل منهم معجزات خارقة تحدوا بها أممهم ومن أرسلوا إليهم .

أما الناحية الواقعية :

فانها تثبت بطلان النظرية المادية المنكرة والمشككة ، فالعلماء والفلاسفة الغربيّون الذين ظهروا بعد منتصف القرن التاسع عشر ، قد أثبتوا بالأدلة القاطعة والقرائن الثابتة وجود « عالم الأرواح » وقد توصلوا الى هذه النتيجة بعد دراسة علمية استمرت أكثر من ثلاثين سنة ، عملوا خلالها تجارب على الانسان وأثبتوا شخصية ثابتة له يدرك من خلالها كثيراً من المدركات ، التي لا يستطيع إدراكها بشخصيته العادية ولا تظهر الشخصية الروحية للانسان إلا عندما تتعطل الشخصية العادية له ، أثناء النوم العادي أو النوم المغناطيسي ، ولاحظوا أن الانسان كثيرا ما يقوم بكثير من النشاطات غير العادية أثناء نومه ، من هذه النشاطات ما ذكره أحد الشعراء الغربيين عن نفسه ، أنه كان ينام وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم ، فيستيقظ فيجدها تامة في اليوم التالي عندما يفكر فيها ....

وذكر غيره مسائل أخرى ، تتعلق بنشاط القوى الكامنة في الانسان والتي

لا مجال لإنكارها أمام الوقائع الثابتة [1] .

ومما ذكرناه سابقاً يتبين لنا أن ظاهرة الوحي طبيعية وممكنة ، وهي ترتبط بفكرة الايمان بالله وبما جاء من عنده ، وان المنكرين لهذه الظاهرة لم يستطيعوا إقامة الدليل على الإنكار ، وبخاصة أمام القرائن القوية الثابتة التي تؤكد وجود الروح والعالم الغيبي الذي أشارت اليه تعاليم السماء .

★ ★ ★

(١) ينظر الثقافة الاسلامية لمجموعة من أساتذة جامعة الكويت ـ نقلا عن الاستاذ محمد فريد وجدي في دائرة المعارف الاسلامية ، ضمن كلمة « وحي » وقد ذكر الاستاذ وجدي أن عالم النفس البريطاني ـ ميرس ـ المتوفى عام ١٩٠١ أثبت في كتابه « الشخصية الانسانية » فكرة الوحي ، والشخصية الباطنية انا اؤكد اذن وجود روح في الانسان تستمد قوتها وجمالها من عالم روحاني .

الفصل الثالث

السنة

ومكانتها في التشريع

معنى السنة :

كثيرا ما نستعمل في لغة الكلام « الكتاب والسنة » ويراد بالكتاب القرآن ، ويراد بالسنة حديث رسول الله ﷺ أو ما ورد عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ...

والسنة في الأساس تطلق على الطريقة ، ومنها قوله ﷺ :

- من سنّ في الاسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده [1] .

ثم أطلقت على الطريقة التي سار عليها الرسول الكريم ، ومنها قوله ﷺ :

« عليكم بسنّتي » وسميت المدينة المنورة بدار السنة ، نظراً لأن الرسول الكريم قد عاش فيها ، وتأثر أهل المدينة بطريقة الرسول الكريم في حياته وسلوكه .

وبالرغم من أن السنة والحديث يأتيان بمعنى واحد في أغلب الأحيان، إلا أننا نلاحظ أن العلماء الأقدمين ، يربطون بين « حديث وخبر » لأن كلمة حديث تفيد الاخبار باللفظ ، وبالتالي فان كلمة السنة أعمّ من كلمة الحديث ، وبعضهم يجعل كلمة الحديث مقابلة لكلمة القرآن . فالقرآن « قديم » وكلام الرسول الكريم

(١) صحيح الامام مسلم .

« حديث » ويلاحظون فكرة الجدّة التي تقابل القدم . أما الحديث القدسي — فهو الحديث الذي يضيفه الرسول الكريم الى الله تعالى ، ويحكيه عنه ، والفرق بين الحديث القدسي ، والحديث النبوي ، أن الحديث النبوي منسوب الى الرسول الكريم، أما الحديث القدسي فمنسوب الى الله، ويحكيه الرسول عن ربّه.

ومثال الحديث القدسي : ما أخرجه الامام مسلم عن أبي ذر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا (١) ...

مكانة السنة في التشريع :

إذا كان القرآن يمثل المصدر الأول للتشريع الاسلامي ، فان السنة تمثل المصدر الثاني من مصادر التشريع ، وتأتي مرتبة السنة في الدرجة الثانية بعد القرآن ، لأن القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته ، المنقول إلينا بالتواتر بخلاف السنة فهي من كلام الرسول الكريم ، ولم تنقل جميعها عن طريق التواتر ، ولذلك لا يمكن القطع بما لم يثبت تواتره ، كما لا يتعبّد بالسنة ، كما يتعبد بالقرآن .

وتأتي السنة مبيّنة وموضحة ومؤكدة لما ورد في القرآن ، لقوله تعالى :

- وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون. النحل:٤٤

ولهذا فيجب العمل بالسنة نظراً لارتباطها الوثيق بالقرآن ، وقد جاء القرآن مبيناً وجوب طاعة الرسول الكريم ، قال تعالى :

- يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ... النساء : ٥٩

تاريخ السنة

تأتي مرتبة السنة بعد مرتبة القرآن مباشرة ، ولهذا حظيت السنّة بعناية

(١) رياض الصالحين — للنووي ص ٧٣ .

الصحابة والتابعين ، ومن جاء بعدهم من العلماء الذين تخصصوا في علم الحديث • ولو تابعنا الجهود العظيمة التي بذلها العلماء في طلب الحديث ، ولو درسنا المنهج العلمي الدقيق الذي وضعوه لضبط صحة الحديث ، لأدركنا مقدار العناية الفائقة التي بذلت لخدمة حديث رسول الله ﷺ •

كيفية تلقي السنة عن الرسول ﷺ :

كان الصحابة رضوان الله عليهم يلازمون الرسول الكريم ، يحفظون منه القرآن الذي كان يتنزل عليه ، ويتابعون كلامه الذي كان يفسر ويبين معاني القرآن ، والأحكام التي اشتمل عليها القرآن • وكثيرا ما كانوا يتابعون حادثة من الحوادث التي كانت تقع للرسول أو للمسلمين ، فينتظرون الوحي من الله ، أو ما يصدر عن الرسول من بيان وتعليم وتوضيح ، فكانوا يحفظون كل ما يسمعونه منه ، وينشرونه بينهم ، حتى أصبحت سنة الرسول محفوظة في الصدور ، وفي الوقت الذي كان كتبة الوحي يكتبون فيه ماينزل على الرسول من القرآن ، كان الرسول الكريم ينهى صحابته عن كتابة الحديث خشية أن يختلط بالقرآن ، ويؤكد هذا المعنى ، أن النبي الكريم الذي كان قد نهى عن كتابة الحديث ، قد سمح لبعض الصحابة بكتابته ، ومن هؤلاء الذين سمح لهم بكتابة الحديث « عبد الله بن عمرو بن العاص » ومن هنا نستنتج أن النهي لم يكن عاماً شاملا ، وإنما كان لغاية معينة ، فاذا انتفى المحظور ، فان كتابة الحديث ليست ممنوعة •

وبالرغم من هذا فقد ظل الصحابة يرهبون من كتابة الحديث ، لورود النهي عن ذلك ، وربما كان البعض منهم يخشى أن ينصرف الناس عن كتاب الله الى سنة رسول الله ، إلا أن هذا النهي لم يكن مانعاً من انتشار الحديث وحفظه في الصدور ، فقد اشتهر عدد من الصحابة بحفظ الحديث وروايته •

التدوين الرسمي للحديث :

إذا كان التدوين الرسمي للحديث قد تأخر الى بداية القرن الثاني ، فان من

المؤكد أن التدوين الفردي قد انتشر قبل ذلك بفترة طويلة ، وإذا كان بعض الورعين من العلماء ، يتورع منه لعموم النهي ، فان البعض الآخر الذي أدرك أن النهي ليس مقصوداً لذاته ، قد سمح لنفسه بتدوين ما توفر له من أحاديث .

ففي عهد الخليفة الأموي « عمر بن عبد العزيز » أمر هذا الخليفة عماله على الأمصار أن يقوموا بجمع الحديث وتدوينه ، وقد ابتدأ ذلك بكتاب أرسله الخليفة الى عامله على المدينة ، وقال فيه : انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه فاني خفت دروس العلم وذهاب أهله . وهناك رواية أخرى تشير الى أن أمير مصر ـ عبد العزيز بن مروان والد الخليفة ، والمتوفى عام ٨٥ هـ قد بدأ بتدوين الحديث (١) .

ومهما يكن من أمر فان بداية التدوين الرسمي ، قد فتحت مرحلة جديدة في تاريخ السنة ، حيث بدأ العلماء في كل مصر من الأمصار يبحثون عن الحديث في كل مكان ، ويطوفون في الأمصار النائية والقريبة ، باحثين عن حفظة الحديث ورواته ، ينقلون عنهم ، ويدونون في صحفهم ما يسمعون .

وقد اعتمد علماء الحديث على منهج معين ، يتيح لهم دراسة أحوال الرواة ، ومدى الثقة برواياتهم ويقوم هذا المنهج على المبادىء التالية : (٢)

أولا : النزاهة في الحكم :

ويعبر هذا المبدأ عن منهج الانصاف الذي التزم به علماء الحديث ، من حيث النظرة الموضوعية للراوي ، من غير أن يسمحوا لعواطف الحب والكره أن تؤثر في حكمهم ، وكثيراً ما كان الواحد منهم يرفض رواية صديق له أو قريب لعدم توفر الشروط المطلوبة في الراوي .

ثانيا : الدقة في البحث :

وهذا المبدأ يرتبط بالمبدأ الأول ، إذ لا يجوز للمحدث أن يحكم على راوٍ

---

(١) ينظر أصول الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب ص ١٧٦ .

(٢) ينظر أصول الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب ص ٢٦٦ .

معين بالتعديل أو التجريح أو بقبول روايته أو رفضها ، قبل أن تتوفر له سائر القرائن والأدلة ، التي تؤكد له صدق حكمه ، ودقة نظره ولهذا نجد كثيراً من المحدثين عندما يطعنون في ثقة أحد الرواة ، فانما يبينون سبب الطعن ، لئلا يكون حكمهم مبنياً على وهم ، فيؤدي ذلك الى ظلم الراوي وضياع الحديث •

ثالثا : التزام الأدب في الحكم :

وهذا المبدأ يرتبط بالأدب الاسلامي الذي يجب على كل مسلم أن يتقيد به ويحرص عليه ، وإذا كان النظر في حياة الرواة وسلوكهم ضرورة لصيانة الحديث ، فان من واجب المتحدث أن يلتزم الأدب في بيان رأيه في الراوي ، دون أن يذكر ما يسيء إليه ، أو يقدح في أخلاقه ، ولهذا كثيراً ما يكتفي المحدث ، عندما يرى في سلوك الراوي أو في ضبطه ما يمنعه من الأخذ بروايته بالقول « فلان ليس بثقة » ما لم يجد راوياً عرف بوضع الحديث والكذب فيه ، فحينئذ يحرص على وصفه بالوضع أو الكذب ، ليتورع الآخرون من قبول رواياته • وقبل أن يحكم المتحدث على الراوي بالجرح أو التعديل ، فيأخذ بروايته في حال التعديل ، ويرفضها في حال التجريح ، كان يجري دراسة شاملة عنه ، فيسأل عن أقرانه ، ومن عرف بينهم ، ويشترط في المعدل والجارح أن يكون عدلا ، ومن الطبيعي أن يرفض المتحدث رواية أهل البدع ، ومن اشتهر بالفسق ، لأن هؤلاء غير مؤتمنين على ما ينقلونه من رواية ، خشية التهاون في النقل بالنسبة للفاسق ، أو الانتصار لبدعة معينة بالنسبة لأصحاب البدع والأهواء [1] •

وهكذا يتبين لنا بكل جلاء ، الجهد الجبار والعمل الدؤوب ، الذي بذله المتحدثون ، وهو جهد قدمه هؤلاء العلماء ، في سبيل أنبل وأعظم هدف ، وهو

---

(١) هناك كتب عديدة وكثيرة في كل جانب من جوانب علوم الحديث ، فهناك كتب خاصة بالرواة منها : كتب الطبقات ، كطبقات ابن سعد ـ المتوفى عام ٢٣٠ هـ ، ومنها كتب تراجم الرواة « رواة الحديث » واهمها : تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني ، المتوفى عام ٨٥٢ هـ ، ومنها كتب خاصة بالجرح والتعديل وأهمها :

ميزان الاعتدال للامام الذهبي المتوفى عام ٧٤٨ هـ وكتاب ، لسان الميزان للحافظ بن حجر العسقلاني •

تنقية حديث رسول الله، ليعود صافياً نقياً ، لا تخالطه شوائب الروايات المكذوبة.

الروايــة والدرايــة (١) :

يقصد بالرواية نقل الحديث ، والاحاطة بطرق أسانيده ، وضبط ألفاظها في السند والمتن ، وتحقيق الأسماء وكل ما يتصل بالنقل الصحيح المضبوط في شقيه السند والمتن ، دون البحث في أحوال كل منهما .

ليس يطلب من العالم بالرواية الحكم على مرتبة الحديث بالصحة والضعف وغير ذلك ، لأن أمر هذا من اختصاص عالم الدراية .

عالم الرواية ينقل أحاديث النبي ﷺ نقلا محرراً بدقة وأمانة كما سمعها ، إنه كآلة التسجيل التي تعيد ما سجلت ، دون أن يكون لديها القدرة المستقلة على زيادة عبارة ، وحذف أخرى .

أما الدراية فهي تمحيص وتمييز ، ونقد وبحث في عوامل الحكم على السند بالصحة أو الضعف ، وفي فهم المتن فهماً علمياً .

وعلم الدراية يقوم على فحص الرواية ، وشروطها وأنواعها ، وأحكامها ، وحال الرواة وقيمة الحديث ، ودرجته من حيث الصحة أو الحسن أو الضعف ، كما يقوم على البحث في فقه النص وما يستدل به وما يقدم من نتائج . وإذا أردنا تشبيهاً يقــرب الرواية والدراية ، مثّلنا ذلك بالرسالة المسجلة ، فساعي البريد يحملها ويحافظ عليها ، ويوصلها سالمة صحيحة ، دون أن يكلف بفهم مضمونها ، والبحث في محتواها ، ومدى قيمتها وهذا ما يشبه حال الراوي ، أما الذي يتسلم الرسالة ، فهو ينظــر أولا في غلافها ، وتاريخ صدورها وورودها ، ثم يفضها ، ويقرأ محتواها ، ويبحث مضمونها ، وهو الذي يقدر على الافادة مما فيهــا ، والحكم عليها ، وهذا ما يشبه (الداري) رجل الدراية .

وفي تاريخ الحديث وجد رجال حذقوا الدراية وحدها ، كما وجــد فريق

---

(١) ادب الحديث النبوي للدكتور بكري الشيخ امين .

آخر حذقوا الرواية وحدها ، ووجد فريق ثالث برّز في الرواية والدراية كالامام مالك والشافعي ٠

مصطلح الحديث

لقد تمخضت الرواية والدراية عن علم جديد ، دعاه المسلمون « مصطلح الحديث » أو علم أصول الأحاديث ، وهو أنفس ما أوجدته الثقافة الاسلامية من علوم ومبتكرات ٠

ان مصطلح الحديث أدق ميزان علمي ، عقلي ، لتمحيص الأخبار والروايات، وتمييز زائفها من صحيحها ، فقد أحكمت فيه قواعد هذا التمحيص والنقد ، كما قسمت فيه أنواع الروايات ومزاياها وعللها ، تقسيماً بديعاً مستوعباً ، ووضعت لها أسماء اصطلاحية ، تدل على كل نوع من الروايات والأحاديث ٠ بما فيه من هذه المزايا أو العلل ، بحيث يعرف تفصيل مدلولها بمجرد ذكرها لدى علماء الحديث ، دون حاجة إلى شرح ، كالصحيح والضعيف والمسند ، والمتصل ، والمرفوع ، والمنقطع ، والمقلوب ، والمعضل والمعلق ، والمدلّس والشاذ ، والغريب وغير ذلك ٠

فكل اسم من هذه الأسماء وغيرها إذا وصف به حديث بعد التمحيص ، يدل على ناحية من أحوال الحديث لها أثر في تعيين مرتبته ، في مراتب الصحة أو الضعف ، أو القبول أو الرفض ٠

وعلم المصطلح هذا يستفاد منه الى أبعد حد ، في طريقة التحقيق التاريخي ، فأصبح رجال العصر يفكرون باقتباس طريقته المحكمة ، واستخدامها في تمحيص الروايات التاريخية ، فهي الطريقة التي استطاع علماء الاسلام بها أن ينخلوا الأحاديث المختلطة نخلاً ، ويميزوا صحيحها من غيره ٠

وقد وضع الاستاذ ــ أسد رستم ــ أستاذ التاريخ الشرقي في الجامعة الأمريكية ببيروت سابقاً ، كتاباً ، في أصول البحث والتحقيق التاريخي ، وسماه

« مصطلح التاريخ » أسوة بمصطلح الحديث (١) .

ولقد تحدث هذا المؤلف عن جهد علماء الحديث ، في تحرّي الصحيح من الأحاديث وزيفها ، وعن الطرق العلمية الفنيّة التي كانوا يتبعونها ، إلى أن قال : والواقع أنه ليس بإمكان أكابر رجال التاريخ ، في أوربا وأمريكة أن يكتبوا أحسن منها في بعض نواحيها ، وذلك على الرغم من مرور القرون الكثيرة عليها ، فان ما جاء فيها من مظاهر الدقة في التفكير والاستنتاج ، يضاهي أدق ما ورد في الموضوع نفسه في أهم كتب الفرنجة ، في ألمانيا وفرنسا وأمريكا وبلاد الانكليز... وقال : لو أن مؤرخي أوربا في العصور الوسطى والعصور الحديثة، اطلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين، **لما تاخروا** في تأسيس علم «الميثودولوجية» مصطلح التاريخ **حتى أواخر القرن** الثامن عشر ، وبامكاننا أن نصارح زملاءنا في الغرب فنؤكد لهم ، بأن ما يفاخرون به من هذا القبيل ، نشأ وترعرع في بلادنا (٢) .

إن من يطلع على مصطلح الحديث، والمقاييس التي اصطنعها علماء الحديث، والموازين التي نصبوها لوزن الرواة وتقويمهم وقياس عدالتهم يعجب أشد العجب من الشدة التي أخذوا بها ، والحيطة التي احتاطوا بها من أجل صون حديث رسول الله ، وتنقيته من الشوائب ، وكان يحدوهم قول ابن سيرين رضي الله عنه : « إن هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » .

هذه الدقة المتناهية في تحرير السنة النبوية ، وتمحيصها ، وتنقيحها ، وتنقيتها من الشوائب ، والضعيف والدخيل ، دفعت العلماء الى استنباط المقاييس ، وكان في هذا الاستنباط وجود عدد من العلوم الخاصة الخادمة لهذا الغرض .

---

(١) طبع في المطبعة الأمريكية فى بيروت عام ١٩٣٩ .

(٢) مصطلح التاريخ ص (و ــ ز) المقدمة .

أثر الاسلام في الأمة العربية

لعب الاسلام دوراً هاماً في حياة الأمة العربية ، بل لا نتعدى الصواب اذا قلنا بأن الاسلام صاغ الأمة العربية صياغة جديدة ، فغيّر كثيرا من مفاهيمها وطبائعها ومثلها وقيمها ، وعاداتها وتطلعاتها ، فاذا بالأمة العربية تتفجر طاقاتها التي كانت الصحراء المحرقة تمتصها ، وتتوجه نحو هدف عظيم ، وغاية نبيلة ، وقبل أن يرتد الطرف الى الشعوب المجاورة للجزيرة العربية التي فوجئت بالتغير السريع الذي تم داخل الجزيرة العربية ، انطلقت هذه الأمة تحت راية العقيدة الجديدة التي آمنت بها تخترق الحدود المقفلة في وجهها ، وتحطم الحواجز التي تفصل بينها وبين دولتي فارس والروم ، وقبل أن تصحو هذه الدول من هول المفاجأة ، إذا بالرايات التي تعودت ألا تنتكس أبداً تهوي سريعة مخضبة بالدماء ، ليدوس عليها أولئك الذين حملوا لواء الاسلام ، شاقين طريقهم عبر الوهاد والصحارى والأنهار ، يعرضون مبادئهم التي دفعتهم الى هذا الانطلاق ، وهي مبادىء إنسانية تستهوي القلوب والنفوس ، فاذا بتلك الشعوب تتجاوب مع هذه الصيحات ، وترفع صوتها مؤيدة ، ومؤكدة ، ومناصرة ، تؤيد الحق وتناصره ، وتؤكد وقوفها إلى جانبه ، وارتفعت رايات جديدة فوق ربوع الشام والعراق ، تؤكد ايمانها بمبادىء الحق والخير . وانضمت مسيرة الى مسيرة لتواصل السير تحت راية دعوة الاسلام .

لا شك أن الاسلام قد صاغ هذه الأمة صياغة جديدة ، إذ أخرجها من حياة العزلة الفكرية ، حيث كانت الصحراء بشمسها المحرقة ، ومياهها القاحلة ، وصحاريها المتسعة تفرض عليهم الحياة ضمن هذا الاطار من التفكير الذي يقتصر على العشيرة والقبيلة ، وما يرتبط بها من صفات ، يعبرون عنها من خلال شعرهم فيمدحون ويفاخرون .

وكان المؤثر الأول لهذه الأمة هو القرآن الكريم ، الذي كان الرسول الأمين ﷺ يتلوه عليهم صباح مساء ، فيفتح عيونهم وآذانهم وقلوبهم ، على ما لم يسمعوا به من قبل من « عقيدة » تتلاءم مع طبيعة الفطرة ، يقودهم القرآن اليها بالحجة والبرهان ، والنظر والوجدان . و « تشريع » محكم الجوانب ، مسدد الخطى ، يتناول جميع جوانب الحياة العملية .

واستطاعت التعاليم الاسلامية أن تغير كثيرا من طبائع الشعب العربي وقيمه ومثله ، وقد بذل الرسول الكريم ﷺ جهداً دؤوباً خلال سنوات طوال، لتغيير العقلية العربية ، التي كانت سائدة خلال العصر الجاهلي ، ليحل محلها النظرة الاسلامية الواعية ، المتفتحة في مجال العقيدة والسلوك . فبعد أن كان العرب يعبدون الأوثان والأصنام . إذا بهم ينتقلون إلى عبادة الله ، وبعد أن كانوا يخضعون الى كثير من العادات السيئة في حياتهم ، إذ بالاسلام يبطل كثيرا من هذه العادات ، ويخضعهم جميعاً لعلاقات إنسانية عادلة ، في ظلال الايمان الصادق والوعي الاسلامي الصحيح .

★ ★ ★

الفصل الرابع

الحركة العلمية في صدر الإسلام

من أهم الملاحظات التي يلاحظها العلماء عند بحثهم لتاريخ العرب في صدر الاسلام ، الحركة العلمية التي بدأت تنتشر في ربوع الجزيرة العربية ، ثم تنمو رويداً رويداً ، لتنشره في الأمصار المختلفة •

ومن المعروف لدينا أن الأمية كانت منتشرة في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وكان عدد القرّاء والكتّاب محدودا ، حتى يقال بأن عدد الكتّاب من قريش لا يتجاوز سبعة عشر كاتباً ، وبالتالي فان عددهم في غير قريش أقل •

وقد شجع الرسول الكريم ﷺ الناس على العلم ، وحثّهم عليه ، فكان المسلمون يجتمعون في المسجد يتعلمون القرآن ويتدارسون أحكامه ، وحكمه ، وما اشتملت عليه من تعاليم ، سواء منها ما تعلق بقصص الأنبياء السابقين والأمم السابقة ، أو مسائل العقيدة ، أو أحكام تشريعية ، وهذه الظاهرة كانت تمثل البداية الأولى لنشأة الحركة العلمية ، ثم نمت هذه الحركة ، بعد وفاة الرسول الكريم ، وذلك عندما اضطر الصحابة للاجتهاد والقضاء في كثير من المسائل التي جدت على المجتمع الاسلامي ، فكانوا يتناقشون ويتناظرون ، وكل يدلي بحجته ودليله ، حتى وجدنا الحركة العلمية تزدهر يوماً بعد يوم ، وتتسع جوانبها وتتزايد آثارها ، ويقبل الناس عليها جماعات ووحداناً ، ينهلون من معين المعرفة ما أمكنهم ذلك ، حتى المساجد أصبحت دوراً للعلم ، يتحلق الناس حول العلماء ، يستمعون إليهم ويناقشونهم ويأخذون عنهم ، وسرعان ما أنشئت المدارس العلمية

في معظم الأمصار الاسلامية ، وأقبل الناس عليها يتعلمون العلوم المختلفة ، سواء كانت علوماً دينية أو لغوية أو فلسفية أو غير دلك •

مظاهر الحـــركة العلمية في صـــدر الاسلام :

لقد بدأت مظاهر الحركة العلمية منذ عصر الرسول الكريم ﷺ حيث كان يدعو الناس الى العلم ، ويحثهم عليه ، ثم وجد المسلمون أن العلم هو الطريق الذي لا بد منه لفهم كتاب الله ، ورواية حديث رسول الله ، فانطلقوا إلى العـــلم يتعلمون مبادئه ، ثم يتوسعون شيئاً فشيئاً ، ولما تطور المجتمع الاسلامي ، بعد الفتوحات الكبيرة ، شعر الناس أن العـــلم ضروري لهم ، لذلك اشتدت رغبتهم في الاستزادة منه •

وكان الطفل الصغير يذهب الى المعلم الذي يقوم بتعليمه وتأديبه وتوجيهه ، وكان هؤلاء المعلمون يجلسون في زوايا المسجد أو في مكاتب ملحقة بالمساجد ، فيأتي إليهم الأولاد ليتعلموا منهم القرآن والسنة والفقه ، والأدب واللغة [(١)] •

ثم نشأت « الكتاتيب » المستقلة عن المساجد بعد ذلك ، وكان « الكتّاب » يحتوي على عـــدد كبير جـــداً من الصبيان ، وكان محـــور الدراسة في هـــذه الكتاتيب ، هو الدراسة الدينية المستمدة من القرآن •

وبالاضافة الى الكتّاب العام ، الذي يستطيع أي صبي أن يتعلم منـــه ، فقد كان هناك تعليم خاص بأبنـــاء الخلفاء والوزراء ، ويتم هذا التعليم داخـــل القصور ، وكان يطلق على المعلم الذي يعلم أبناء الخلفاء « المؤدب » وقد اشتق هذا الاسم من الأدب والخلق ، لأن مهمة المؤدب أن يعلم هؤلاء الصبيان الأدب والخـــلق •

ولم تقتصر الحركة العلمية على المساجد والكتاتيب ، وانما نجدها أيضـــاً

---

(١) ينظـر دراسات في الحضارة الاسـلامية للدكتور أحمـد شلبي • نشر مكتبة النهضة المصريـة ص ٤٤ وما بعـدها •

في الأسواق عند « حوانيت الورّاقين » حيث يؤمها العلماء والأدباء ، لشراء ما يحتاجون إليه من كتب ، فاذا بها تنتقل إلى مسرح ثقافي وعلمي ، تعقد فيها الندوات العلمية ، وتناقش فيها القضايا الفكرية وقد ظهرت هذه الدكاكين وانتشرت منذ بداية العصر العباسي ، وكثيراً ما كان أصحاب هذه الدكاكين ، من كبار العلماء والأدباء كابن النديم ــ صاحب الفهرست ، وياقوت ــ صاحب معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ــ .

وقد امتدت الحركة العلمية الى منازل العلماء ، حيث كان بعض العلماء يخصص في بيته مكاناً للمجالس العلمية التي يرتادها أهل العلم ، وغالباً ما تكون المجالس العلمية التي تعقد في المنازل خاصة بطبقة من الناس ، يتناقشون في المسائل العلمية الدقيقة ، ويتناظرون في الأدلة والحجج ، وقد اشتهرت بعض المنازل بحلقاتها العلمية ، كمنزل ابن سينا ، الذي كان الطلاب يجتمعون فيه ، ويقرؤون فيه كتاب الشفاء ، ومنزل الامام الغزالي ، الذي كان يعقد في منزله حلقة علمية لطلابه بعد أن ترك التدريس في المدرسة النظامية .

وإلى جانب هذا فقد كان هناك « مجالس الخلفاء » وإذا كانت هذه المجالس قد بدأت بصورة طبيعية في عصر الخلفاء الراشدين ، حيث كان الخلفاء يعقدون مجالسهم العلمية في المساجد العامة ، يلتقون فيها مع الصحابة ، ويتناقشون حول المسائل التي كانت تعرض للخليفة ، فيستشير الصحابة فيها ، فان مجالس الخلفاء في العصر الأموي والعصر العباسي قد أصبحت ذات طابع خاص يتناسب مع طبيعة الدولة ومركز الخلافة ، فلا يدخل هذه المجالس الا طبقة معينة من العلماء ممن يرتاح إليهم الخليفة ، وكانت هذه المجالس تخضع لنوع من الآداب والتقاليد والأنظمة ، وعلى كل من يسعده حظه في المشاركة فيها أن يخضع لهذه الآداب والتقاليد ، من حيث الملابس والحديث ، وطريقة مخاطبة الخليفة ، وطريقة الجلوس والقيام .

ويروي المؤرخون كثيراً من الروايات عن مجالس الخلفاء ، ويصفون فيها

آداب هـذه المجالس وتقاليدها ، ومن الطبيعي أن تختلف هذه الآداب والتقاليد بحسب الخليفة ، وكثيراً ما كانت هذه المجالس تشتمل على النوادر والفكاهات ، وقـد أصبحت هذه المجالس في العصر العباسي ذات مظاهر كبـيرة ، من حيث الأثاث الفاخر والرفاهية الكبيرة ، ولم تكن هذه المجالس قاصرة على الموضوعات الدينية وانما كانت تتناول ألواناً مختلفة من الثقافة والمعرفة ، كالشعر والأدب والفلسفة والفن والعلوم، وكان بعض الخلفاء يشتركون في المناظرات، ويساهمون فيها ، وممن اشتهر بذلك الخليفة « المأمون » الذي كان مجلسه يغص بعدد كبير من العلماء والفقهاء والفلاسفة والأدباء ، الذين كانوا ينعمون بإكرام الخليفـة لهم ، وإنعـامه عليهم •

وكان لهذه المجالس دور عظيم في تشجيع الحركة العلمية وازدهارها ، لأن اشراف الخليفة المباشر على الحركة العلمية في جميع مجالاتها ، قد أعطاها أهمية كبيرة ، ولهذا انطلق الناس في التعمق والبحث والمناقشة والمناظرة معتمدين في ذلك على تشجيع الدولة للعـلم والعلمـاء •

والى جانب هذا فقد بقيت المساجد المكان الأساسي الذي كانت شعلة العلم تشع فيه ، وتنطلق بعد ذلك في اتجاهات مختلفة ، واذا كنا نريد أن نتحدث عن الحركة العلمية في الاسلام ، فان هـذه الحركة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمساجد • فالمسجد هو الصورة الاولى للجامعة المتخصصة بالبحث والدراسة العميقة ، ولم تكن مهمة المساجد خلال التاريخ الاسلامي قاصرة على العبادة ، بل كانت تمثل حركة الاشعاع الفكري والثقـافي ، التي كانت تنطلق بعـد ذلك الى المجتمع فتوجهه الوجهة الصحيحة • وفي الوقت الذي ابتعدت المساجد عن دورها العلمي والثقافي ، انعزلت عن المجتمع ، وأصبح الناس يؤمونها في أوقات محدودة ، ولا شك أن عودة هذه المساجد الى دورها العلمي والثقافي ضروري في هذا العصر الذي نعيش فيه • والتاريخ يحدثنا عن مساجد اسلامية لعبت دوراً علمياً كبـيراً في عصرها ، وكانت تقوم بما تقوم به الجامعات اليوم من دراسة علمية منتظمة ،

تعقد فيهاحلقا ت العلم في كل زاوية من زواياها ، ويؤمها طلاب المعرفة من كل مكان ، يعيشون ضمن جدرانها ، حيث الحيـــاة العلمية الدائبة ، التي كانت تمد عالمنا الاسلامي بالفكر الخلا"ق ، وتنير جنباته بنور المعرفة .

نشأة المدارس العلمية

لم تظهر المدارس العلمية في وقت مبكر ، نظـــراً لأن المساجد كانت تقوم بالدور الذي أصبحت المدارس تقوم به بعد ذلك ، لأن اتساع الحلقات العلمية داخل المساجد ، وكثرة المناقشات والمناظرات التي كانت تدور داخل المسجد . قد أبعدت هــذه المساجد عن مهمتها الأساسية ، وهي العبادة . ولهذا نجد أن بعض المساجد قد أصبحت تتخذ طــابع المدرسة ، من حيث بناؤها وتنظيمها . وتوفير الغرف فيها للطلاب والأساتذة ، وهكذا اشتركت المساجد والمدارس في أداء رسالة العلــم والمعرفة ، وأصبحنا نجــد بعض المساجد قد عرفت باســم « المدارس » نظراً للنشاط العلمي المنظم الذي كان يدور داخلها ، ولا نزال اليوم نجــد في كثير من المدن آثار هذه « المدارس العلمية » التي تتميز عن المساجد بطريقة بنائها والغرف المتعددة التي تشتمل عليها ، والتي كان يسكنها الطلاب .

ومن أشهر المدارس التي عرفت خلال التاريخ الاسلامي «المدارس النظامية» التي بناها نظام الملك في بغداد ، وبيت الحكمة التي بناها الخليفة المأمون في بغداد . والمدرسة النورية الكبرى ، التي بناها نور الدين الزنكي في دمشق ، وهنــاك مدارس أخرى كثيرة في القاهرة ودمشق وبيت المقدس وبغداد ، وبلاد المغرب . وقد لعبت هذه المدارس دوراً كبيراً في تنمية الحركة العلمية ، وتشجيع النهضة الفكرية ، وإثراء تراثنا الثقــافي في جميــع جوانبه الدينية والأدبية والفلسفية والعلمية ، فالتاريخ الاسلامي يشير دائماً الى الدور الذي لعبته المدارس النظامية التي أنشأها « نظام الملك » في إثراء الحركة العلمية والثقافية في العالم الاسلامي خلال القرن الخامس الهجري ، وأهمها المدرسة النظامية في بغداد ، وقد اتخذت

هـذه المدارس الصفة الرسمية ، وتخير مؤسسها لها خير الأساتذة والمدرسين ليقوموا بالتدريس فيهـا ، وفرض لهم رواتب مجزية يستطيعون فيهـا العيش بطريقة كريمة ، الا أن هـذه المدارس قد اندثرت وزالت آثارها بسبب الحروب التي قامت في العـالم الاسلامي ، والتي قضت على معظم المؤسسات الثقـافية والكتب العلمية التي كانت تمثل الجهد العظيم الذي بذله أولئك العلماء ، الذين بنوا بجهدهم تاريخاً مشرقاً بالفضائل الخلقية والمنجزات الحضارية •

وكانت هذه المؤسسات تموّل من أموال الأوقاف ، فكلما أنشئت مدرسة علمية كان مؤسسها يوقف عليها أوقافاً واسعة ؛ تدرّ على هذه المؤسسات الريع الكبير الذي يضمن لها الاستمرار في أداء رسالتها •

ولو رجعنا الى كتب التاريخ المتخصصة لوجدنا أن الريع الذي كانت تدرّه الأوقاف على المؤسسات الثقافية ، كان كافياً للانفاق منه على الأساتذة والطلاب ، وتوفير كل ما يحتاجون اليه من كساء وطعام ، وكان معظم المدارس يشتمل على غرف مخصصة لحياة الأساتذة والطلاب يعيشون فيها ، ويقدم لهم الطعام والكساء والكتب ، وجميع حاجاتهم الأخـرى •

ولم تكن هناك شهادات مصدقة كما هو معروف الآن ، وانما كان الطلاب يدرسون كتباً معينة على أساتذة متخصصين ، فاذا استطاع الطالب دراسة كتاب من الكتب على أحـد شيوخه ، واستوعبه وتعمق في فهمه ، فعندئذ يكتب له شيخه في آخر الكتاب ما يشير الى إتمام الطالب دراسةالكتاب المذكور ، عليـه (أي على الأستاذ) ويجيز له تدريسه لغيره من الطلاب ، وكانت الاجازات التي يحصل عليها الطالب من أساتذته تعني (الشهادة ــ وما يشير الى المؤهل العلمي في عصرنا الحاضر) •

وقد تحدث العلماء عن آداب المدرس والطالب ، وواجباتهما والصفات التي يجب أن تتوفر في كل منهما ، ومن أول واجبات المدرس أن يبـدأ بتعليم نفسه وتقويمها ، ليكون تعليمه للناس بسيرته أبلـغ من تعليمهم بلسانه ، ويجب على

المعلم أن يشفق على طلابه ، وأن يجعلهم في منزلة كأبنائه ، وأن ينصحهم النصح الصادق ، وأن يوجههم التوجيه القويم ، وأن يهتم بأخلاقهم كما يهتم بعقولهم ، وأن يربي فيهم ملكة الاجتهاد والنظر والمناقشة والبحث ، لئلا يقتصر علمه على الحفظ والترديد والتكرار • ونلاحظ ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أن العلم كان ميسّراً لجميع طالبيه ، دون تفريق بين طالب وطالب ، بسبب مكانة اجتماعية ، أو غنى مادي ، بل اننا نلاحظ أن التفاوت بين الطلاب كان يقوم على أساس الجهد الذي يبذله الطالب ، وكانت المدارس العلمية تيسر لطلابها الفقراء أسباب الدراسة والتحصيل لتتيح لهم فرصة التعليم والتعمق والتخصص ، فبالاضافة الى الدراسة المجانية التي لا يدفع الطالب لقاءها أي أجر ، فان الطالب الفقير كان يتقاضى مرتباً دائماً يمكنه من الاستعانة به للانفاق على نفسه •

دور المكتبات في نشر الثقافة

قامت المكتبات العلمية بدور فعّال في نشر العلم والثقافة ، ولا يقل دور المكتبات عن دور المساجد والمدارس في النهضة العلمية ، لأن الكتب في ذلك الحين لم تكن ميسّرة كما هي ميسّرة الآن في عصر الطباعة ، ولهذا كانُ المهتمون بالعلم والمعرفة يذهبون الى المكتبات العلمية حيث تتوافر الكتب والمراجع ، فيقرؤون ويدرسون ، ويطّلعون على آراء الأقدمين من العلماء ، عن طريق كتبهم وآثارهم •

ويحق لنا أن نطلق على المكتبات « المعاهد العلمية » لأن الدور الذي كانت المكتبات تقوم به ، لا يقل عن دور المعاهد العلمية الرسمية ، وكثيراً ما كانت هذه المكتبات تمثل النوادي الفكرية ، ففيها يجتمع طلاب المعرفة ومحبّوها وتدور بينهم المناظرات والمناقشات ، ولهذا اهتم المسلمون بانشاء المكتبات العلمية منذ صدر الاسلام بالرغم من عدم ازدهار حركة التدوين والتأليف بشكل واسع في ذلك الحين •

ولما ازدهرت حركة التدوين والتأليف والترجمة في العصر العباسي ، اتسعت

دور المكتبات العلمية ، وحفلت بأنواع مختلفة من الكتب المؤلفة والمترجمة ، وأصبح العلماء يذهبون اليها للاطلاع على هذه الكتب التي كانت الدولة العباسية تحرص على تزويد المكتبات بها ، وكثيراً ما كان الخليفة يرسل البعثات العلمية الى الأمصار المختلفة لشراء الكتب وتزويد المكتبات بها ، بل اننا نجد الخليفة « المأمون » يرسل البعثات الى بلاد الروم للبحث في خزائنها العلمية الشهيرة عن الكتب الهامة ، لنقلها الى البلاد الاسلامية وترجمتها .

فقد روى ابن النديم في كتابه « الفهرست » أن المأمون كان يراسل ملك الروم ليستأذنه في نقل بعض الكتب القديمة الموجودة في بلاده ، وبعد أن سمح ملك الروم بذلك أرسل المأمون بعثة علمية حملت جزءاً كبيراً من هذه الكتب ، كما أرسل المأمون بعثة علمية الى القسطنطينية لاحضار الكتب اليونانية المتعلقة بالطب والفلسفة من المكتبة الشهيرة الموجودة فيها ، والتي كانت تشتمل على مائة ألف مجلد .

ومن المكتبات التي اشتهرت في التاريخ الاسلامي « خزائن الحكمة » أو « بيت الحكمة » [1] التي أنشئت في عهد الخليفة الرشيد ، ثم نمت وتوسعت بشكل كبير في عهد الخليفة المأمون ، وقيل أنها أنشئت في عصر المأمون [2] .

---

(١) ىنظر ضحى الاسلام للاستاذ أحمد أمين ص ٦١ نشر مكتبة النهضة المصرية .

(٢) دور الحكمة مؤسسات علمية للثقافة العالية اكثر كتبها في العلوم الأساسية (الفلسفة ، المنطق ، الطب ، الفلك ، الرياضيات) وان حركة الترجمة التي قام بها العرب (على اثر اتصالهم بغيرهم من الأمم) أطلعتهم على علوم ومعارف : لم تكن معلومة عندهم من قبل ، ومما وجدوا من المؤسسات الثقافية في البلاد التي فتحوها ، او التي اتصلوا بها هي دور الحكمة ، او دور العلم ، فوجدوا :

- في الاسكندرية ـ دار علم ـ استعان العرب بعلمائها ، في ترجمة وشرح كتب الحكمة .
- ووجد العرب في الأندلس ـ بيت حكمة ـ حوت نفائس الكتب والمصورات .
- وكان في بلاد الروم وقبرص عدة دور للحكمة .

ولما ترجم العرب كتب الحكمة ، واجتمع عندهم عدد كبير منها ، رأى الخلفاء ومحبو العلم ، أن يجمعوا هذه الكتب في اماكن خاصه سميت (بيت حكمة) او (دار حكمة) او (خزانة حكمة) وكلها بمعنى واحد ، يراد بها المحل الذي توضع فيه كتب الحكمة المختلفة . فعل الخلفاء هذا حبا بنشر العلم والمعارف بين كافة الطبقات : غنيها وفقيرها ليتيسر لكل فرد أن ينال قسطه من الثقافة ،

وقـد أعطى الخليفة المأمون لهـذه الخزانة العلمية كل ما يملك من وقت وجهد ، وسهر على تنمية الكتب الموجودة فيهـا ، والتي تمثل زبدة الفكـر اليوناني

لان كتب الحكمه كانت عـزيزة المطلب ، غالية الثمن ، يتعذر على الفقير ان يحصل عليها ، فاودع الخلفاء والعلمـاء ما اجتمع لديهم من كتبهـا في محلات خاصة ، وفتحوا أبوابهـا لكل قاصد ، ويسروا للناس أمـر الترجمـة والدرس ، والاستنساخ ، والمطالعة والنقـد ، فعلوا هـذا خدمة للعـلم ، وحبا بنشره (بدافع من الايمان الصادق ــ والوعي الاسلامي الصحيح) ليقف الناس على حقـائق الأمـور ، ونتـاج أفـكار الأمم التي سبقتهم في كـثير من النواحي الحضارية .

واول بيت حكمـة وقفنا على أخبـاره هو الذي اسسه العباسيون (في بغـداد) واشـتهر أمـره في خلافـة الرشيد ، ومن بعـده المامون ، ثم صار في العراق عـده خزائن للحكمة ، وانشا (الاغالبـة) دار حكمة بمدينة (القيروان) في شمال أفريقيه في القرن الثامن الهجرى ، وانشا الفاطميون دار حكمـه في (القاهـرة) حوت نفائس المخطوطات (في الحكمـة والعـلم والأدب والفـن) وسـاعـد الفاطميون (آل عمـار) في اواخـر القرن الخامس الهجـري على تأسيس دار حكمة في مدينة (طرابلس ــ لبنان) وكانت من الدور المشهورة في العالم الاسلامي ، ازدهرت مدة نصف قرن ، ثم دمرها الصليبيون .

ومن المؤسسات الثقافية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري هي (دور العـلم) فقد كان لها فضل في نشر الآداب والعـلوم بين طبقات الشعب ، فهي مؤسسات ثقـافيه عـامه لمن يقصدها ، فيجـد فيهـا الكتب المختلفة ، وتختلف عن دور الحكمة بعض الاختلاف ، فهي مؤسسات ادبيه ، اكثر كتبها تبحث في اللغـه والأدب والفقـه والأخبـار والسير ، ولا تخلو من كتب الحكمة .

ونجد في دور الحكمة ، ودور العـلم من التسهيلات ما يشجع الطالب على الاستزاده من طلب العلم ، فقـد كانت الكتب في متنـاول كل من يقصدها ، وتقـدم لهم لوازم الكتابة .

ويذكر ابن النـديم (صاحب الفهرست) ايضاحا لأهـداف بيت الحكمة (في بغـداد) :

لتسهيل سبل الدرس والمطالعـة ، والتاليف والترجمة ،لمـن يرغب بذلك ، فقد كان يتعذر عـلى الناس ان يقفوا علـى الكتب العلمية النادرة ، التي ترجمت من اللغات المختلفة الى اللغـة العربيـة ، وصرف في سبـل الحصول عليهـا وعلى ترجمتها وتجليدها المبالغ الكبيرة ، فذلل الخلفاء للناس سـبل المطالعـة والدرس ، في بيت الحكمة ، الذي أنشيء لنشر العـلوم والمعارف المنقولة عن الأمم الاخـرى ، والتي رغب الخلفـاء بنشرها بين الناس ، ليقفوا على حقـائق الامور ، وتراث الأمم التي تقدمتهم في شتى النواحي العلمية والفكرية ، ففتحوا أبواب الدار لكل قاصد ، وشوقوا الناس الى التعلم والاقبـال عليه ، ويسروا لهم المطالعة والدرس والاستنساخ ، مما كان له أعظم الاثر في إنعاش الحركـة الحضارية .

وفي تاريخ العلم عنـد العـرب من يوضع في الصف الاول (في قيـادة الحـركه العلمية) في العصر الاسلامي الزاهر وأولئك هم : الخليفة المأمون ، ونظـام الملك ، ونور الدين زنكي ، والحاكم بأمـر الله الفاطمي ، وصلاح الدين الأيوبي .

وقد ارتبطت هـذه الأسماء ارتباطا وثيقا رائعا بالنهضة العلمية ، وكان لكل منهم اثره الضخم في تاريخ الحـركة العلمية الاسلامية ، ومن الناس من يقول بحـق أن جميع الحركات الثقافية والعلمية في البلاد الاسلاميه ، منذ عهد المامون ، انما هي فروع للاصول التي أنبتها هذا الخليفة العظيم .

والفارسي والهندي ، وقد أمـر المأمون بترجمة هذه الكتب الى اللغة العربية ، وكان بيت الحكمة يشتمل على عـدد من المتخصصين في الترجمة الذين كانوا يقومون بترجمة هـذا التراث العلمي من أمثال يوحنا بن ماسويه ، وحنين بن اسحق ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وسعيد بن هارون .

وقد كانت رعايته لبيت الحكمه (في بغداد) وما أنفق عليه من مال ، وما جرى في عهده من ترجمات لتراث الاغريق ، مما يعد مضرب الامثال ، وكذلك كان نور الدين زنكي في سوريا سنة ٥٦٩ هـ راعيا للعلم ومسرفا على نهضته ، وحاميا له ، حتى أسلمها الى خلفه صلاح الدين ، بعد أن تلقاها ورعاها من سلفه العظيم (نظام الملك) ثم رعى صلاح الدين هـذا الغراس في مصر ، فحفظ التراث العلمي من غوغاء التتار ، وأنشأ المدارس ، وكان كـرم صلاح الدين وسخاؤه داعيا لاجتذاب العلماء والطلاب . وقد كانت مصر في منتصف المسافة تقريبا بين (العراق وخراسان) وبين (شمال أفريقيا والاندلس) .

أما نظـام الملك (ولد سـنة ٤٠٨ هـ) ـ وهو المبـدع للمدارس النظامية ـ فقد أنشأ شـبكة منها في المـدن والقرى ، ومدها بما تحتـاجه من كتب ، وعين لها المدرسين والطلاب والخدم ، وبذل للجميـع العطـايا والمنح ورتب لهم الأرزاق ، لينقطعوا للعـلم .

وكان المأمون أول من نادى بألا يكون نشاط بيت الحكمـة متوقفا على السخاء الشخصي للخلفـاء والأمراء . وهيأ للعلمـاء أرزاقا ثابتة يتقاضونها (من أوقاف ثابته) يقبض ريعها عن التكاليف المطلوبة لهـذه المؤسسه العظيمة ، وكذلك جرى العمل من بعـده ، على أن يكون لكل معهد أو مؤسسة (وقف ثابت) يفي بمطالبهـا .

يروى « ابن جبير » أنه رأى ببغداد نحوا من ثلاثين مدرسه ، كل منها ، يقصر القصر البديع عنهـا ، وأعظمها وأشـهرها « النظـاميه » التي بنـاها ، نظام الملك ، ولهذه المدارس أوقاف عظيمه ، وعقارات للانفاق على العلمـاء والمدرسين بها ، وللاجراء على الطلبـه ، ولقد قيـل ان ما كان ينفقه نظـام الملك بلـغ ستمائة ألف دينـار .

وكان وقف المدرسة النظامية في بغـداد خمسه عشر ألف دينـار سنويا ، ونظاميه أصفهان عشرة آلاف وهـكذا ...

وكذلك فعـل نور الدين زنكي ، حيث أوقف على المدارس (النوريه) أوقافا يكفي ريعهـا الوفير للانفاق على الطلاب والمدرسين ، انفاقا متصلا سخيا ، وكذلك كانت أوقاف التعليم في مصر ، فمنذ أواخر القرن الرابع ـ في عهـد العزيز بالله الفاطمي ـ أصبح الأزهـر معهـدا علميا ، أكثر منه مسجدا ، وقـد أوقف الحـاكم بأمـر الله على الجامع الأزهر وبيت الحكمه أوقافا عظيمه ، يقول المقريزي :

ان الحاكم كان يؤكـد أن هذه الوقفية دائمه للأبد ، لا يوهنها تقـادم السنين ، وقد حافظ الايوبيون على هـذا التراث ورعوا العـلم ، وفي بعض الحالات كانت تدفع نفقات التعليم من خـزانة الدولـة ، وقد روي عن أحـد الحكام أنه كان يقسم الخراج ثلاثا ، ويجعل الثلث للتعليم ، مما جعل هـذه الحقبه مـن الزمن تتيه على التاريخ ، بما شع فيها من ضياء العـلم ونور العرفان .

وقد زعم أحد المؤرخين أن «بيت الحكمة» كان جامعة كبيرة ، وأن المكتبة كانت جزءاً منه ، إلا أن هذا الزعم غير ثابت لعدم وجود دليل يؤيده ، وبخاصة أن هذه المكتبة العظيمة التي بلغت عصرها الذهبي في عهد المأمون ، لم تلق نفس العناية بعد عصر المأمون ، ولذلك ضعف شأنها ولكنها ــ بالرغم من ذلك ــ ظلت تقوم بمهمة علمية وثقافية كبيرة ، حتى دخل التتار بغداد ، وقتلوا آخر الخلفاء العباسيين ، وهنا كانت نهاية هذه المكتبة العظيمة ، التي زالت آثارها ، واندثر حطامها ، ولم يبق منها إلا ما ذكره المؤرخون في وصفها .

ومن المكتبات التي اشتهرت في تاريخنا الاسلامي ، المكتبة الحيدرية ، التي لا زالت موجودة حتى الآن في النجف (العراق) في المشهد الشريف الذي دفن فيه الامام علي بن أبي طالب ، وتشتمل هذه المكتبة على تراث علمي كبير ، ومؤلفات ثمينة ، تعد من الكتب النادرة والفريدة .

وهناك مكتبات أخرى لا تقل عن هذه المكتبات من حيث الأثر الذي تركته في إثراء الحركة الثقافية وتشجيعها ، كالمكتبة النظامية في بغداد ، ودار الحكمة في القاهرة ، والمكتبة الظاهرية في دمشق ، بالاضافة الى عدد كبير من المكتبات الخاصة التي كان يملكها بعض الخلفاء والسلاطين ، والتي كانت تشتمل على نفائس الكتب والمخطوطات النادرة .

وإذا كان تاريخنا زاخراً بمثل هذه المكتبات العظيمة ، التي كانت تشتمل على تراث عظيم ، في كل جانب من جوانب تراثنا ، الديني والفلسفي والأدبي والعلمي ، فاننا نشعر الآن بألم دفين يحز في النفس ، ويدمي الفؤاد كلما تذكرنا مصير هذا التراث الذي دمّر بعضه أو أحرق بسبب الحروب والخلافات السياسية ، وانتقل القسم الآخر الى مكتبات أوربا ومتاحفها .

ونحن مدعوون اليوم لاحياء هذا التراث من جديد ، والاضافة المستجدة إليه ، عن طريق بعث الحياة والفاعلية في حياتنا العلمية الرتيبة ، والانتقال من مرحلة الترديد والتكرار الى مرحلة الاجتهاد والاضافة والابداع .

الباب الثالث

التطور التاريخي
للتشريع الإسلامي

لم يدون التشريع الاسلامي خلال عصر الرسول الكريم أو خلال عصر الصحابة ، في تلك المرحلة التاريخية الأولى ، ذلك التقسيم والتبويب والتفريع ، الذي نجده في المراحل التي تلت ذلك ، فالرسول الكريم ﷺ عندما فارق الحياة ترك لأصحابه الأسس العامة ، والمبادىء الكلية التي قامت عليها الشريعة الاسلامية فيما بعد .

وتتمثل هذه الأسس والمبادىء في الآيات القرآنية التي عرضت بشكل مجمل لمعظم الأصول والقواعد ، ثم جاءت السنة النبوية موضّحة ومفسّرة ومكمّلة لما جاء في القرآن الكريم .

وكانت هذه الأصول والقواعد كافية للمجتمع الاسلامي الأول الذي كان يعيش في داخل الجزيرة العربية ، حيث الحياة محدودة ، والعادات معهودة ، إلا أن اتساع الدولة الاسلامية ، وخروج المسلمين من جزيرتهم باتجاه العراق والشام ومصر ، ولّد الحاجة إلى توسيع باب الاجتهاد ، وتفريع الأحكام ، وايجاد الحلول للمشاكل المستجدة ، فتطوّر الفقه الاسلامي واتسعت جوانبه ، سواء فيما يتعلق بجانب التفريع ، أو جانب التنظيم ، حتى وجدنا بعد فترة من الزمن ، أن هذا التشريع الذي كان قاصراً على القرآن والسنّة ، يتّسع بشكل كبير ، وإذا بمواكب الفقهاء تتكاثر وتثري تشريعنا العظيم ، بالاجتهادات النيّرة ،

المستمدة من النصوص ، والمحققة للمصالح الاجتماعية المتطورة ، وفق منهاج أصولي دقيق .

واليوم فان التاريخ يعيد نفسه ، فبين أيدينا كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ ، وحياتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية قد تغيرت تغيراً جذرياً ، عما كان عليه الحال خلال القرون الهجرية الأولى ، والحاجة تدعونا الى ايجاد الحلول المناسبة للمشاكل المستجدة ، وإذا كانت الاجتهادات التي قال بها الفقهاء السابقون قاصرة عن تلبية حاجات مجتمعنا المعاصر ، فعلينا أن نعود الى المنهل العذب الصافي (كتاب الله وسنة رسوله) لنستخرج منهما ـ عن طريق الاجتهاد ـ ما يحقق المصلحة لمجتمعنا وما يستجيب لمتطلبات العصر الذي نعيش فيه .

★ ★ ★

الفصل الأول

الاجتهاد

معنى الاجتهاد :

الاجتهاد في معناه اللغوي هو بذل الجهد في تحقيق أمر من الأمور التي تحتاج الى مشقة وجهد ، أما معناه الأصولي فهو أن يبذل الفقيه جهده العقلي في استخراج حكم شرعي من دليله •

ومن المعروف أن النص الشرعي الثابت ، قد يدل على الحكم دلالة مباشرة ، وفي هذه الحالة لا مجال للاجتهاد ، وقد يرد الحكم غير واضح الدلالة ، فيدل على أكثر من معنى ، ولا بد للمجتهد في هذه الحالة من أن يعتمد على اجتهاده ، في استخراج الحكم المراد •••

وقد اعترف التشريع الاسلامي بالاجتهاد كمصدر مستقل من مصادر التشريع ، وذلك عندما تكون النصوص التشريعية ، غير واضحة الدلالة ، أو عندما لا تتعرض النصوص لبعض الأحكام ، فيلجأ المجتهد الى الاجتهاد والرأي ، ليقرر الحكم المناسب الذي يتفق مع مقاصد الشريعة ، ويحقق أهدافها •

تاريخ الاجتهاد : يرجع تاريخ الاجتهاد الى عصر الرسول الكريم ﷺ إذ كان يجتهد في كثير من المسائل التي لم ينزل فيها الوحي ، ونستطيع أن نقسم الاجتهادات الصادرة عن الرسول الكريم الى قسمين :

أولا : اجتهادات بيانية : وتدخل هذه الاجتهادات ضمن مهمة الرسول الأولى ، وهي بيان الأحكام الواردة في القرآن ، عن طريق بيان المجمل ، وتقييد المطلق ، وتخصيص العام ، كقوله ﷺ :

● لا يرث القاتل ● لا وصية لوارث ● يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب •

ثانياً : اجتهادات مطلقة : وتدخل هذه الاجتهادات ضمن مفهوم الاجتهاد بمعناه الاصطلاحي ، إذ يستعمل الرسول فيها عقله ، ويستشير فيها صحابته ، ويختار بعد ذلك ما يحقق المصلحة ، ومن هذا النوع اجتهاده ﷺ في موضوع « أسرى بدر » الذي عاتبه الله تعالى عليه ، في قوله سبحانه :

● ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض •

وقد أقر جمهور العلماء الاجتهاد من الرسول الكريم ، لأن الاجتهاد إذا كان جائزاً من المجتهدين ، مع عدم اتصافهم بالعصمة ، فهو جائز من الرسول الكريم من باب أولى ، وقد أشار الرسول الى اجتهاده بقوله ﷺ :

● إني أقضي بينكم بالرأي فيما لم ينزل فيه وحي [1] •

وقد ظهر الاجتهاد بشكل واسع ، وظهرت الحاجة الماسة إليه بعد وفاة الرسول الكريم ، ففي عصره كان الصحابة يعتمدون عليه في كل مسألة من المسائل ، ولكن بعد وفاته اضطروا للاجتهاد ، وبخاصة وأن المشاكل المستجدة التي ظهرت بكثرة بعد الفتوحات الاسلامية ، قد فرضت اللجوء الى الاجتهاد والاعتماد عليه •

ومن أهم اجتهادات الصحابة ما يلي :

١ ــ اجتهاد أبي بكر الصديق في قتال المرتدّين الذين منعوا الزكاة •

٢ ــ اجتهاد عمر بن الخطاب في منع إعطاء المؤلفة قلوبهم من أموال الزكاة •

٣ ــ اجتهاد عمر بن الخطاب في وقف قطع يد السارق بعد أن حلت المجاعة بالمسلمين ، لأن ايقاع العقوبة لا يؤدي الى منع السرقة في حالة الجوع •

---

(١) وقد أقر رسول الله (ص) معاذاً على ذلك ، حين بعثه الى اليمن (قاضيا) فقال له : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله ، قال : فان لم يكن في كتاب الله ، قال : فبسنة رسول الله ، قال : فان لم يكن في سنة رسول الله • قال : أجتهد رأيي ، لا آلو ، قال : فضرب رسول الله (ص) صدري ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ، لما يرضي الله •

وبعد عصر الصحابة اشتدت الحاجة الى الاجتهاد ، وبخاصة بعد أن تعقدت الحياة في المجتمع الاسلامي ، فتكونت المدارس الاجتهادية في كل من الحجاز والعراق ، وأصبح لكل مدرسة منهج اجتهادي ، متميز في أصوله وقواعده ، فمدرسة الحجاز عرفت بمدرسة الحديث ، وقد تأثرت بمنهجها بالصحابة الذين عاشوا بالمدينة ، من أمثال : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، ومن جاء بعدهم من تلاميذهم ، وقد استطاعت هذه المدرسة أن تحتل مكان الصدارة ، نظراً لمكانتها من نفوس العلماء ، وبخاصة وأن منهجها يقوم على أساس الاعتماد على الحديث الذي كان متوافراً في الحجاز ، ولهذا لم يكن علماء هذه المدرسة يلجؤون الى الرأي الا قليلا • أما مدرسة العراق فقد عرفت بمدرسة الرأي ، نظراً لاعتمادها على « الرأي » والتوسع في الاجتهاد ، وسبب ذلك لا يعود الى زهد في الحديث ، وإنما لعدم توافر الحديث الصحيح في العراق ، كما كان متوافراً في الحجاز ، وما وصل منه الى العراق قد دخله التحريف والكذب ، فاختلطت الروايات الصحيحة بغيرها ، مما صعب الاعتماد على هذه الروايات •

وإذا كان علماء كل من المدرستين ينظر الى المدرسة الأخرى بقدر من الريبة والحذر في بداية الأمر فاننا نجد أن شقة الخلاف بين الاتجاهين قد ضعفت ، وبخاصة بعد أن وضعت القواعد المنظمة لعلم مصطلح الحديث ، وبفضل الذين جاءوا بعد هذه الفترة ، كالشافعي ، قد حاولوا أن يجمعوا بين منهجي المدرستين ـ أي بين الحديث والرأي ـ وهكذا استطاع الفقه الاسلامي ، بفضل الاجتهاد ، أن يقفز قفزات رائعة ، خلال فترة قصيرة من الزمن ، وأن يزدهر ازدهاراً كبيراً ، سواء في مجال الاجتهاد ، أو التدوين ، أو التأليف ، أو التنسيق •

شروط المجتهد :

قد يحسب بعض الناس أن الاجتهاد أمر يسير ، يمكن لأي فرد أن يلجأ إليه ، أو يتصدى له ، وهذا خطأ فادح ، فالفقه الاسلامي علم متكامل الأركان ، يعتمد على أصول وقواعد ، ولا يمكن لأي فرد أن يتصدى للاجتهاد ، قبل أن

يكون عارفاً بوسائل الاجتهاد الأساسية ، التي تعطي لهذا الاجتهاد الصفة العلمية، التي تبعده عن الخطأ والزلل .

وبالرغم من الشعور الملحّ بضرورة الاجتهاد في عصرنا الحديث ، إلا أنه لا يجوز أن يتصدّى لهذا العمل العظيم والدقيق إلا من توفرت فيه شروط الاجتهاد وأهمها :

١ ــ أن يكون المجتهد عالماً باللغة العربية ، قواعدها ، وأساليبها ، ومفرداتها ، ليكون قادراً على فهم النص التشريعي فهماً صحيحاً .

٢ ــ أن يكون عالماً بعلوم القرآن ، والمباحث المتعلقة به ، كأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والمكّي والمدني في الآيات ، ليساعده ذلك على فهم الآيات .

٣ ــ أن يكون عالماً بالحديث وقواعده وأصوله ، ليستطيع أن يعتمد على الروايات الصحيحة ، في بيان الأحكام المتعلقة بالقرآن .

٤ ــ أن يكون عالماً بقواعد أصول الفقه ، التي تساعده على الاستنباط الصحيح للأحكام ، من مصادرها وأدلتها ، ليكون استنباطه خاضعاً لمنهج علمي ، لا لمجرد الرأي والهوى .

٥ ــ أن تتوافر في المجتهد الملكة الفقهية والذوق التشريعي الذي يساعده على فهم المقاصد والعلل وقياس الأحكام بنظائرها ....

فاذا توافرت هذه الشروط في الفقيه ، فعندئذ يعتبر الاجتهاد واجباً في حقه ، ولا يجوز له أن يقلّد غيره من العلماء ، إذا ثبت لديه الدليل على خلاف ما ذهب اليه الفقيه السابق [1] .

★ ★ ★

(١) ينظر أصول التشريع الاسلامي للاستاذ علي حسب الله ص ٩٥ .

الفصل الثاني

المدارس الفقهية

المراد بالمدارس الفقهية :

يراد بالمدارس الفقهية الاتجاهات الفقهية التي ظهرت نواتها الأولى بعد الرسول الكريم ﷺ ، حيث تفرق الصحابة رضوان الله عليهم في الأمصار المختلفة ، والتف الناس حولهم يسمعون منهم حديث رسول الله ﷺ ، ويأخذون عنهم آراءهم في الفتيا والقضاء ... ومع الزمن تأكدت هذه الاتجاهات ، وأصبح لكل منها آراء ، تختلف جزئياً أو كلياً ، عن آراء الاتجاه الآخر ، وبخاصة في المسائل الاجتهادية حيث يكون للرأي (أعني الرأي الموضوعي — لا مجرد الرأي الشخصي) دور كبير فيها ....

وأود أن أؤكد أن من أهم العوامل التي ساهمت في تكوين هذه المدارس ما يلي :

أولا : اختلاف البيئة :

وهذا عامل مهم في التأثير على المجتهد ، فالمجتهد الذي عاش في المدينة ، لم يشعر بضغط الحوادث المستجدّة ، والمستحدثة في المعاملات والعادات ، كما يشعر بها الفقيه الذي كان يعيش في العراق أو الشام ، فالحجاز ظلت لفترة طويلة من الزمن ، متأثرة بعمل أهل المدينة ، الذين كانوا متأثرين بحياتهم بحديث رسول الله ﷺ وتعاليمه ، ولم تحدث في الحجاز تطورات اجتماعية كبيرة ، خلال القرن الأول ، ولهذا كان علماء المدينة ، يأخذون بحديث رسول الله ﷺ ، ولم يجدوا حاجة ملحّة ، للتوسع في الأخذ بالرأي والقياس .

ثانياً : اختلاف مناهج التفكير لدى الفقهاء :

وهذا أيضاً عامل آخر ، إذ لم يكن الفقهاء يخضعون لطبيعة واحدة ، من

حيث استعداداتهم العقلية والذهنية ، ولهذا كان بعضهم يؤثر الأخذ بالحديث ، ويتورّع عن اللجوء الى الرأي ، لئلا يحكّم عقله وهواه في فهم النص الشرعي ، في الوقت الذي نجد فيه فئة أخرى من الفقهاء ، ترى ضرورة التوسع في الاجتهاد ، والاحتكام الى العقل في المسائل الاجتهادية والقياسية ، وفق منهج أصولي دقيق .

ثالثاً : انتشار حركة الوضع في الحديث :

وقد لعب هذا العامل دوراً بارزاً في تأكيد الاتجاهات الفقهية المختلفة ، وتعميق التباين لوجهات النظر ، بين فقهاء هذه الاتجاهات ، ففي بلاد الحجاز ما زال حديث رسول الله نقياً صافياً ، لم يدخله الوضع ، ولم تختلط الروايات المكذوبة بالصحيحة ، لكثرة الصحابة في تلك البلاد ، وسهولة كشف كل الروايات المكذوبة بيسر ، بخلاف بلاد العراق ، فقد انتشرت الروايات المكذوبة فيها بكثرة واختلطت بالروايات الصحيحة ، ولم يعد بامكان الفقهاء أن يعتمدوا على الرواية أصلا ، خوفاً من أن تكون موضوعة ، ولهذا نجد أن شقة الخلاف التي اتسعت بين الاتجاهين المختلفين في العراق والحجاز ، بين أهل الرأي وأهل الحديث قد تضاءلت الى درجة كبيرة ، بعد أن ظهر علم أصول الحديث ومصطلحه ، إذ استطاع علماء الحديث أن يخضعوا الروايات الى منهج علمي يكشفون به الرواية الصحيحة من الموضوعة .

مدرسة الحديث :

مدرسة الحديث هي المدرسة الأولى ، وقد سميت بمدرسة المدينة أو مدرسة الحجاز ، وهذه المدرسة نشأت في المدينة ، كما يدل عليها اسمها ، ومن الطبيعي أن تكون هذه المدرسة التي نشأت في أحضان البيئة ، التي عاش فيها معظم الصحابة ، متأثرة الى حد كبير ، بحديث رسول الله ﷺ ، وبعمل صحابته ومناهج تفكيرهم ...

والواقع لم تقتصر هذه المدرسة على علماء المدينة فحسب ، وإنما كانت شاملة لكل من تأثر بمنهج هذه المدرسة ولو كان يعيش في العراق والشام ...

ولهـذا نجد كثيراً من العلماء والفقهاء ، كانوا يأخذون بمنهج مدرسة الحديث ، ويكرهون الرأي ، من أمثال : الشعبي ، والثوري ، والأوزاعي ، وجميع هؤلاء يعيشون خـارج الحجاز ، في الكوفة أو الشام .

وقد تأثرت هذه المدرسة بعـدد من الصحابة الكرام الذين كانوا يعيشون في الحجاز من أمثال : زيد بن ثابت ، عبد الله بن عمر ، ثم اشتهر من علماء هـذه المدرسة ،سعيد بن المسيب ، الذي تزعّم هذا الاتجاه ، وكان له تلاميذ تأثروا بمنهجه ، وأخـذوا بآرائه ، حتى جـاء الامام مالك ، فتزعّم هـذه المدرسة وحمـل لواءها .

وإذا كان علماء هـذه المدرسة قد أخـذوا بالحديث ، ورفضوا الرأي وكرهوه ، فان هذا لا يعني أنهم لم يأخذوا بالرأي ، بل نلاحظ أنهم لم تسعفهم النصوص التشريعية من قرآن وسنّة ، ولم يسمعوا شيئاً من صحابة رسول الله ، فانهم كانوا أحياناً يعتمدون على الرأي ، ويجتهدون في المسائل .

مدرسة الرأي (١) :

تمثل مدرسة الرأي الاتجاه الثاني ، الذي كان يقابل مدرسة الحديث ، وقد نشأ هـذا الاتجاه في العراق ، ومما ساعد على ظهوره هناك ، أن حديث رسول الله ﷺ الذي كان متوافراً بكثرة لدى علمـاء المدينة كان قليلا في العراق ، بسبب بعد العراق عن المدينة ، وإذا وصل هذا الحديث الى العراق ، فان الشك يتطرق الى صحة ثبوته وروايته ، وبخاصة بعد أن ثبت أن كثـيراً من الروايات قد وضعت عن الرسول الكريم ، ونسبت إليه دون أن تكون صحيحة .

وقد تأثر علماء هذه المدرسة ببعض الصحابة الذين انتقلوا الى العـراق وعاشوا فيها ، من أمثال : عبد الله بن مسعود ، وعلي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبي موسى الأشعري ، والمغيرة بن شعبة ، وربما كان عبد الله بن مسعود من أكثر الناس تأثيراً في هذه المدرسة ، نظـراً لأن عمر بن الخطاب أرسله الى الكوفة معلماً وقاضياً ، فالتف الناس حوله ، وأخذوا عنه علمه ومنهجه .

---

(١) ينظـر ــ نظـرة عـامة في تاريخ الفقـه الاسلامي للدكتور عـلي حسن عبـد القـادر ص ١٥٠ .

وقد اشتهر عــدد من علماء هذه المدرسة خلال القرن الأول من أمثــال : علقمة بن قيس ، والأسود بن يزيد ، ومسروق بن الأجدع ، وشريح بن الحارث (القاضي) ، ولما ظهر أبو حنيفة نسبت زعامة هــذه المدرسة إليه نظــراً لمكانته في الفقه ، ولمجالسه العلمية التي كانت تضم نخبة ممتازة من تلاميذه الذين دوّنوا آراءه ، وخدموا مذهبه ، حتى أصبح من أكثر المذاهب الفقهية اتساعاً وشمولا ، وأوسعها انتشاراً وقبولا ....

وكان منهج هــذه المدرسة يعتمــد على نقطــة أساسية ، هي أن الشريعة الاسلامية تقوم على أصول محكمة ، وقواعد كلّية ، وهذه الأصول والقواعد تشتمل على علل معقولة المعنى ، وعن طريق فهم تلك العلل ، يمكننا أن نطبقهــا على جميع الفروع المستحدثة ، عن طريق القياس أو الاستحسان ، أو المصلحة المرسلة ، وهكذا ينمو الفقه الاسلامي ويزدهر ، ويزداد شمولا واتساعاً ، عــن طريق الفتيا والقضاء ، ولهذا نجــد أن علماء هذه المدرسة لم يكونوا يحسّون بالحرج الكبير ، أمــام أية مشكلة مستحدثة ، أو أمــام أي إفتاء أو قضاء ، وإنما كان منهجهم في الفهم (أي في الفقه) يساعدهم على التوسع في الاجتهاد، والإفتاء في كل مسألة من المسائل وفق المنهج الاجتهادي الذي اعتمدوه .... بخلاف مدرسة الحديث، فانهم كانوا يتهيبون من الفتيا والقضاء ، وكثيراً ما كانوا يجيبون السائل بكلمة لا أدري ...

وهنا أودّ أن أشير ، إلى أن هــذه المدرسة ، بالرغم من عنف النقد الذي وجّه اليها من علماء الحديث ، قد استطاعت أن تخــدم الفقه الاسلامي ، خدمة جليــلة وعظيمة ، واستطاعت بفضل منهجها الرحب وتعاملها المرن أن تعــالج موضوعات ، وتضع حلولاً وآراء ، وتتصدى لمشاكل ، ما كان بامكان مدرسة الحديث أن تتصدى لها ، وبخاصة وأن هذه المدرسة قد عاشت في العراق ، حيث الخلافة العباسية، وحيث التطور الحضاري ، في أرقى صوره ، يفــرض على المجتمع الاسلامي ، صوراً مستحدثة ، من المعاملات والتصرفات والعقود ، وكان لا بد أن يتصدى الفقهاء ، لبيان الرأي في هــذه المعاملات .

الفصل الثالث

المذاهب الفقهية

لا تمثل المذاهب الفقهية آراء خارجة من نطاق النصوص التشريعية الثابتة ، وانما نجد الحرص الأكيد من جميع أئمة المذاهب المشهورة وغير المشهورة ، على تلمّس الحق والصواب ، ونظراً لأن الصواب في المسائل الاجتهادية ، لا يمكن التأكد منه فقد حاول كل فقيه من الفقهاء ، أن يتلمّس الصواب ، ويصل اليه عن طريق الاجتهاد ، إذ لا يجوز في نظر الاسلام التقليد لمن توفرت فيه شروط الاجتهاد (إذا ثبت لديه الدليل ـ على خلاف ما ذهب إليه الفقيه السابق) ولهذا نصل الى أن تعدد الاجتهادات ، وتعدد المذاهب ، إنما هو ظاهرة فقهية ، أنجبت هذه الثروة الضخمة من الآراء والفروع .

ومن الخطأ البيّن ، أن ننظر بروح التعصّب المذهبي الى الآراء المخالفة لاجتهاداتنا ، فمثل هذا التعصّب مخالف لروح الاسلام ، وبخاصة أننا لا ندري أين الصواب ، فالعقول تتفاوت في قدراتها وتتباين ، فما كان صواباً عند أحد الفقهاء ، ربما لا يكون كذلك في الحقيقة ، ولهذا من الأدب الاسلامي ، أن نراعي الأخلاق الاسلامية في نظرتنا لآرائنا واجتهادنا ، وفي نظرتنا لآراء واجتهادات مخالفينا ....

وسوف أعرض هنا بعض المذاهب للتعريف بها (١) :

أولا: المذهب الحنفي :

ينسب هذا المذهب الى شيخه ، النعمان بن ثابت ، المولود في الكوفة

---

(١) ينظر تاريخ المذاهب الاسلامية للاستاذ المرحوم محمد أبو زهره ـ الجزء الثاني ـ ونظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي للدكتور علي حسن عبد القادر ، وتاريخ التشريع الاسلامي للاستاذ الخضري .

سنة ٨٠ هـ ، والمتوفى عام (١٥٠ هـ) وقد نشأ في الكوفة ، حيث الحركة العلمية الدائبة ، فتأثر في طفولته ، وتلقى العلم عن كبار علمـاء الكوفة ، وبفضل ذكائه وصبره وجهده ، استطاع أن يحتل مكانة كبيرة بين علماء عصره ، مما مكّنه أن أن يتصدّى للتدريس ، فالتفّ الناس حوله ، ووجدوا فيه علماً غزيراً ، وقدرة على المناظرة والمجادلة ، وموهبة في البحث عن العلل والأسباب .

ولعل الشيء البارز في منهجه التدريبي ، هو أسلوبه في الحوار ، والذي يشبه فيه طريقة « سقراط » فهو لا يلقي الدرس إلقـاءً ، ولكن يعرض المسألة ؛ ثم يفتح فيها باب المناقشة ، فيبدي كل فرد من تلاميذه رأيه فيها ثم إذا انتهى الحوار أبدى وجهـة نظـره ، معتمداً في ذلك على ما تمخّضت عنه المناقشة ، ولذلك ، استطاع بفضل هذه الطريقة أن ينجب من تلاميذه علماء ، فاقوا أقرانهم بعلمهم ، وبقوة حجّتهم ، وخدموا آراء شيخهم خدمـة جلّى ، فاذا بالمذهب الحنفي يصبح من أكثر المذاهب اتساعاً وشمولا .

وقد توسع المذهب الحنفي في الأخذ بالقياس والرأي ، لا عزوفاً عن حديث رسول الله ﷺ ، ولكن لقلة الحديث الصحيح في العراق فاذا صحّ الحديث عنه ، فانه لا يخرج عنه أبداً، فاذا لم تثبت صحة الحديث عنده ، فعندها يلجـأ الى الرأي ، مستعملا ، القياس ، والاستحسان ، وقد كان يملك قدرة فائقة على عملية التفريع ، واستخراج الأحكام من النصوص ، وهذا يدلنا على تمكّنه من فهم الشريعة ، ومن استيعاب مراميها ومقاصدها ... ومما ساعده على قـدرته في تخريج الأحكام والتوسع في الاجتهادات ، وبخاصة في مجال المعاملات ، أنـه كان تاجراً ويمارس البيع والشراء ، وبفضل هذه الصفة ، استطاع أن يكون أكثر دقّة وواقعيّة ، في اجتهاداته ، المتعلقة بالمعاملات والعقود ، ولا شـك أن مـن تمرّس في التجارة ، وعرف أسرار هذه المهنة وخفاياها ، فهو أقدر على الاجتهاد المحقق للمصلحة ، ولهذا نجـد أن أبا حنيفة ، قد توسع في الأخذ بالاستحسان ، عندما يؤدي تطبيق القواعد القياسية الى حـرج ومشقّة ، كما أنه اعتمـد على

العرف الجاري بين التجار عندما يكون هناك نص شرعي .

وبالاضافة الى هذا فاننا نلاحظ أن « أبا حنيفة » قد كان ينتصر ـ من خلال اجتهاداته ـ للحرية والارادة ، التي ينبغي أن تتوفر للانسان ، فالإرادة الانسانية ، ينبغي أن تبقى مصونة ، لا يتدخل أحد فيها إلا عند الضرورة الاجتماعية ، ولهذا نجده يمنع الحجر على السفيه (١) ، ويعطي الولاية كاملة للفتاة البالغة في مجال المال والزواج (٢) .

ومن أشهر تلاميذه ، أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم) المتوفى سنة ١٨٢هـ ، الذي شغل منصب « قاضي القضاة » وأول من عيّن في هذا المنصب ، و (ومحمد ابن حسن الشيباني) المتوفى سنة ١٨٩ هـ ، وقد عرف الامام محمد بتدوينه للفقه وله كتب كثيرة تعتبر المصادر الأساسية للمذهب الحنفي ، ويمتاز الامام محمد ، بأنه قد جمع في آرائه بين مدرستي الحديث والرأي وحاول التقريب بينهما ، وبخاصة وأنه تلقى العلم عن الامام مالك ، شيخ مدرسة الحديث في المدينة .

ويلاحظ أن الفقه الحنفي قد نما نمواً كبيرا ، وانتشر في كثير من الأمصار الاسلامية ، ويعود الفضل في ذلك إلى كثرة تلاميذ أبي حنيفة ، الذين خدموا آراءه ، ودوّنوها ونشروها ، ومما ساعد أيضاً على خدمة هذا المذهب أنه كان المذهب الرسمي للدولة العباسية ، نظراً لأن قاضي القضاة هو الامام أبو يوسف ، تلميذ أبي حنيفة ، إذ كان يختار للقضاء ، من درس الفقه الحنفي دون غيره ...

المذهب المالكي :

ينسب المذهب المالكي إلى شيخه الامام مالك بن أنس ، المولود في المدينة

(١) يرى أبو حنيفة أن الحجر على السفيه الذي تجاوز سن الخامسة والعشرين غير جائز ، لانه هو صاحب الحق في المصرف بامواله ، وفي الحجر عليه إهدار لكرامته الانسانية .

(٢) معظم الفقهاء ـ ما عدا الشافعي ـ يرى عدم إجبار البالغة على الزواج ممن لا تريده ، إلا أن عبارتها لا تصلح لانشاء عقد الزواج ولا بد أن يتولى وليها صيغة العقد ، وقد أثبت أبو حنيفة للبالغة ولاية كاملة في موضوع الزواج ، كما لها ولاية كاملة في موضوع المال ، ولحماية حق الولي ، ولمنع سوء الاختيار ، فقد اشترط الكفاءة بين الزوجين دفعا لأي ضرر متوقع .

سنة ٩٣ هـ ، والمتوفى فيهـا سنة ١٧٩ هـ ، وقد نشأ مالك بن أنس في المدينة ، فتأثر بالبيئة العلمية التي كانت مسيطرة على مدينة الرسول الكريم ، وتلقى العلم من علماء المدينة ، فاستطاع بجهـده ودأبه ، وإلحاحه في طلب العلم ، أن يتبوأ مكانة كبيرة في النفوس ، ولما جلس للتدريس في مسجد الرسول الكريم ، رحل الناس اليه من كل مكان ، والتفـّوا حوله ، فكان يتكلم في الحديث ، وفي الفقه ، وقد ترك كتابه الشهير « الموطأ » الذي جمع فيه الأحاديث الصحاح والفتاوى ، ورتبها حسب الترتيب الفقهي ، فكان هـذا الكتاب ، كتاب فقه وكتاب حديث في آن واحـد .

ويختلف منهج الامام مالك عن منهج الامام أبي حنيفة ، من حيث أن الامام مالك بن أنس كان زعيم مدرسة الحديث ، فكان يكره منهج مدرسة الرأي في العراق ، ولعل ذلك يعود إلى بيئة المدينة التي عاش فيها الامامما لك ، والتي كان الحديث شائعاً فيها ، وبالاضافة الى هـذا ، فقد كان الامام مالك متخصصاً في الرواية ، وبالرغم من هذا فلم يكن محدّثاً فقط ، وإنما كان فقيهاً أيضا ، وبالرغم من كراهيته لمنهج أهل الرأي في العراق ، فقد كان يأخذ بالرأي ، ويعتمـد على الاجتهاد والقياس والمصلحة ، عندما لا يكون هناك نص شرعي ثابت .

وكان مالك يرى أن عمل أهل المدينة حجّة ، يجب العمل به ، لأن أهـل المدينة كانوا متأثرين في حياتهم ، برسول الله ﷺ وبصحابته ، ولهذا كان يعتبر عمل أهل المدينة حجة مقدمة على خبر الآحاد ...

وقد عرف عن الامام مالك أنه كان قوياً في الحـق ، وهذه الصفة كثيراً ما تقود صاحبها الى مواقف قاسية ، قد تنتهي بالشخص الى الموت أو السجن أو التعذيب .

وقد امتحن الامام مالك في عهـد أبي جعفر المنصور ، وضرب بالسياط حتى انخلعت كتفه ، وهال أهل المدينة وتلاميذ الامام أن يروا إمامهم وشيخهم تنزل المحنة به ، دون ذنب اقترفه ، ولعل ذنبه الوحيد هو قوله الحق ، سواء رضي

الحكام أم كرهوا ، وقيل في سبب محنته أنه أفتى بعـدم وقوع يمين المستكره ، أخذاً من حديث رسول الله ﷺ « ليس على مستكره يمين » فأدى هـذا الى أن كثيراًممن بايعوا الخليفة مكرهين قـد تحللوا من بيعتهم ؛ وخـرجوا على الخليفة ؛ لأن العهد الذي أخـذ منهم كان باطلا ٠٠٠٠ وقيل غير ذلك (أي في سبب محنته) ٠

ومهما يكن من أمـر ، فان الحكام قد ضاقوا به وبجرأته ، فقادوه الى السجن ، ولكن سرعان ما أدرك الخليفـة المنصور ، ما يمكن أن يترتب على تصرفه هـذا ، من إضرار بمكانته بين الناس ، فأرسل الى الامـام الممتحن ، واعتذر منه ، متعللا بأنه لم يأمر بما حـدث ، ولم يعلم به ٠٠٠ وهكذا انتهت المحنة ، وخرج الامام منها معززاً مكرماً ، وازداد اقبال الناس عليه ، مكبرين فيه شجاعته ، مقدرين له تضحيته ٠

وقـد اشتهر من تلاميذ مالك عـدد من العلماء منهم : عبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم ، ، وقد قام تلاميذه من بعده بتدوين آرائه ونشرها ، وقـد انتشر هـذا المذهب في مصر ، ثم انتقـل الى المغرب والأندلس ، ولا زال حتى الآن في بلاد المغرب والكويت ٠

المذهب الشافعي :

ينسب المذهب الشافعي الى محمد بن ادريس الشافعي المولود في غـزة سنة ١٥٠هـ والمتوفى في مصر سنة ٢٠٤هـ ، وقد نشأ محمد بن ادريس يتيماً بسبب فقد والده ، فانتقلت به أمه إلى مكة ، وفي مكة تلقى العلم عن شيوخه فيهـا ، ثم رحل الى المدينة حيث التقى بالامام مالك وأخذ عنه العلم ، وبعد وفاة الامام مالك أصبح والياً على نجران ، إلا أنه سرعان ما اتهم بتشيّعه للعلويين والدعوة لهم . نحمل الى الخليفة « الرشيد » في الرقّة ، إلا أنه بريء من هـذه التهمة ، وبعدها انتقل الى بغداد ، وكان على صلة وثيقة بالامام محمد بن حسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة ، فأخذ عنه كثيراً من علمه وفقهه ٠٠٠ وهكذا استطاع الشافعي

أن يجمع بين منهجي استاذه الأول مالك بن أنس ــ زعيم مدرسة الحديث ــ وأستاذه الثاني محمدبنحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة ــ زعيم مدرسة الرأي ــ وبفضل هــذه الرضاعة العلمية بين الاتجاهين المختلفين والمدرستين المتباينتين استطاع الشافعي أن يخرج عن آراء شيخه مالك ، وأن يضع منهجاً اجتهادياً جديداً ، يجمع فيه بين الاتجاهين •

ونستطيع أن نقول أن الشافعي يعتبر مجدّداً بالنسبة لعصره ، فقد لجأ في تدريسه وتقريره للأحكام إلى منهج جديد يعتمد فيه على وضع القواعد الأساسية والأصول الكلية ، سواء بالنسبة لمصادر التشريع ، أو بالنسبة لوضعه « علم أصول الفقـه » •

فالشافعي هو أول من وضع علم أصول الفقه ، ولم يكن الفقـه ــ قبـل الشافعي ــ خاضعاً لقواعد ثابتة ، وموازين دقيقة ، وانما كان مجـرد آراء ، وفروع مستنبطة ، فأراد الشافعي أن يضع لعلم الفقه والاستنباط ، منهجاً علمياً ، يخضع لقواعد وأسس ، وقد أعانه على هذه الغاية ملكة فقهية وحاسة ذوقية ، استطاع بها أن يستفيد من العلم الذي تلقاه عن شيوخ عصره ، من علماء الحديث وعلماء الرأي ، فوضع كتابه الذي سمّاه : « الرسالة » وهذا الكتاب هو أول كتاب وضع في علم أصول الفقـه ، الذي ينسب الى الامام الشافعي ، وله كتب أخـرى أهمها « الأمّ » •

وقد قام تلاميذ الامام الشافعي من بعـده بخدمة آرائه وتدوينها ، ونشر مذهبه في كثير من البلاد الاسلامية ولا زال حتى الآن قائماً في كثير من البـلاد الاسلامية في الشام ومصر •

المذهب الحنبـلي :

ينسب هذا المذهب الى الامام أحمد بن حنبل المولود في بغداد سنة ١٦٤ هـ والمتوفى فيها سنة ٢٤١ هـ •

وقد بدت على أحمد بن حنبل منذ طفولته علائم النجابة والنبوغ والورع

والتقوى والصلاح ، ولهذا اتجه الى دراسة الحديث والرواية ، فكان يرحل في الأمصار المختلفة ، باحثاً عن الحديث ، وخلال رحلاته المتعددة ، أتيحت له الفرصة للتعرف على كثير من العلماء والفقهاء ، وقد التقى بالامام الشافعي في الحجاز فأخذ عنه الفقه والأصول .

ويلاحظ أن أحمد بن حنبل قد جمع بين الحديث والفقه ، فهو محدّث ، وهو فقيه ، وقد اشتهر بالحديث أكثر من اشتهاره بالفقه ، ولهذا عدّه بعض العلماء محدثاً وليس فقيهاً ، ولكن من المؤكد أن له آراء فقهية ناضجة ، ولعله ابتدأ محدّثاً ، ثم تأثر بمن التقى بهم من الفقهاء ، أمثال أبي يوسف والشافعي ، فحاول أن يجمع بين الحديث والفقه ، الرواية والافتاء ، وذلك عن طريق الربط المحكم بين الحديث وما يتفرع عنه من أحكام .

إلا أن الملاحظ أن الإمام أحمد بن حنبل لم يكتب آراءه الفقهية كما فعل الشافعي ، بل كان يكره كتابتها ، ولعل سبب ذلك يعود الى رغبته في ألاّ ينصرف الناس الى الفقه عن القرآن والسنة ، ولكن تلاميذه حاولوا أن يدوّنوا آراءه الفقهية التي سمعوها منه .

وقد اشتهر المذهب الحنبلي بكثرة الأقوال من غير ترجيح ، ويعود سبب ذلك الى ورع الامام ، وخشيته من ترجيح احدى الروايات المحتملة على الأخرى من غير دليل ، وبخاصة إذا كانت الرواية متعددة في المسألة الواحدة .

وإذا ذكر الامام أحمد بن حنبل ذكرت معه المحنة ، وذكرت معه التضحية ، فأحمد بن حنبل يبقى شعاراً لإيمان العالم وثباته ، وعدم خضوعه لأي لون من ألوان الضغط والإكراه من قبل السلطة ، ومجمل ذلك أن الخليفة المأمون تبنّى رأي المعتزلة وقال : « ان القرآن مخلوق » ولم يكتف بذلك ، وإنما أراد أن يخضع الناس بقوة سلطانه لهذا الرأي ويحملهم عليه ، ورفض الإمام أحمد بن حنبل أن يُحمل على رأي لا يعتقده ، ورفض الخضوع لرأي الخليفة ، فسيق الى السجن مكبّلا بالقيود ، وأرغم بكل وسائل الترغيب والترهيب والضرب

بالسياط ، على أن يقول ما لا يعتقد استجابة لرغبة الخليفة ، إلا أنه رفض ذلك بإصرار ، وظل في السجن ثمانية وعشرين شهراً ، يعاني أقسى أنواع التعذيب الجسدي والنفسي ، ولكن ظل على موقفه ، ثم أخرج من سجنه ومنع من التصدّي للناس أو التحدث إليهم ، وظلت المحنة مستمرة خلال عصر المعتصم والواثق ....

والواقع لم يكن الامام أحمد يرى أن القرآن قديم ، ولم يكن يرى أنه مخلوق ، ولكنه كان يرى عدم جواز الخوض في هذه المسائل ، وبخاصة وأن السلف كانوا يبتعدون عن الخوض في مثل هذه الموضوعات التي لا يعلمها إلا الله ولا يكلف الانسان بالبحث عنها .

ولا يفوتني في هذا المجال أن أذكر أن علماء المذهب الحنبلي يقررون ضرورة الاجتهاد في كل عصر ، وينكرون على من يقول بإغلاق باب الاجتهاد ، لأن الاجتهاد في نظرهم فرض كفاية ، لا يصح أن يخلو منه عصر من العصور ، ولأن الاجتهاد هو الطريق الطبيعي لمعالجة المسائل المستجدة والمستحدثة ، ولو أغلق باب الاجتهاد ، فان هذا يؤدي ، إلى البعد عن الكتاب والسنة ، واعتبار آراء علماء المذاهب هي الأصول والمصادر ، فيعتمد الناس عليها بدل اعتمادهم على الكتاب والسنة ....

وهذا رأي صحيح وفهم دقيق ، فالاجتهاد لا يجوز أن يكون بابه مقفلاً في أي عصر من العصور ، وعلى كل من توافرت فيه شروط الاجتهاد أن يجتهد ، امتثالاً لأمر الله تعالى وأمر رسوله ، وما نجده اليوم من عكوف على كتب مذهبية ، وإعطائها صفة القداسة ، وتحريم أية محاولة لمناقشة تلك الآراء ، هو انحراف عن المنهج الاسلامي الصحيح ، ومن الأجدى لعلمائنا أن يعكفوا على الكتاب والسنة ، ليستخرجوا منهما الأحكام ، فهما أولى بالعناية والرعاية والقداسة (١) .

(١) ينظر مبادىء الثقافة الاسلامية للدكتور محمد فاروق النبهان ص ٢٤٧ وما بعدها .

الفصل الرابع

استقلال الشريعة الاسلامية

تميز الشريعة الاسلامية عن الشرائع الوضعية :

تتميز الشريعة الاسلامية عن غيرها من الشرائع الوضعية بخصائص معينة ، تتعلق بطبيعة هذه الشرائع وأهدافها التي جاءت من أجلها •• ولذلك فمن العبث الكبير أن نقارن هذه الشريعة السماوية بالشرائع الوضعية •

فالقانون الوضعي ينشأ في الجماعة على شكل عادات وأعراف ، ثم يتطور مع الزمن تطوراً بطيئاً مع تطور الأمم ، وارتقائها الفكري والحضاري ، وعندها تأتي السلطة فتجعل من هذه الأعراف نظاماً آمراً يحل محل الأعراف السابقة •

ومن الطبيعي ــ والحالة هــذه ــ أن تختلف القوانين الوضعية شــكلاً ومضموناً وهدفا ، نظراً للترابط الوثيق بين القانون وواقع الأمــة الذي انبثق ذلك القانون عنها ، وبالتالي فان القانون الذي نشأ في أحضان أمة من الأمــم ، وفي ظروف حضارية معينة ، لا يصلح أن يكون قانوناً عاماً ونظاماً شاملاً لجميع الأمم ، كما لا يصلح لنفس الأمة إذا تغيرت ظروفها ، وانتقلت من حالتها السابقة ، إلى حــالة مغايرة لها ، ومن هنا كانت الحاجة ماسة لادخال تعديلات على القوانين بين فترة وأخرى ، انسجاماً مع التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي يحــدث داخــل الأمم •

والشريعة الاسلامية ــ بحــكم مصدرها الإلهي ــ تختلف عــن الشرائع الوضعية من حيث النشأة ، فهي لم تنشأ نتيجة عادات وأعراف ، فرضت نفسها في فترة زمنية معينة ، ولو كانت كذلك لوجب علينا إعادة النظر في هذه الشريعة ،

مع اختلاف الظروف التي أدت اليها، وهي لم تنشأ نتيجة لظروف اقتصادية أو سياسية مرت بها الأمة ، ولو كانت كذلك لوجب علينا تعديل هذه الشريعة، لتكون منسجمة مع التطورات التي مرت بها الأمة ، وإنما هي شريعة ، ربانية المصدر ، إنسانية الهدف ، عامة لجميع الناس ، شاملة لجميع جوانب الحياة ، جاءت لهداية الانسان (الذي خلقه الله) إلى الطريق السويّ ، ومن هنا فهي ثابتة الأسس والمعالم ، لا تتغير بتغير ظواهر الحياة الواقعية ، نظراً لأنها تعتمد على مقومات وقيم ذات طابع إنساني ، لا ترتبط بظروف طارئة ، وليست هي نتائج جهد إنساني أو عقل بشري أو وليد ظروف معينة ، وانما هي صادرة من الله ، ويتلقاها الانسان ، لا ليكيّفها بعقله ، ولا ليعدّلها بحسب رأيه (لأنه يتلقاها من واهب الحياة — ومصدر العدالة) وانما ليتكيّف معها (يكيّف سلوكه على مقتضاها) ويستجيب لهديها ويجعلها المشعل الوضّاء ، الذي ينير له حياته ، وينظم له سلوكه ، ويحدّد له قيمه ، ويقوده إلى الطريق الذي اختاره الله ، والذي ينسجم مع الفطرة الانسانية [1] ، في صفائها ونقائها .

وغاية الشريعة الإلهية ، ضبط الحركة البشرية ، لئلا تمضي شاردة على غير هدى ، فتضلّ الهدف ، وتنتهي بالانسان الى نكسة تقوده الى الضياع والتّيه في معترك الحياة .

وإذا كانت الشريعة الاسلامية تهدف الى ضبط الحركة البشرية ، لضمان استمرار الحياة في مسارها الصحيح ، فان هذا الضبط لا يعني الجمود ، لأن الجمود يتنافى مع واقع الحياة الانسانية ، وانما هو ضبط الحركة داخل محور واسع يسمح بالانطلاق البنّاء ، بما يحقق الأهداف التي يسعى اليها الانسان ،

(١) الفطرة ليست تفكيرا خالصا (عمل الفكر) ولا شعورا محضا (عمل القلب) ، إنها مزيج من التفكير والشعور ، إنها الانسجام بين عمل الفكر وعمل القلب ، بين أفكار الانسان وعواطفه ، والدين جاء يخاطب الفطرة كلها (العقل والقلب معاً ، التفكير والشعور جميعا) قال تعالى :

● فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . سورة الروم · الآية (٣٠)

ومن هنا تعرضت الشريعة الى المبادىء الأساسية والقواعد الكلية ، التي تمثل ذلك المحور الثابت والإطار العام ، وتركت للمجتمعات الاسلامية (المختلفة بيئة وحضارة ـــ وزماناً ومكاناً) أن تتحرك ضمن هـــذه المبادىء الكلية ، عن طريق الدعوة الى الاجتهـــاد ، الذي يمثل الواقعيّة (الزمانية والمكانية) من حيث أن المجتهد ، يستطيع أن يستنبط من هذه النصوص ، عن طريق تفسيرها ، ما يلائم المجتمع الذي يعيش فيه .

ولهذا اشتملت الشريعة الاسلامية على نوعين أساسيين من المصادر ، فمنها مصادر أساسية وثابتة ، تمثل المحور الذي لا يجـــوز تجاوزه ، ومنهـــا مصادر اجتهادية ، تمثل الحركة الدائبة التي لا يستطيع الانسان الاستغناء عنها .

وإذا ثبت لنا أن الشريعة الاسلامية متميزة عن الشرائع الوضعية ، مـــن حيث المصدر ، والدوام ، والشمول ، والثبات ، فان عظمة هذه الشريعة قـــد أغرت (أعداءها من المستشرقين) الذين هالهم أن تنبثق هذه الشريعة العظيمة عن دين وعقيدة ، وأمة يحملون لها في نفوسهم كل حقد وضغينة ، ولذلك طفقوا يكيلون لهـــذه الشريعة كل ما يملكونه ويقدرون عليـــه ، من نقد لأحكامها ، وتشكيك بمصادرها ، وينشرون حولها إشاعات مغرضة ، من حيث عدم صلاحها لمسايرة الحياة المعاصرة ، وعدم قدرتها على تلبية حاجات المجتمع الحـــديث . وفي الوقت الذي يفعلون هـــذا كله ، يريدون بذلك تشكيك المسلمين بدينهم وشريعتهم ، فانهم لا يملكون في داخل نفوسهم الا أن يعترفوا بعظمة هذه الشريعة وشمولها واستيعابها ، لكل ما يحتـــاج إليه الانسان ، ولما وصلت إليه أحـــدث النظريات القانونية .

ويظهر هذا الاعتراف ـــ الذي يبخلون بالاعلان عنه ـــ من خلال دراستهم وأبحاثهم المغرضة التي يحاولون بهـــا تبرير عظمة هـــذا التشريع ، ولا يجدون أمامهم إلا أن يقـــولوا بأن هـــذا التشريع قـــد تأثر بالتشريعات الوضعية التي سبقته في الزمان ـــ كالقانون الروماني ـــ والثقافة الاغريقية ـــ وكأنّهم يضنّون

على الحضارة الاسلامية أن تنجب ذلــك التشريع العظيم ، الذي لم يستطيعوا حجب ضيائه ، وطمس معــالمه [1] .

وهنــا نتساءل ؟

إذا كان هؤلاء المستشرقون يحاولون التقليل من أهمية التشريع الاسلامي ، ويصفونه بالجمود وعــدم الصلاحية ، فلماذا يحرصون على القول بأن أحكامه مستمدة من القــانون الروماني ، الذي يعتمدون عليــه في تشريعاتهم ؟ وكيف نستطيع أن نوفق بين ادعائهم بعظمة القانون الروماني وجمود التشريع الاسلامي ، في الوقت الذي يدعي بعضهم بتأثير القانون الروماني في التشريع الاسلامي ؟

★ ★ ★

(١) اعترفت كثير من المؤتمرات الحقوقية التي عقدت في البــلاد الاوربية في أوقات مختلفة بعظمة التشريع الاسلامي واستقلاله ، وقدرته على أن يكون مصدراً من مصادر القانون العــام . ففي « لاهاي » عقــد المؤتمر الدولي للقانون المقارن عام ١٩٣٢ ، وأعلن الفقيه الفرنسي « لامبير » خلال المؤتمر تقــديره للفقه الاســلامي ، وقرر المؤتمر اعتبار الشــريعة الاسلامية مصدراً من مصادر التشريع العــام ، واعترف بأن هــذه الشريعة قائمة بذاتهــا ، وأنها حية وصالحة للتطور .

وعقــد مؤتمر المحامين الدولي عــام ١٩٤٨ في (لاهــاي) وقــرر ضرورة تبني الدراسات المقــارنة للتشريع الاسلامي لمــا فيه من مرونة واهميــة .

وفي باريس عقدت شعبة الحقوق الشرقية ، من « المجمع الدولي للحقوق المقارنة » مؤتمراً في كليــة الحقــوق في جامعــة باريس ، للبحث في الفقه الاسلامي تحت اســم « اسبوع الفقه الاسلامي » برئاســة المسيو (ميو) استاذ الشــريعة الاسلامية بكليــة الحقوق بجامعة باريس ، ووضع المؤتمرون بالاجمــاع تقــريراً يفيــد :

آ ـ ان مبــادىء الفقــه الاسلامي لهــا قيمة حقوقية تشريعية لا يمارى فيهــا .

ب ـ وان اختلاف المذاهب الفقهية في هــذه المجموعة الحقوقية العظمى ، ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات ، ومن الاصول الحقوقية هي مناــط الاعجاب ، وبهــا يستطيع الفقــه الاســلامي ان يستجيب لجميــع مطالب الحيــاة الحديثة والتوفيق بين حاجاتهــا .

(ينظــر المدخــل للفقــه الاسلامي للدكتور محمد ســلام مدكور ـ والمدخل الفقهي العــام للاستاذ مصطفى الزرقــا) .

الفصل الخامس

مدى تأثر الشريعة الاسلامية بالقانون الروماني

ذهب بعض المستشرقين الى أن الشريعة الاسلامية قد تأثرت بالقانون الروماني ، وذلك عن طريق تبنّيها لبعض القواعد القانونية التي كانت موجودة بالقانون الروماني ، وغالى بعضهم ، فادعى بأن الشريعة الاسلامية ليست إلا القانون الروماني للامبراطورية الشرقية ، مع تعديلات تتفق مع الظروف الدينية للدول الاسلامية ، واستدلوا على آرائهم بأدلة هي :

١ ــ كانت الشريعة الرومانية أسبق تاريخاً من الشريعة الاسلامية ، وكانت مطبّقة في بعض البلاد التي انتشر فيها الاسلام ، كسورية ومصر .

٢ ــ وجود بعض التشابه في القانون الروماني والشريعة الاسلامية ، في بعض الأحكام الجزئية .

هذه هي كل الأدلة التي يسوقها دعاة هذه الشبهة من المستشرقين، ونلاحظ من هذه الأدلة ، أنها أدلة واهية ضعيفة ، لا تعتمد على أساس علمي ، أو دراسة موضوعية ، بل ان كلام المستشرقين عن الشريعة الاسلامية يعارض هذه الشبهة ، ويؤيد بطلانها ، فالمستشرقون يعترفون بأن طريقة الفقهاء المسلمين في البحث والاجتهاد ، تختلف كل الاختلاف عن طريقة الفقهاء الرومان ، حتى أن الفقيه الفرنسي « لامبير » أشاد بالطريقة المثلى التي اتبعها العلماء المسلمون في وضع القواعد الأصولية ــ التي تضبط عملية الاستنباط .

* * *

مناقشة بعض شبهات المستشرقين

من المؤكد ان القول بأن الشريعة الاسلامية قد تأثرت بالقانون الروماني هو مجـرد دعوى ، والدعوى لا يمكن قبولها أو الاعتماد عليهـا ، ما لم تثبت بطريقة علمية ، ولم يعرض علينا المستشرقون الذين قالوا بهذا الرأي ، أي دليل موضوعي مقبول ، وكل ما ذكروه هو مجرد كلام ، لا يمكن أن يثبت أمـام الحقيقة العلمية ، فالتشابه بين التشريعين الاسلامي والروماني ــ إن ثبت حقاً ــ لا يكفي للقول بأن الشريعة قد تأثرت بالقانون الروماني ، لأن التأثر لا يكون إلا عندما يتم التلاقي بين التشريعين ، واستمداد أحدهما من الآخر •

ولم يتم هـذا التلاقي ، لأن الكتب القانونية الرومانية لم يثبت أنها ترجمت الى اللغـة العربية ، كما وأن الفقهاء المسلمين لم يكونوا على علم بالسريانية ، وبخاصة في الفترة الأولى من تكوين التشريع الاسلامي • وقد يتبادر الى الذهن أن هذه القواعد الرومانية قد انتقلت الى اللغـة العربية في عصر العباسيين عن طريق الثقافة الاغريقية التي تمّ ترجمة كثير من آثارها الى اللغة العربية •

ولكن يردّ على هـذه الدعوى من ناحيتين :

أولاً : اقتصرت حـركة الترجمة على نقـل الكتب الأدبيـة والفلسفية والعلمية ، ولم يثبت لدينا ترجمة أي كتاب من كتب القانون ، نظـراً لأن الفقهاء المسلمين كانوا من أشد الناس تشدّداً في قبول الاجتهادات الفقهية التي لا تخضع للقواعد الأصولية ، وإذا كانت مخالفة القواعد الأصولية والتوسع في الاجتهاد على حساب النص مرفوضاً من الأساس لدى جميع الفقهاء ، فكيف يمكننا القول بأن الفقهـاء قد تأثروا في اجتهاداتهم بالقانون الروماني ، ونحن نعرف بشكل واضح وجليّ أن الفقه الاسلامي قد استمدت أحكامه من النصوص الواردة في القرآن والسنة وفق منهاج دقيق وقواعد محكمة •

ثانياً : لم تبدأ حركة الترجمة إلا بعد أن اكتملت معالم التشريع الاسلامي وتحددت اتجاهاته وفق مناهج علمية ، مستمدة من قواعد كليّة ٠

بل ان العالم الايطالي « ناللينو » يؤكد أن بعض القواعد القانونية الرومانية التي اشتمل عليها « الكتاب السوري الروماني » والذي ترجم في أواخر القرن الثامن الميلادي الى اللغة السريانية ، قد تأثرت ترجمته السريانية الى حد كبير بقواعد الشريعة الاسلامية ٠

ومن هنا يتبيّن لنا بطلان هذه الشبهة التي أثارها أحد المستشرقين ، بل إن معظم المستشرقين قد بيّنوا بشكل قاطع زيف هذه الدعوى وبطلانها ، وبخاصة اذا عرفنا أن المدارس الفقهية الذي يرجع اليها الفضل في نموّ الفقه الاسلامي ، قد تكونت في كل من الحجاز والعراق قبل أن تبتدىء حركة الترجمة بوقت طويل ، وكان شيوخ هذه المدارس من أبعد الناس عن قبول ما يتعلق بالقانون الروماني أو غيره ٠

أوجه الاختلاف بين الشريعة والقانون الروماني

إذا ثبت لنا بطلان الدعوى التي أثارها أحد المستشرقين عن تأثر الشريعة الاسلامية بالقانون الروماني ، فاننا نضيف الى ذلك ، أن الشريعة الاسلامية تختلف عن القانون الروماني في طابعها العام ، ومصادرها ، وأحكامها الكليّة والجزئية ٠

أولا : الاختلاف في الطابع العام :

تمتاز الشريعة الاسلامية في طابعها العام عن القانون الروماني بالصفات التالية :

١ ـ **العموم** : ومن الثابت أن أحكام الشريعة تخاطب المكلفين ، دون أن تعطي أي اهتمام لتباين اللغات أو القوميات أو لاختلاف الألوان والأجناس ، ويعتبر جميع المسلمين في نظر الشريعة في منزلة واحدة ، يخاطبون بخطاب

واحـــد ، دون تمييز أو تفـــريق •

٢ ـ الاســـتمرار : تعتبر الأحكام الأساسية المستمدة من المصادر النقلية ثابتة غير قابلة للتبديل أو التغيير أو التعديل ، لأنها تمثل المحور الذي لا يجـــوز الخروج عنه ، والإطار الذي لا يجـــوز تجاوزه ، بخلاف الأحكام الاجتهادية ، فتمثل الأحكام المتغيّرة ، التي تنسجم مع ظروف كل مجتمع ، بحسب الزمـــان والمكان •

٣ ـ الصفـــة الدينية : وهـــذه الصفة تجعل الشريعة الاسلامية ، مختلفـــة عن جميع القوانين الوضعية التي تكتسب الصفة الدينية ، فالشريعة الاسلامية لا تفـــرق بين الأحكام الدينية والمدنية ، ولا تفصل بينهما ، بخـــلاف القانون الروماني ، فانه كان يفرق بين القواعد الدينية والقواعد القانونية ، نظراً لعـــدم اشتمال الشريعة المسيحية على مبادىء قانونية كاملة ، مما جعلها قاصرة عن تلبية حاجات المجتمع في ذلك الحين ، إلا أن هـــذا لا يمنع من القول أن القـــانون الروماني الذي لم تكن له صفة دينية ، قد كان متأثراً بالتعاليم المسيحية (١) •

ثانيا : الاختلاف في المصادر :

تختلف مصادر الشريعة الاسلامية عن مصادر القانون الروماني ، فأحكام الشريعة مستمدة من القرآن والسنة ، والاجتهاد المرتبط بهما ، ولا يستطيع أي مجتهد أن يخرج في اجتهاده عن هذه المصادر الأساسية ، بل ان المصادر التبعيّة ترتبط بهـــذه المصادر الأساسية وتنبثق عنها •

أما أحكام القانون الروماني ، فهي مستمدة من مصادر وضعيّة ، كالدساتير الامبراطورية ، والأحكام القضائية والتشريعات المدونة والقرارات (٢) •

---

(١) ينظـر مبـادىء تاريخ القانون للدكتور صوفي أبو طالب ص ٦٠٣ •

(٢) يقول الفقيه الفرنسي« زنس » مؤكـداً استقلال الشريعة الاسلامية عن غيرها من الشرائع : اني اشعر حينما أقـرأ في كتب الفقه الاسلامى أني نسيت كل ما أعرفه عن القانون الفرنسي أو القـانون الروماني ، وأصبحت أعتقـد أن الصلة منقطعة بين الشريعة الاسلامية وبين هذين القانونين ••• فبينما يعتمد قانوننا على العقل البشري ، تقوم الشريعة الاسلامية على الوحي الإلهي فكيف يتصور التوفيق بين نظامين قانونيين ، وصلا الى هـذه الدرجة من الاختلاف •

(ينظـر مبادىء تاريخ القـانون للدكتور صوفي أبو طالب ص ٦٠٧) •

ثالثا : الاختلاف في الأحكام :

لو رجعنا الى الأحكام الواردة في الشريعة الاسلامية والقانون الروماني ، لوجدناها تختلف عن بعضها ، اختلافاً واضحاً وكلياً ، في كل من الأحكام الكليّة والأحكام الجزئية ، ونلاحظ هذا الاختلاف ، في كل جانب من جوانب القانون :

ـ أحكام العقوبات : من الثابت أن أحكام العقوبات في الشريعة الاسلامية المتعلقة بالجرائم الأساسية ، قد استمدت من القرآن والسنة ، كالقصاص والحدود ، وهي تختلف عن أحكام العقوبات في القوانين الوضعية •

ـ أحكام الأحوال الشخصية : معظم الأحكام المتعلقة بالأسرة ، كالطلاق وتعدد الزوجات ، والمهر وأحكام الإرث ، لا نجد ما يقابلها في القانون الروماني ، وفي الوقت الذي أقرّ القانون الروماني مبدأ التضامن العائلي ، الذي تنتقل فيه الحقوق والالتزامات من المورث الى الوارث ، فان الشريعة الاسلامية قد أخذت بمبدأ فصل ذمّة الوارث عن المورّث ، وبالتالي فلا يعتبر الوارث مسؤولا عن ديون المورث ، لانفصال الذمتين •

ـ المعاملات والالتزامات : أقرت الشريعة مبدأ الرضائية في العقود ، وجعلت العقد كافياً لانتقال الملكية من البائع الى المشتري ، بخلاف القانون الروماني ، فانه لم يكتف بالعقد ، نظراً لعدم أخذه بمبدأ سلطان الارادة العقدية •

رابعاً : الاختلاف في مدى ربط القانون بالأخلاق :

من المعروف عن القانون الروماني ، أنه فصل بين القواعد القانونية والقواعد الأخلاقية في أكثر الأحيان ، ولهذا فانه يمنع من تقييد تصرفات الأفراد في إبرامهم للعقود ، ولو كانت هذه العقود تتضمن استغلال أحد العاقدين للآخر ، وبناء على هذا فانه يوصف بأنه قانون أناني فردي ، وقد استطاعت المسيحية أن تؤثر فيه ، وأن تربط بين قواعده والقواعد الأخلاقية •

أما التشريع الاسلامي فقد ربط ربطاً محكماً بين القواعد التشريعية والقواعد الأخلاقية ، وجعل لكل حكم جانبين : جانب ديني وأخلاقي ، وجانب

آخر قضائي ، ولهذا اعتمد هذا التشريع على البواعث والدوافع الداخلية التي تدفع الانسان للتصرّف ، وأخذ بهذه الدوافع ، وجعل « النيّة » هي التي تحدد طبيعة التصرف ، فتجعله حلالاً أو حراماً ، وإذا كان القضاء في الاسلام يحكم بمقتضى الظاهر المقترن بالدليل والبيّنة ، فان هذا القضاء لا يحل حراماً ، ولا يحرّم حلالاً ، ويبقى الاعتبار الديني هو الأساس الذي تنبني عليه الحقوق ، ولهذا يقول الرسول الكريم ﷺ :

● « إنما أنا بشر ، وانكم لتختصمون إليّ ، وعسى أن يكون بعضكم ألْحَنَ بحجّته من الآخر [1] ، فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيتله بشيء من حق أخيه ، فإنما أقطع له قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » .

ومن هذا الاعتبار فاننا نلاحظ الفرق بين مهمة القاضي والمفتي ، فالقاضي يحكم بحسب الأدلة المتوفرة لديه ، والمفتي يحكم بمقتضى الاعتبار الديني ، الذي يجعل حكم القضاء قاصراً عن تغيير طبيعة الحقوق والالتزامات .

ويعتبر الوازع الديني هو الملجأ النهائي الذي يعتمد عليه واضعو القانون ، لأنه العامل الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه لصيانة الحقوق ، ولهذا يقوم القاضي بتحليف المدعى عليه اليمين ، عندما يعجز عن إثبات دعواه بالبيّنة ، كما نلاحظ أن الدساتير والقوانين تعتمد على « اليمين » لضمان القيام بالواجبات واحترام الحقوق .

والواقع يؤكد أن اتّصاف التشريع الاسلامي بالصّفة الدينية يعتبر مزيّة من مزايا هذا التشريع ، ودعامة من دعائم إثبات الحقوق ، لأن القضاء لا يستطيع أن يستوعب إلا ما قام الدليل عليه ، فاذا عجز القضاء عن اثبات الحقوق ، فان هذه الحقوق تبقى قائمة ، نظراً لأن الوازع الديني هو الذي يدفع الطرفين لمحاسبة أنفسهما ، لئلا يتجرّأ أحدهما على نكران الحقيقة التي عجز القضاء

---

(١) أي أكثر قدرة على الاعراب عن حقه بما يتمتع من مواهب تمكنه من حسن البيان وقوة البرهان وايضاح الادلة .

عن إثباتها .

وأخيراً ــ ولكي نستطيع الاستفادة من تراثنا الفقهي بشكل جيد ، ولكي نضعه مشرقاً في معالمه ومضمونه وأحكامه ، علينا أن ننشىء مؤسسة علمية لخدمة الفقه الاسلامي تسمى بـ « المجمع العلمي للفقه الاسلامي [1] » على غرار المجامع العلمية الحديثة ، ومهمّة هذا المجمع ، دراسة الفقه الاسلامي [2] ، وتنقيحه ،

(١) ودعا كثير من العلماء الى إنشاء « مجمع فقهي » على نسق المجامع العلمية الاخرى ، تحقيقاً للهدف العام الذي يشعر المسلمون بالحاجة اليه ، في تجديد الفقه الاسلامي وتطوره ، وحتى يكون هذا المجمع وسيلة للاستنارة برأي الجماعة في الاستنباط بما يغني عن الاجتهاد الفردي .

وفي مؤتمر رابطة العالم الاسلامي ، الذي عقد في مكة المكرمة سنة ١٣٨٤ هـ قدم الاستاذ الشيخ مصطفى الزرقا استاذ الشريعة الاسلامية في كلية الحقوق بجامعة دمشق ، اقتراحا بذلك جاء فيه :

« اذا اريد إعادة الحيوية لفقه الشريعة ، بالاجتهاد الواجب استمراره شرعاً ، والذي هو السبيل الوحيد ، لمواجهة المشكلات الزمنية الكثيرة بحلول شرعية حكيمة ، عميقة البحث ، متينة الدليل ، بعيدة عن الشبهات والريب والمطاعن وتهزم آراء العقول الجامدة والجاحدة على السواء ، فالوسيلة الوحيدة هي : اللجوء لاجتهاد الجماعة ، بديلا عن الاجتهاد الفردي ، وطريقة ذلك ، تاسيس « مجمع للفقه الاسلامي » يضم اشهر فقهاء العالم الاسلامي ، ممن جمعوا بين العلم الشرعي والاستنارة الزمنية ، وصلاح السيرة والتقوى ، ويضم الى هؤلاء ، علماء موثقين في دينهم ، من مختلف الاختصاصات الزمنية اللازمة في شئون : الاقتصاد ، والاجتماع ، والقانون ، والطب ، ونحو ذلك ، ليكونوا بمثابة خبراء ، يعتمد الفقهاء رايهم في الاختصاصات الفنية .

ويتضح من هذه العبارة ، أن مهام هذا المجمع المقترح ، ستتناول النظر في المسائل الجديدة التي حدثت في هذا العصر . ولم يكن لها نظير سابق ، كالتعامل المصرفي بانواعه ، وأوراق اليانصيب ، وانظمة الشركات الحديثة ، والتامين باقسامه ... وهكذا ..

(٢) ويطالعنا الدكتور الشيخ مصطفى احمد الزرقا ، الاستاذ في كلية الشريعة في الجامعة الاردنية (حاليا) بمقاله المنشور في ص ٣١ من مجلة العربي ــ عدد ذو الحجة ١٤٠٠ هـ ، تشرين الثاني ١٩٨٠ ، بعنوان : « حتى يخرج الفقه من عزلته عن الحياة » بما يلي :

وهذا المجمع الفقهي المنشود ، يجب ان يكون تكوينه وتمويله (شعبيا ــ اسلاميا) ليكون بمنأى عن تاثير السلطات الحاكمة ، وان يختار اعضاؤه بطريقة مامونة من كبار الفقهاء والخبراء الثقات ، في علمهم ودينهم وتقواهم ، وأن تكون فيه هيئة متفرغة ، وأعضاء غير متفرغين .

وكنت وضعت له مشروع نظام اجمالي ، لخطوطه العريضة ، وقدمته من نحو عشرين عاما الى الأمين العام لرابطة العالم الاسلامي الراحل ، الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله ، بطلب منه . واليوم ، برزت نواته من سطح الارض ، برعمة نابتة والحمد لله ، في مكة المكرمة ، على يد رابطة العالم الاسلامي ، والأمل معقود أن يستكمل باذن الله أجهزته ووسائله وسائر مقوماته الأساسية ، تباعا واستجماعا ، بمساعي المخلصين من أركان العلم والعمل ، المقدرين لجلال المسؤولية الاسلامية العامة ، وأعوانهم ، في كل مكان ، بعيدا عن العصبيات الاقليمية والمذهبية .

←

والاضافة إليه ، عن طريق الاجتهاد في المسائل المستجدة ، والمسائل التي تغيّرت ظروفها عن ذي قبل ، ويستطيع هذا المجمع الذي يتكون أعضاؤه من كبار العلماء والفقهاء ، أن يقوم بخدمة هـذا التشريع عن طريق الاجتهاد والتحقيق ، ووضع المعـاجم والفهارس ، ليكون الرجـوع الى المصادر الفقهية ميسّراً وسـهلا ، للمختصّين بالدراسات القانونية والشرعية من رجال العلم والقضاء •

هـذا أمل نرجوه ، وهذه دعوة ندعو اليها ••• فقد تتحقق في زمن قصير ، وقد تحتـاج الى وقت طويل ، ولكن لا بد لأجيالنا المقبلة ، من أن تدرك أهمية هذه الدعوة ، وحتميّة تحقيقها ولو بعد حين ، بإذن الله ويكون هـذا الاجتهاد الجماعي ، المبني على أساس علمي سليم ، هو مشرق النور ومنبع الحكمة للأمة الاسلامية والانسانية جمعـاء •

← هذا ولا يسعني ختاما أن أترك القلم في هذا المجال ، دون أن أشيد بالبادرة الفعليـة الميمونة التي اتخذتها جامعة الدول العربية ـ في دائرتها القانونية ـ والتي نؤمل ان تفتح أعظم باب على الفقه الاسلامي يلج منه الى ساحة التطبيق ، في البلاد العربية والاسلامية ، **ألا وهو تقريرها وسيرها عمليا** ، في صياغة مشروع قانون مدني موحد للبلاد العربية مستمد من الفقه الاسلامي وواف بالحاجات الزمنية الجـديدة ، وبالاسلوب العصري الذي يسهل على القانونيين فهمه ويكون مؤصلا تأصيلا فقهيا ، بمذكرة ايضاحية ، ترد كل مادة فيه وحكم ، الى مأخذهما من الفقه الاسلامي ، ومصادره ومراجعه في مختلف المـذاهب التي يتكون منها أعظم تراث قانوني عرف في تاريخ النظام في الحياة البشرية ، ليستفاد بذلك من جميع المزايا والنظريات الفقهية النافعة المنتشرة في تلك المذاهب ، مما يجعل تلبية الحاجة الزمنية في التقنين ميسـورة غير عسيرة ، ويبعث الحياه من جديد في فقه المذاهب الشرعية ويجعل منه مرجعا للقانون وأهله ، ومـددا للقضـاء ورجـاله •

وقد ألفت الدائرة القانونية في جامعه الدول العربية لجنة من الخبراء القانونيين والشرعيين (الفقهاء) من البلاد العربية ، لوضع هذا المشروع العظيم ، للقانون المدني الموحد المنشود ، وباشرت اللجنة عملهـا قبل انتقال الجامعة العربية الى تونس ، ثم استأنفته أخيرا ، بعد انتقالها ـ وكاتب هذه الأسطر (الدكتور الزرقا) من جملة أعضائها •

كما ألفت لجنة عامة ، تمثل الدول الأعضاء في الجامعة ، لترفع اليها أعمال لجنة الخبراء تباعا في دورات منتظمة ، لكل من اللجنتين الخاصة والعامة •

هذي البشرى نزفها لمن يهمهم مستقبل الفقه الاسلامي ، والمأمول باذن الله أن تلتقي البلاد العربيـة قريبا على المشروع الموحد للقانون المدني ، الذي تعده الآن ، الجامعة العربية مشكورة ، وبذلك تكون البلاد العربية قد حققت ذاتيتها ، وأبت الا أصالتها القانونية ، وقواعدها الخالدة •

الباب الرابع

عظمة الرسول الكريم ﷺ

إن سرّ عظمة الإسلام يكمن وراء تربيته المثلى التي تجسدت في شخصية الرسول ، المربّي الأعظم صلى الله عليه وسلم •

لقد أدّبه ربّه فأحسن تأديبه ليكون « بقلبه الكبير وعقله الحكيم ، وأخلاقه الكريمة » مرآة صافية تعكس أنوار الرحمة والعدالة الإلهيّة ، والتعبير الصادق عن معاني الرسالة التي بعث من أجل تبليغها للعالمين •

لقد كان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ولا يزال الأسوة الحسنة والقدوة المثلى لكلّ إنسان ينشد بصدق وإخلاص ، ثقة الله الغالية ، والمرشد الأعظم للإيمان الصادق والوعي الاجتماعي الصحيح •

* * *

أشرنا ــ في مستهل بحثنا التمهيدي ، أنه استهدف التعريف بكتاب الله وسنة رسول الله ، باعتبارهما يمثّلان القوة الدافعة للحركة الحضارية ، لذلك ، واستكمالا لهذا المعنى ، سنستعرض معاً هذه الصورة (العلمية ــ التربوية) لصاحب الرسالة ، صاحب الخلق العظيم ﷺ لتتجلى لنا عظمة الاسلام ، في قلبه الكبير ، وعقله الحكيم ، وقدوته المثلى •

جاء رسول الله ﷺ الى الدنيا كما يجيء أي انسان ، ولبث في قومه أربعين سنة ، لم يعرف فيها إلا برجاحة العقل وسماحة الخلق ، وما أن جاء الوحي حتى استحال إنساناً آخر ، كأنّه ليس من أهل هذه الدنيا ، وتكشّف عن قوى خارقة تصنع المعجزات ، وتأتي بالأعاجيب •

- **تجـرّده لله تعـالى :**

ما كاد الوحي يتنزّل عليه ﷺ حتى أشرق قلبه بالايمان الصحيح ، فكان يرى أنوار الله في كل شـيء ، يرى مظاهر جماله وجلاله ودلائل قدرته وعظمته ، وآثار حكمته ورحمته ، يرى ذلك كله في نفسه ، وفي الطبيعة من حـوله ، في الأرض وفي السماء ، في الحيـاة والموت ، فتنفعل نفسه بهذا كلّه ، فيهتف من أعمـاق قلبـه :

« اللهم لك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهنّ ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهـنّ ، ولك الحمـد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهنّ ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حـق ، والجنة حـق ، والنار حق ، والنبيّون حـق ، ومحمد حـق ، والساعة حـق .

اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليـك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفرلي ما قدّمت وما أخّرت ، وما أسررت ومـا أعلنت ، أنت المقدّم ، وأنت المؤخّر ، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وتبقى هـذه الحقيقة ماثلة في ضميره ، فلا تفارقه في ليله أو نهاره ، ولا تزايله في نومه أو انتباهه ، ولا تزيد على الأيام إلا تألّقاً .

وإنها لتتجلى ، في زهـده وورعه ، وعزوفه عن متاع الدنيا وزهرتها ، كما تبدو في صلاته الخاشعة ، وذكره الدائم ، ودعائه الحارّ ، في قلبـه الرحيم ، وعقـله الحكيم .

- **إنسانيتـه :**

وكما أضاء الوحي جوانب نفسه فعرف الحقيقة الكبرى ، فقد حرّك كوامن الخير ، وعواطف النبّل كذلك .. قال الله تعـالى :

- فبما رحمـة من الله لنت لهم « آل عمران ١٦٠ » .
- وكان فضـل الله عليك عظيماً « النساء ١١٣ » .

● وإنك لعلـى خـلق عظيـم « القـلم ٤ » .

كان رسول الله ﷺ دائم الذكر لله تعالى ، يصل رحمه ، ولا يقابل أحداً بما يكره ، ويقبل معذرة المعتذر إليه ، يبدأ من لقيه بالسلام والمصافحة ، مـن سأله حاجة لم يردّه إلا بها ، أو بميسور من القول ، وصابره حتى يكـون هو المنصرف ، وهو خصيب الوجه ، بسط الكفّ ، يكرم من دخل عليه ، حتى ربّما بسط له ثوبه يجلس عليه ، يبذل من ذات نفسه ، لا يستأثر بشـيء ، يكرم أهل الفضل ، ويتألّف أهل الشرف بالبرّ لهم ، وهو أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا ، وأرحم الناس بالناس ، وأنفع الناس للناس ....

وصفه علي كرّم الله وجهـه فقال :

« كان أجود الناس كفّاً ، وأوسع الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمّة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عِشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبّه » .

أرأيت غير محمد جمع كل هذه الصفات التي تمّ التأليف بينها ، وأحكم أمرها ، وظهرت آثارها ، لتكون مثـلاً أعلى ، ونوراً يضيء للناس ، ويبصّرهم جوانب الخـير ، ونواحي الفضيلة ... إلى أن يرث الله الأرض ومن عليهـا ؟ قال الله تعـالى :

● « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عـزيز عليه ما عنتّم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » التوبة : ١٢٨

● « لقد كان لكم في رسول الله أسـوة حسنة لمن كان يرجـو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » الأحزاب : ٢١

● « وما أرسلناك إلا رحمـة للعـالمين » الأنبياء : ١٠٧

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحياة الفاضلة ، التي تقوم علـى أساس من العقائد الصحيحة ، والأخلاق الكريمة ، والعبادات ، المخلّصة للانسان

من عبودية غير الله ، وسلك سبيل الحكمة والموعظة الحسنة ، والجـدل الذي لا عنف فيه ، ولا غلظة معه ، وما زال يدعو في قـوة وصلابة وايمان حتى نجح نجاحاً لم يحظ به داعية قبله ولا بعـده ، لقد غيّر الآراء والأفكار والنظرة الى الحياة ، ليهتدي الانسان الى ربّه ، وليعرف مركزه في الوجود ، ومصيره الذي ينتظره ، وترك أمّة مسلمة تدين بهـذه المبادىء ، وتؤمن بها ، ايماناً دفعها الى أن تبسط سلطانها في الآفاق لتطارد الظلم والفساد في كل مكان ، ولتقيم قواعد العـدالة والاحسان في العالمين .

ومرّ عليه الصلاة والسلام في يوم عيد ، بصبية يلعبون ، ووجد بجانبهم طفلاً لا يشاركهم في لعبهم ، وعليه أثر الحزن فدنا منه ، وسأله عن أمره ، فأجابه بأنه يتيم ، وأن أمـه شغلت بزوج آخر ، وليس له من يعوله ، وهذا سبب عزلته وحزنه ، فسرّى عنه عليه الصلاة والسلام وقال له ، ألا ترضى أن يكون محمد لك أباً ، وعائشة أمّاً ، وفاطمة الزهراء أختاً ..؟ وكساه ، فمضى الولد فرحـاً مسروراً ، وتربّى بين سيّد الآباء ، وأجلّ الأمهات ، وخير الأخوات .

روى الطبراني عن كعب بن عجرة قال :

جلسنا أمـام رسول الله ﷺ في المسجد في رهط منا معشر الأنصار ، ورهط من بني هاشم والمهاجرين ، فاختصمنا في رسول الله ﷺ أيّنا أولى به وأحب اليـه .

قلنا معشر الأنصار : آمنا به واتبعناه وقاتلنا معـه ، وكتيبته ضد عدوّه ، فنحن أولى برسول الله وأحبهم إليه .

وقال اخواننا المهاجرون : نحن الذين هاجرنا مـع رسول الله ، وفارقنا العشائر والأهلين والأموال ، وقـد حضرنا ما حضرتم وشهدنا الذي شهدتم ، فنحن أولى برسول الله ، وأحبهم إليه .

وقال اخواننا من بني هاشم : نحن عشيرة رسول الله ﷺ وحضرنا الذي

حضرتم وشهدنا الذي شهدتم ، فنحن أولى برسول الله ﷺ وأحبهم إليه .

فخرج علينا رسول الله ﷺ فأقبل علينا فقال : إنكم لتقولون شيئاً ، فقلنا مثل مقالتنا ... فقال للأنصار صدقتم من يردّ هذا عليكم !! وأخبرناه بما قال اخواننا المهاجرون .

فقال : صدقوا ، من يردّ هذا عليهم !! ثم قال ألا أقضي بينكم ؟ قلنا بلى : بأبينا أنت وأمّنا أنت يارسول‌الله قال : أما أنتم يامعشر الأنصار، فانما أنا أخوكم.

فقالوا : الله أكبر ، ذهبنا به وربّ الكعبة ــ أما أنتم يا معشر المهاجرين ، فانما أنا منكم .

فقالوا : ذهبنا به وربّ الكعبة ــ وأما أنتم يا بني هاشم فمنّي وإليّ .

فقمنا وكلّنا راض مغتبط برسول الله ﷺ .

هذا قبس من أخلاق الرسول الكريم وسيرته العطرة ، وجدير بنا في نهاية المطاف ، أن نشير الى هذه الشخصية الجليلة ــ كقائد عسكري ــ خاض غمار الحرب في أكثر من غزوة وموقعة وسريّة ، وقد تمّ على يديه وفي حياته توحيد الجزيرة العربية .

- **الرسول الكريم وثبات المقصد :**

إن مبدأ (المقصد) أو مبدأ الغرض ــ في العلم العسكري ــ يتوخّى تحديد الهدف ، الذي من أجله سوف تستخدم القوات المسلحة ضد العدو ، فيكون ذلك الهدف واضحاً ومحدّداً ومعروفاً ، لا يحتمل اللّبس أو الغموض أو التفسير أو التأويل أو الاجتهاد ، ويكون محور خطة العمل ، وموضوع خط العمليات ، وبكلمة واحدة ، إن مبدأ المقصد يعني الثبات والاصرار على تحقيق الهدف المحدد ، مهما بلغت التضحيات ، ومهما كانت النتائج ، وفي هذا المجال نقول ان الرسول الكريم يعتبر نموذجاً يحتذى به في ثبات المقصد .

يقول أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك[1] :

إن ناساً من قريش اجتمعوا ، فيهم أبو جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، في نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم : انطلقوا بنا الى أبي طالب ، فنكلمه فيه ، فلينصفنا منه ، فليأمره فليكفّ عن شتم آلهتنا ، وندعه وإلهه الذي يعبد ، فاننا نخاف أن يموت هذا الشيخ ، فيكون منا شيء ، فتعيّرنا العرب يقولون : تركوه، حتى إذا مات عمّه تناولوه...

قال : فبعثوا رجلا منهم يدعى : المطّلب ، فاستأذن لهم على أبي طالب ، فقال : هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم ، يستأذنون عليك ، قال أدخلهم ، فلما دخلوا قالوا : يا أبا طالب ، أنت كبيرنا وسيدنا ، فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكفّ عن شتم آلهتنا ، وندعه وإلهه ...

قال : فبعث اليه أبو طالب ، فلما دخل عليه الرسول الكريم قال : يا ابن أخي : هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم وقد سألوك النّصف (أي الانصاف) أن تكفّ عن شتم آلهتهم ، ويدعوك وإلهك ، فابق عليّ وعلى نفسك ، ولا تحمّلني ما لا أطيق ، فظن الرسول الكريم أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله ومسلّمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال الرسول الكريم : « يا عمّاه ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته » .

وقد أثبتت الحوادث بعد ، أن الرسول الكريم بقي طوال حياته يناضل لتحقيق الهدف الذي وضعه نصب عينيه ، حتى انتقل الى جوار ربّه ، ولا نعتقد أن قد وجد قائد عسكري في العالم يتمتع بهذا القدر من ثبات المقصد ، ووضوح الرؤية ، والاصرار على تحقيق الهدف .

- **الرسول القائد والأستطلاع :**

يعتبر الاستطلاع عنصراً أساسياً في تقدير نتيجة الحرب ، لأن الطرف الذي

---

(١) تاريخ الطبري الجزء الثاني ص ٦٥ ـ ٦٧ ، طبع مطبعة الاستقامة في القاهرة ١٩٣٩ م .

يملك عن خصمه معلومات وافية ودقيقة ، هو الطرف المؤهّل لربح المعركة ، أما الطرف الذي لا يعرف عن خصمه شيئاً ، ففي أحسن الأحوال يقاتل عدوه وهو مغمّض العينين ، وقد أدرك الرسول القائد أهمية الاستطلاع ، ومعرفة أحوال العدو ، وأولاه الاهتمام الذي يستحق ، وعلى ضوء المعلومات المؤكدة عن حال العدو ، وعدده وإمكاناته ، كان الرسول الكريم ﷺ يتخذ القرارات الأساسية ، في اختيار نوع المعركة ، هل هي هجومية (كما حدث في غزوة بدر) أو دفاعية (كما حدث في غزوة الخندق) •

- **الرسول القائد والتمويه العملياتي :**

يحتل التمويه العملياتي أهمية بارزة في العلم العسكري ، ويعتبر توقيت العملية ، والمحافظة على سرّيتها ، جزءاً أساسياً من التمويه العملياتي ، ومن الثابت تاريخياً ، أن الرسول القائد كان يعير هذا الموضوع أهمية فائقة ، وفي أول سريّة أرسلها لاعتراض قوافل قريش ، كانت بقيادة « عبد الله بن جحش الأسدي » كتب له كتاباً (بواسطة كاتبه — أبيّ بن كعب) فيه يأمره ، ألاّ يقرأه إلاّ بعد ليلتين ، فلما سار ليلتين ، قرأ الكتاب فاذا فيه :

« أن سر الى نخلة ، على اسم الله وبركته ، ولا تكرهن أحداً من أصحابك على السير معك ، وامضِ لأمري ، فيمن اتبعك منهم حتى تقدم ببطن نخلة ، فترصد بها عير قريش » (١) •

- **الرسول القائد والحرب النفسية :**

أعطى التطور الكبير في الحروب الحديثة ، صورة الشمول ، وهكذا أضحت المعارك لتشمل كل الجبهات ، وبكل ما يمكن استخدامه من أسلحة ، وفي هذه الحرب الشاملة ، توجد جبهات قتال ، كما توجد جبهات داخلية ، والصراع المسلح هو محصلة العوامل العسكرية والاقتصادية والنفسية ، ومنها جاء تعبير « الحرب الشاملة » •

---

(١) مغازي رسول الله — للامام ابي عبد الله محمد بن عمر الواقدي ص ٨ •

والحـــرب النفسية هي أحـــدث أسلحة الحرب ، توجّه ضدّ : الفكـــر ، والعقيدة ، والشجاعة ، والثّقة ، وضدّ الرغبة في القتال ، وتستخدم في الدفاع ، كما تستخدم في الهجوم •

ذلك لأنهـــا تحاول أن تبني قوى الشعب ، والجنود المعنوية ، بينما تحطم في آن واحد ، قوى العدوّ المعنوية • ولقد استخدم الرسول القائد الحـــرب النفسية في معظم معاركه وغزواته حتى قال : « نصرت بالرعب » •

وفي فتح مكة ، يتجلّى لنا دور الحرب النفسية بيّناً واضحاً ، في تحقيق النصر على العدو ، بدون استخدام السلاح وبدون إراقة قطرة دم •

وفي العاشر من رمضان سنة ــ ثمان من الهجرة ــ خرج الرسول القـــائد متوجهاً الى مـــكة ، على رأس جيش قوامـــه عشرة آلاف رجل ، ولمـــا نزلوا « مر الظهران » على مسيرة يوم واحد من مكة ، أمر الرسول الكريم أصحابه أن يوقدوا النار في المعسكر ، وعلى رؤوس الجبال المحيطة بمكة ، ليدبّ الرعب في قلوب قريش ، فيستسلموا بدون قتال ، ويدخل الرسول القائد مكة ، من غير أن يسفك دماً ، وتظل مكة بلداً محرماً كما كانت •

فلما بلغ قريشاً مسير الرسول ﷺ وسمعوا صهيل الخيل ، راعهم ذلك ، فبعثوا أبا سفيان بن حرب يستطلع الأخبار وقالوا : إن لقيت محمداً ، فخذ لنـــا منه أماناً ، فقال أبو سفيان : ما رأيت كالليلة قط نيراناً ولا عسكراً ، هذه كنيران عرفة ، ثم أسلم أبو سفيان ، فلما أراد الرجوع ، أمر الرسول القائد ــ العبّاس ــ أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي ، حتى تمرّ به جنود المسلمين فيراها ، وهذا ما يعرف في أيامنا باستعراض القوات المسلحة الذي يراد منه إظهـــار القـــوة ، وإلقاء الرعب والرهبة في نفوس الأعداء ، ولعل العرض العسكري الذي أجراه «هتلر» قبيل الحرب العالمية الثانية ، أمام رئيس الوزارة البريطانية ــ تشبمرلن ــ في برلين ــ يمكن أن يعتبر مثالا حيّاً لموضوعنا هذا •••

قال العباس : ففعلت ما أمرني به رسول الله ﷺ وكلما مرّت قبيـــلة ،

كبّرت ثلاثاً عند محاذاة أبي سفيان فيقول يا عباس : من هذه ؟ فأقول : سُلَيْم فيقول : ما لي ولسليم •• ثم تمرّ القبيلة الأخرى ، فيقول يا عبّاس من هؤلاء ؟ فأقول مزينة ، فيقول : مالك ولمزينة ، وهكذا حتى مرّت القبائل كلها ، ما تمرّ قبيلة إلاّ وسألني عنها ، فاذا قلت بنو فلان قال : ما لي ولبني فلان (وهو كلام يقوله الرجل إذا خاف من شيء ، أو شعر منه ضرراً) ، حتى مرّ به الرسول القائد في كتيبته الخضراء ، ألبسهم الحديد ، — والعرب تطلق الخضرة على على السواد ، كما تطلق السواد على الخضرة — وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلاّ الحدق من الحديد ، فيها ألف دارع (لابس الدرع) وعمر بن الخطاب يزجل بصوته ويقول : رويداً حتى يلحق أولكم آخركم • فقال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ فقلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، فقال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة•••والله يا أبا الفضل(كنيةالعباس) لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً ، فقلت يا أبا سفيان : إنها النبوّة ، قال : نعم •

ثم قال له العباس التجىء الى قومك ، فلما جاء أبا سفيان قومه ، صرخ فيهم بأعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فأسلموا تسلموا ••••

فاستسلم أهل مكة ، ودخل الرسول القائد البلد الحرام بلا مقاومة •

- **الرسول العربي والعامل المعنوي في الحرب :**

تؤثر الحالة المعنوية للقوات المحاربة تأثيراً حاسماً على التقدير الصحيح للموقف ، وعلى سير العمليات ، وبالتالي على القرارات التي تصدرها القيادات العسكرية •

وهذا أمر طبيعي ، طالما أن القلب البشري هو نقطة الانطلاق ، في كل المسائل المتعلقة بالحرب ، ويعتبر العامل المعنوي أحد العناصر الهامة في كل حرب ، لأن النصر يعتمد في النهاية على « حالة الروح المعنوية لتلك الجموع التي تسيل

دماؤها في ميــدان القتــال » .

ويقول القائد الحربي المعاصر « كلاوز فيتز » في كتابه « الحرب » :

« ان القيم المعنوية من أهم العناصر في الحرب ، فهي الروح التي تطبــع الحرب بطابعها ، وهي التي تفرض نفسها مسبقاً على الارادة التي تحرك وتوجّه كتــلة القوات المسلحة ، ملتحمة معهــا بشكل ما ، باعتبار أن الارادة نفسها قيمة معنوية » .

ويرى الجنرال (جان بيريه) في كتابه « الذكاء والقيم المعنوية في الحرب »:

« إن قيمة القيادة وعدد المقاتلين وتدريبهم ، وقوة الأسلحة ووفرتها ، كل هذا بعيد عن أن يكون كل شيء في الحرب ، وكل هذه الصفات لا تعد شيئاً ، إذا لم تبثّ القيم المعنوية فيها الروح ، فالقتال في أساسه كفاح معنوي ، والأسلحة لا حياة فيها إذا لم يستخدمها رجال من لحم ودم ، بقوتهم وضعفهم ، ومهما كانت القوى المادية لطرف من الأطراف كبيرة ، فانها لا تحقق أبداً تدمير الخصم تدميراً كاملا ، فبين من يتبقّون على قيد الحياة تقرر القوى المعنوية نجــاح طرف من الأطراف ، ولا يغلب الذي الذي تكبّد أكبر الخسائر في الرجال والعتاد ، وانما يُغلب من تحطمت قواه المعنوية قبل الآخر .

وبعد هذه المقدمة الموجزة عن العامل المعنوي وقيمته في الحرب ، سنحاول استعراض **العناصر** التي يتكون منها العامل المعنوي ، والتي تؤثر تأثيراً متفاوتاً ومتشابكاً ، في المحصلة النهائية للقوى المعنوية ، لنرى الدور الكبير الذي قــام به الرسول القــائد ﷺ في هــذا المجــال .

١ ـ الايمان بعــدالة القضية :

إذا آمن الجندي بالقضية التي يقاتل من أجلها ، وبعــدالة هذه القضية ، يستطيع أن يجترح (١) المعجزات .

وفي التاريخ أمثلة كثيرة تدل دلالة قاطعة على صحة هذه النظرية ، وتثبت

---

(١) يجترح : يعمــل بجوارحــه وأعضــائه .

أنهــا ما تزال صالحة حتى أيامنا هذه ، وفي هــذا المجال ، عمل الرسول الكريم ــ قبل كل شــيء ــ على غرس الايمان في نفوس المحاربين وأقنعهم أنهم يقاتلون في سبيل مثل أعلى ، وهو « إعلاء كلمة الله ــ وراية الاسلام » ونشر رسالته على الملأ كافة ، وأنهم منتصرون لا محالة ، لأنهم ينفذون إرادة الله على الأرض •

وتعزيزاً لايمان المسلمين ، بعدالة الحروب التي يخوضونها في سبيل نصرة الحق ، نزل العــديد من الآيات القرآنية التي تعزز هذا الاتجاه ، وتوحي الى المؤمنين ، بأنهم ليسوا وحدهم في المعركة ، وأن الله معهم في كل الأحوال ، وأن الملائكة ستقاتل إلى جانبهم إذا اقتضى الأمر • قال تعــالى :

● « إذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم ، فثبّتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق » سورة الأنفال : الآية١٢•

٢ ـ التحريض والحضّ على القتال :

يعتبر التحريض والحض على القتال عنصراً أساسياً في رفع الروح المعنوية لدى المحاربين ، من أجل إذكاء شعلة الحماسة في نفوسهم ، ومن أجل شدّهم الى القضية التي يقاتلون في سبيلها ، وهكذا يصبح المؤمنون جميعاً في حــالة يقظة ثوريّة ، وتأثّر نفسي ، وتوق دائم إلى لقاء العدو • قال تعالى :

● يا أيهــا الذين آمنوا هل أدلكم على تجــارة تنجيكم من عذاب أليم • تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون • يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيّبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم • وأخرى تحبونها نصر مــن الله وفتح قريب وبشّر المؤمنين (١) •

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

● « الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ، ومن ترك الجهاد في سبيل الله ، ألبسه الله الذلّ وشمله بالبلاء » •

---

(١) سورة الصف : الآيات : ١٠ ــ ١٦ •

٣ ـ الشجاعة في مواجهة الخوف :

كيف استطاع الرسول القائد ﷺ أن يقهر الخوف ، وينتزعه من نفوس أصحابه ، ويخوض بهم المنايا ، وهم غير آبهين بما يلاقون ؟... الموضوع في غاية البساطة والصعوبة في آن واحد ...

لقد غرس الرسول الكريم في نفوس أصحابه الايمان بالرسالة ، التي نزلت عليه من السماء ، وبرهن لهم ، أن الحياة الدنيا فانية ولا خلود فيها ، وأن على المسلم أن يجاهد في سبيل الله ، من أجل الآخرة ، وهي دار الخلود ، وبقدر ما يكون سبّاقاً الى الموت في سبيل الله ، وفي سبيل نصرة الدعوة الاسلامية ، يكون قريباً من الله تعالى ، قال الله تعالى :

- ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون.

سورة آل عمران : آية ١٦٨

وعن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم جلوس فقال :

- ألا أخبركم بخير الناس منزلا يوم القيامة ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال : رجل أخذ برأس فرسه في سبيل الله حتى يموت أو يقتل .

ومن ذلك يتبين لنا بوضوح ، أنه لم يسبق لقائد عسكري قاد جنوده الى الموت ، وهم راضون مستبشرون كما قاد جنوده الرسول الكريم ﷺ .

٤ ـ وحدة الصف :

لقد دعا الرسول القائد الى وحدة الصفوف ، لأن الوحدة والتلاحم سبيل القوة والنصر ، ولا شيء أعظم شأناً في المعارك الحربية من وحدة المقاتلين ، الذين ينطلقون من منطلق واحد ، لغاية واحدة ، بروح وعقيدة واحدة .

ولقد سعى الرسول الكريم دائماً وأبداً ، لايجاد الأخوة الصادقة بين المؤمنين ، قال تعالى :

- « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بنيان مرصوص » .

سورة الصف : آية : ٤

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

● مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى .

هذه هي العناصر الأساسية في العامل المعنوي ، وقد أولاها الرسول الكريم — كما رأينا — اهتماماً خاصاً ، لم يسبق إليه قائد عسكري آخر .

وفي ختام هذا البحث ، يطيب لي أن أنقل ما كتبه الفيلسوف المؤرخ (ويل ديورانت) عن الرسول العربي ، في كتابه (قصة الحضارة) [1] :

« وإذا حكمنا على العظمة ، بما كان للعظيم من أثر في الناس ، قلنا أن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي ، في شعب ألقت به في دياجير الهمجيّة ، حرارة الجو ، وجدب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي قائد آخر في التاريخ كله » .

وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة ، صحراء جدباء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان، قليل عددها ، متفرقة كلمتها، وأصبحت بعد وفاته، أمة موحدة متماسكة.

وقد كبح جماح التعصّب والخرافات ، وأقام ديناً سهلا واضحاً قوياً ، وصرحاً خلقياً ، قوامه البسالة والعزّة والإباء ، وكرم النفس ،واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشيء دولة عظيمة ، تنطق بآيات الحكمة والرحمة والعدالة .

★ ★ ★

(١) قصة الحضارة (ويل ديورانت) الجزء الثاني — من المجلد الرابع — عصر الايمان ص ٤٧ .

فلاسفة الغرب

يعترفون بعظمة الرسول الكريم ﷺ

قال الفيلسوف الانكليزي (برناردشو) :

● « إن العالم هو أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد ، هـذا النبي الذي أحلّ دينه في موضع الاحترام والإجلال ، فانه أقوى دين على هضم جميع المدنيات ، خالد خلود الأبد ، واني أرى كثيراً من بني قومي قد دخلوا في الدين على بيّنة ، وسيجد هـذا الدين مجاله الفسيح في هذه القارة (يعني أوربا) ، وإذا أراد العالم النجاة من شروره ، فعليه بهذا الدين ، إنه دين السلام والعدالة والسعادة ، في ظـل شريعة متمدينة محكمة ، لم تنس أمـراً من أمور الدنيا إلا رسمته ، ووزنته بميزان لا يخطىء أبداً » ... وقال أيضاً :

إن محمداً يجب أن يدعى منقذ الانسانية ، انني أعتقد لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث ، لنجح في حلّ مشاكله بطريقة تجلب الى العـالم السلام والسعادة ، إن محمداً هـو أكمل البشر من الغابرين والحاضرين ، ولا يتصوّر وجـود مثـله في الآتين .

وقال العـالم الفرنسي (لامارتين) :

● « إن حياة مثل حياة محمد ، وقوة كقوة تأمله ، وتفكيره وجهاده ، ووثبته على خرافات أمته ، وجاهليّة شعبه ، وبأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان ، وايمانه بالظفر ، وإعلاء كلمته ، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الاسلامية ، إن كل ذلك أدلّة على أنه لم يكن ليضمر لأحد أذى ، أو يعيش على باطل ، فهو فيلسوف وخطيب ، ورسول ومشرّع ، وهادٍ للانسان الى العقل ، وناشر للعقائد المعقولة الموافقة للذهن واللبّ ، وهو مؤسس دين لا فرية فيه ، ولا صورة فيه ،

ومنشيء عشرين دولـة في الأرض ، وفاتح دولة في السماء من ناحيـة الروح والفواد ، فأي رجل أدرك من العظمة الانسانية مثلما أدرك وأي آفاق بلغ أي انسان من مراتب الكمال ما بلـغ محمد ٠٠٠٠

وقال العلامة (فارس الخوري) من كبار الشخصيات السياسية في القطر العـربي السوري :

● « إن الدين الاسلامي الذي جاء به محمد ، أوفى الأديان وأكملها ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلاّ الاعتراف بفضل الشريعة التي دعا الناس اليها باسم الله ، وبأنها متّفقة مع العـلم ، مطابقة لأرقى النظـم والحقائق العلمية ٠ إن محمداً أعظم عظماء الأرض سابقهم ولاحقهم ، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم ، وأنشأ منهم أمة موحّدة ، فتحت العالم (المعروف يومئذ) وجـاء لها بأعظم ديانة ، عيّنت للنساء حقوقهن ، وواجباتهن ، وأصول تعاملهن ، تعـدّ من أنقى دساتير العـالم وأكملها » (١) ٠

★ ★ ★

(١) بنظار كتاب فضل الحضارة العربيـة الاسلامية على العـالم ـ للاستاذ زكـريا هاشم زكريا ص ٣٩٤ وما بعـدها ٠

نبي الاسلام

(في حديث ـ تولستوي ـ الأديب الروسي الكبير)

● « ولد نبيّ الاسلام في بلاد العرب ، من أبوين فقيرين ، وكان في حداثة سنّه راعياً ، يميل الى العزلة والانفراد في البراري والصحارى ، متأمّلا في الله خالق الكون ، لقد عبد العرب المعاصرون له أرباباً كثيرة ، وبالغوا في التقرب إليها واسترضائها ، وأقاموا لها العبادات ، وقدّموا لها الضحايا المختلفة . وكان كلما تقدّم به العمر ، ازداد اعتقاداً بفساد تلك الأرباب ، وأن هناك إلهاً واحداً حقيقياً لجميع الناس والشعوب .

وقد ازداد ايمان محمد بهذه الفكرة ، فقام يدعو أهله وأمته الى فكرته ، معلناً أن الله اصطفاه لهدايتهم ، وعهد إليه إنارة بصائرهم ، وهدم دياناتهم وعباداتهم الباطلة ، وراح يعلن عن عقيدته وديانته .

وخلاصة هذه الديانة التي نادى بها الرسول ، هو أن الله واحد ـ لا إله إلاّ هو ـ ولذلك لا يجوز عبادة غيره ، وبأن الله عادل ورحيم بعباده... وان مصير الانسان النهائي متوقف عليه وحده (١) ، فان الله يأجره في الحياة الآخرة أجراً حسناً ... وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه ، فانه يعاقب في الآخرة عقاباً أليماً ، وان الله تعالى يأمر الناس بمحبته ، ومحبة بعضهم بعضا ... ومحبة الله تكون بالصلاة (المحافظة على طاعة الله) ومحبة الناس تكون بمشاركتهم في السرّاء والضرّاء ، وان الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يقضي

---

(١) ومعنى ذلك أن الله ترك للانسان ـ حرية الارادة في صياغة سلوكه (بحثا عن المستقبل الافضل) وعلى الانسان المؤمن ان يجاهد نفسه وهواه (علما بشريعة الله ـ وعملا بطاعته) حتى يتوجه نحو غاية وجوده (بقوة العلم ـ ويقظة الايمان) يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل ، ولا بد أن يكون الجزاء ـ في شريعة الله ـ من جنس العمل .

عليهم أن يبذلوا وسعهم لابعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسية ، والابتعاد (المحرّم) عن الملذات الدنيوية ، وانه يحتّم عليهم أن لا يخدموا الجسد فحسب ويعبدوه ، بل عليهم أن يخدموا الروح ويهذّبوها •

ومحمد لم يقل عن نفسه أنه نبيّ الله الوحيد ، بل اعتقد أيضاً بنبوّة موسى وعيسى ، وقال : إن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم • وفي سن دعوته الأولى ، احتمل كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانات القديمة ، شأن كل نبي قبله ، ــ نادى أمته الى الحق ــ ولكن هذه الاضطهادات لم تثن من عزمه ، بل ثابر على دعوة أمته • وقد امتاز المؤمنون كثيراً عن العرب بتواضعهم ، وزهدهم في الدنيا ، وحب العمل والقناعة ، وبذلوا جهدهم في مساعدة إخوانهم في الدين عند حلول المصائب بهم •

ولم يمض على جماعة المؤمنين الزمن الطويل ، حتى أصبح الناس المحيطون بهم ، يحترمونهم احتراماً عظيماً ، ويعظمون قدرهم ، وراح عدد المؤمنين يزداد يوماً بعد يوم •

ومن فضائل الدين الاسلامي ، أنه أوصى خيراً بغير المسلمين ، وأمر بحسن معاملتهم ، ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ما في هذا التسامح العظيم • ثم ختم كلمته قائلا :

لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين ، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه فتح لها طريق الرقيّ والتقدم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلاّ شخص أوتي قوة وحكمة وعلماً ، ورجل مثله جدير بالاجلال والاحترام •

★ ★ ★

الباب الخامس

أثر الحضارة الاسلامية
في الحضارة الغربية

لمحة موجزة عن تاريخ العلوم :

نعيش اليوم في عصر العلم ، عصر الذرّة ، وقد عاش أناس قبلنا في عصر الحجر ، ثم البرونز ، ثم الحديد ، ثم البخار ، وفي كل يوم يوافينا العلم بالجديد والغريب ، وآياته الباهرة تحيط بنا من كل جانب ، في أعماق الماء وأجواز الفضاء أو تبدو ماثلة بين أيدينا على سطح الأرض ، وإذا كنا نعجب بحاضره ، فما أجدرنا أن نقف على ماضيه ، لأنه مهّد ـ دون نزاع ـ الى هذا الحاضر ، وهما معاً يفتحان السبيل أمام المستقبل .

وللعلم تاريخ طويل ، منذ بدأ الانسان يعمل ويفكر ، وما سجّل منه يرجع الى بضعة ملايين من السنين ، ولم تقف نشأته عند بيئة بذاتها ، ولا شعب بعينه ، بل أسهم فيه بنو البشر جميعاً ، كلّ بنصيبه ، فتاريخه ـ إذن ـ تاريخ الحضارة الانسانية ، يسجل حركاتها ، ويتتبّع تطوراتها ، ويعرض مراحل نموّها وازدهارها ، وفترات تلاشيها وانقراضها ، ويبيّن مدى التلاقي والتعاون ، بين الحضارات المتعاقبة .

وتاريخه أيضاً تاريخ العقل البشري ، يرسم محاولاته الأولى ، التي أملتها الغريزة والحاجة ، ويسايره إلى أن ينتهي به الى ذلك التفكير المنطقي ، الذي يلاحظ ويجرّب ، ويحلّل ويركّب ، ويصنّف ويعمّم ، ويبرهن ويعلّل [1] .

---

(١) تصدير ـ للدكتور ابراهيم بيومي مدكور (رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة) في مقدمة

ولئن كان العلم رفيع الشأن منذ أن وجد الانسان ، فان مكانته اليوم سمت سمواً جاوزت فيه كل حسبان ، لقد صار العلم دعامة المجتمع ، وسبيل تقدمه وسعادته ليسلك طريق الوصول الى حياة أفضل ، إنه وديعة الله وسنّته ، ومظهر من مظاهر قوته ، أطلع عليها الصالحين في أرضه ، لتظهر آثارها في صلاح الناس وإصلاحهم ، في خير البشر وإسعاده ، وتعميم العدل في المجتمع الانساني .

ولا غرو بعد ذلك أن تشاد للعلم الصروح والجامعات ، ودور المعرفة والمؤسسات ، ومعاهد الأبحاث والدراسات ، ولقد أثبت التراث العربي الاسلامي أن العرب يوم وحّدوا كلمتهم ، على يد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، استطاعوا بقوة ذلك الدفع العظيم ، والدعم العلمي القويم ـ الذي دعا إليه الاسلام ـ أن يصبحوا أسياد العالم .

ويعدّ الدكتور جورج سارتون ، على رأس المشتغلين بتاريخ العلم (في نصف القرن الأخير) اتجه نحوه منذ عهد الشباب ، ووقف عليه حياته كلها ، وقلّ أن تفرّغ باحث لموضوع مثلما فعل .

ففي سنة ١٩١١ تقدم الى جامعة (جان) البلجيكية ـ حيث مسقط رأسه ـ برسالة الدكتوراه موضوعها (ليونارد الفنسي) ، وكانت هذه نقطة البدء في حياته العلمية الحافلة ، ومنذ ذلك التاريخ أخذ يحاضر ويؤلف في العلم وتاريخه ، فحاضر في بلجيكا ، وانكلترا ، قبل أن يرحل الى الولايات المتحدة ، عام ١٩١٥ ، وهنا امتد نشاطه الى كبريات الجامعات الأمريكية ، يحاضر فيها ويراسل ، وينشىء جيلا من الباحثين ، وبقي كذلك الى أن لفظ النفس الأخير عام ١٩٥١م .

وقد أسهم « سارثون » اسهاماً فعّالا في مجلّتين دوليتين ، وقفتا على العلم

كتاب ـ تاريخ العلم ـ الجزء الاول ـ للدكتور جورج سارتون .

ترجمة السادة : الاستاذ محمد خلف الله ، الدكتور طه الباقر . الدكتور محمد سليم سالم . الدكتور مصطفى الامير . الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة . الدكتور رشيد الناضوري .

باشراف السادة : الدكتور ابراهيم بيومي مدكور . الدكتور قسطنطين زريق . الدكتور محمد كامل حسين . الدكتوز محمد مصطفى زيادة .

وتاريخه ، فاشترك في تأسيسهما وادارتهما ، وعاون على تمويلهما ، واستمر مدى حيـاته يغذيهما ببحوثه وتحقيقاته وهما : (آيزس) التي ترجع الى سنة ١٩١٢ و (اوزيريس) التي ظهرت لأول مـرة سنة ١٩٣٦ ، وفوق هـذا نظّم بعض المؤتمرات ، ورأس أكثر من جمعية تعنى بالعلم وتاريخه ، في أمريكا وأوروبا ، فكان رئيساً للاتحـاد الدولي لتاريخ العـلوم ، ورئيساً شرفيّاً لجمعية تاريخ العلوم الأمريكية .

ومنهج المؤرخ « سارتون » يعنى كل العناية بالوقائع يجمعها ويفحصها ، ويناقشها ويحلّلها ، ويستخلص منها ما يستخلص من نتائج وأحكام ، وكل ذلك في اطلاع واسع ، وقراءة مستفيضة ، وكم يذكرنا بأصحاب دوائر المعارف (وان عاش في عصر التخصص التـام) وعندما تغزر المادة أمـامه يختار منها ما يرى ، واختيار المرء رائد عقله ، وليس أدلّ على سعة اطلاعه ، من هوامشه الخصبة ، المليئة بدقائق الأمـور ، وشتّى التفاصيل ، التي يجمع فيهـا بين العلم والأدب والتـاريخ .

وسارتون المؤرخ لا يقف عنـد حضارة بذاتهـا ، بل يتتبّع الحضارات الانسانية على اختلافها ، ويتحاشى ذلك الخطأ الذي وقع فيه القائلون « بالمعجزة الاغريقية » وفي رأيه أن من سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بـلاد اليونان ، فالحضارة الاغريقية سبقتها آلاف الجهـود العلمية ، في مصر وبلاد ما بين النهرين ، وغيرهما من الأقاليم ، والعلم اليوناني كان إحياءً أكثر منـه اختراعـاً (١) .

هناك حضارة (هنـدية ــ صينيّة) ، وأخرى (آشوريّة ــ بابليّة) ، وثالثة ، مصريّة ، وقد تأثر بعضها ببعض ، وأثّرت بدورها في الحضارة اليونانية .

ولقد نجح « سارتون » كل النجاح في بيان مدى تأثر هذه ــ بالحضارتين ــ المصرية والآشورية ملاحظاً أن تراثهما اشتمل على وثائق علمية موغلة في القدم ،

---

(١) ينظر ــ جورج سارتون ــ تاريخ العلم . الكتاب الأول ص ٢١ وما بعدها ــ القاهرة ١٩٥٧ .

قلّ أن نجد لها نظيراً في التراث اليوناني (١) .

ويحرص سارتون المؤرخ ، أن يرجع الى المصادر الأولى ، كيف يغوص الى الأعماق ، ويعيش في الجو الذي يؤرخ له ، ويحس باحساس أهله ، وقد جدّ في طلبها ، ويسّرتها له المتاحف والمكتبات الخاصة والعامة ، ورحل شرقاً وغرباً ، للوقوف على معالم التراث القديم ، وأعانه على تفهمها (فقه لغوي واسع) فكان يجيد اليونانية واللاتينية (ويلمّ بالعربية) والعبرية ، والسنسكريتية ، والصينية واليابانية ، وكان متمكّناً من الانكليزية والفرنسية والألمانية ، ويقرأ في يسر ، الايطالية والاسبانية .

وله ولوع كبير بالنصوص ، يتخيّر أحسنها وأنسبها ، (وسارتون) أستاذ أيضاً ، عرف كيف يحادث ويحاضر ، ويشرح ويفصّل ، وقد يستطرد وينوّع ، ويجدّ ويمزح ، ليرفّه عن مستمعيه ، ويستعيد نشاطهم ، وكل تلك أنواع ملحوظة في كتابه (تاريخ العلم) .

فأسلوبه سهل ، وعبارته أخّاذة ، وأفكاره جليّة .

وسارتون ـ أخيراً ـ عالم بأوسع معاني الكلمة ، يعرض لقضايا العلوم ، فيعالجها معالجة الملمّ بأطرافها ، الخبير بدقائقها ، ومع هذا فهو لا يؤرخ لعلم بذاته ، وانما يتتبّع تطور العلم البشري ، منذ بدء الخليقة الى اليوم .

وأختم هذه الكلمة برأي (هذا العالم المؤرخ الفيلسوف) بالنسبة لأثر المسلمين على الحضارة الانسانية :

« المسلمون عباقرة الشرق ، في القرون الوسطى ، لهم مأثرة عظمى على الانسانية ، يتمثل في أنهم تولوا كتابة أعظم المؤلفات والدراسات قيمة ، وأكثرها أصالة وعمقاً مستخدمين في ذلك لغتهم العربية ، التي كانت بلا مراء لغة العلم للجنس البشري ، في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثامن

(١) ينظر جورج سارتون (تاريخ العلم) المصدر السابق ص ٢٢ .

الميلادي ـ حتى نهـاية القرن الحادي عشر ، لدرجة أنه كان يتحتم على الشخص الذي كان يريد الإلمام بثقافة عصره ، وبأحدث ما يجري من علوم ، أن يتعـلم اللغـة العربية •

وهذا الرأي يحمل بغير شك ، كثيراً من المعنى والمغزى ، **لأن المؤلفات العربية التي تركهـا علمـاء المسلمين** ، وغيرهم من المفكرين والفلاسفة والعلماء، الذين عاشوا في ظل الحضارة الاسلامية ، في القرون الوسطى ، **كانت بغير شـك ، سـجلا وافياً عميقاً للفكر الانساني ، في ذلك الحين** ـ الذي توارت فيه أوربا ـ ، ومن الصعب أن تتصوّر ، ماذا يمكن أن يكون الوضع ، لو لم يقم العرب والمسلمون ، خلال هـذه الفترة ، بحمل رسالة العلم والثقافة ، وتطوير المعـرفة ، وحفظ التراث الانساني ، وحمـله الى الأجيال التالية •

★ ★ ★

الفصل الأول

العلم أس الحضارة

ما أن ظهرت رسالة الاسلام المجيدة ، حتى حضّت على الأخذ بأسباب الحضارة ، كما يتبيّن ، لمن يتفهّم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، ويقتفي سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وتاريخ الخلفاء الراشدين ، ويقف على تاريخ ملوك المسلمين ، في كل عصور قوتهم وازدهار ملكهم .

ويعتبر الاسلام أول عقيدة كرمت العلم والعلماء ، ومعنى هذا ، أنه يعنى (بأصل الحضارة) وقوتها الدافعة ، وليس لنا أن نعجب إذا كانت أول سورة نزلت على قلب النبي الكريم هي :

- « اقرأ باسم ربّك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربّك الأكرم الذي علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم » .

وجاء في أوائل السور المكية قوله تعالى :

- « ن . والقلم وما يسطرون » . سورة القلم : آية : ١
- « والطّور وكتاب مسطور . في رقّ منشور » . سورة الطور : آية: ١ـ٣

ومن المتعارف عليه ، أن أدوات العلم في ذلك الوقت كانت : القلم ، والمداد (أي الحبر) ، والرقّ (الذي يكتب عليه) ــ وقد أقسم الله بهذه الأدوات الثلاث ــ فيما أوردناه من الآيات :

- أقسم بالنون ــ وهي الدواة ــ على ما ذهب اليه جمهور المفسرين .
- وأقسم بالقلم ــ وهو وسيلة الكتابة ــ المعهود .

- وأقسم بالرقّ المنشور ــ وهو الوسيلة (الأداة) التي يحتفظ بالكتابة ، بواسطتها .

ومن أمعن النظر في كتاب الله الكريم ، وجد أن الله تعالى يقسم بكثير من مخلوقاته ، تنويهاً بشأنها ، ولفتاً لأنظار الناس اليها .

وجاء في الحديث الشريف : (عن فضل العلم)

- « إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلاّ من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم .

وفي القرآن الكريم ما يلفت الأنظار الى سموّ مكانة العلماء في نظر الاسلام ، قال الله تعالى :

- « شهد الله أنه لا إله إلاّ هو ، والملائكة ، وأولوا العلم ، قائماً بالقسط ، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم » (١) .
- « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (٢) .
- « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء » (٣) .
- « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون » (٤) .

وفي هذه الآية (الأخيرة) حصر الله العقل والتدبّر في آيات الله ، وما يضربه من أمثال للعبرة والعظة ، بـ (العلماء) دون غيرهم ، وهذا تكريم لهم ، ولفت للأنظار اليهم ، والى مكانتهم في المجتمعات ، ما بعده من مزيد .

وفي الحديث عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

- « العلماء ورثة الأنبياء » رواه أبو داود والترمذي .

---

(١) سورة آل عمران . آية ١٨ .
(٢) سورة المجادلة : آية . ١١
(٣) سوره فاطر : آية : ٢٨ .
(٤) سورة العنكبوت آيه . ٤٢ .

ومن المعلوم أن الأنبياء هم الذروة العليا في الكمال الانساني ، فهل هناك أكثر تشريفاً للعلماء من أن يكونوا ورثتهم . وقد بلغ من تكريم الاسلام للعلماء أن آثرهم على المنقطعين للعبادة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- « فضل العالم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » رواه النسائي والترمذي

وإذا كان الاسلام قد كرّم العلماء ، وأشاد بدورهم في المجتمع ، فانه حثّ على طلب العلم والمعرفة ، في كل زمان ومكان ،، قال تعالى :

- « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » سورة النمل : آية : ٤٣ .

والذكر هنا هو العلم (على رأي جمهرة المفسرين) بدليل قوله تعالى ــ إن كنتم لا تعلمون ــ وقد قال الرسول الكريم (في هذا المجال) :

- « طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه البيهقي وابن عبد البر
- « من خرج في طلب العلم ، فهو في سبيل الله حتى يرجع » رواه الترمذي

من هذا يتبين ، أن الاسلام قوة دافعة للحركة الحضارية ، وأن الحضارة بجميع ألوانها أصداء للاسلام ، وان العلوم والانتاج والتعمير ، من مقتضيات الاسلام .

★ ★ ★

الفصل الثاني

أثر الحضارة الاسلامية

في الحضارة الغربية

تقديم :

لا مراء في أن أثر العرب (المسلمين) في النهضة الأوربية واضح ، لا يجحده إلا مكابر ، فقد كانت للعرب عقيدة وفلسفة للحياة الانسانية ، وكان لهم نظام حكم ، أشاع روح العدل والانصاف والتسامح ، فتعايش الناس ، ذوو العقائد المختلفة ، والأجناس المتباينة ، متجاورين ، يسودهم الأمن والسلام والمحبة ، فتجاور المسجد والكنيسة والمعبد في كل قطر ، بل في كل مدينة ، وظل هذا التقليد زماناً طويلا ، حتى بعد انحسار حكمهم عن البلاد التي فتحوها ، وما ذلك إلا لأنهم أوجدوا البيئة التي تسمح بنمو روح الإخاء والتسامح ، فقد ربّوا النفوس التي تؤمن بهذا التعايش والامتزاج ، ووجدت مساجد اسلامية يدرس فيها الرهبان واليهود جنباً الى جنب ، وبعد أن أغلقت (أوربا ــ العصور الوسطى) أكاديمية أفلاطون (في أثينا) سنة ٥٢٩ م قامت مساجد اسبانيا ، وجامعات فرنسا وصقلية ، بفضل العرب وعلمهم بحمل مشاعل الابتكار ، في العلم والفن والفلسفة الانسانية ، وظل العرب قروناً متطاولة ، يحملون رسالة العلماء والخبراء والصناع ، على أرض جنوب فرنسا واسبانيا ، وجنوب ايطاليا وصقلية .

والخلاصة أن العلماء العرب في العصر الاسلامي ، قاموا بدورهم في بناء النهضة العلمية العالمية ، وقدموا لأوربا زاد نهضتها ، وكانوا كما قال (البنديت

جواهر لال نهرو ــ في كتابه لمحات من تاريخ العالم) : « كانوا بحق آباء العلم الحديث ، وان بغداد تفوقت على كل العواصم الأوربية ــ عدا قرطبة ــ عاصمة اسبانيا العربية ، وأنه كان لا بد من وجود : ابن الهيثم ، وابن سينا ، والخوارزمي والبيروني ، لكي يظهر : جاليليو ، وكبلر ، وكوبرينق ، ونيوتن ....

ولقد ساعد العلماء العرب (في العصر الاسلامي) على هذا التفوق العلمي ، أربعة عوامل ، لا بد من الاشارة اليها ، والتعريف بهـا ، تلك هي :

أولا : حرية الرأي العلمي ــ فلم يتعرض عالم لمحنة بسبب رأيه العلمي .

ثانياً : رعاية الحكّام والولاة للعلم والعلماء،وإنفاقهم بسخاء في هذا المجال.

ثالثاً : استعلاء العلماء بعلمهم ، وزهدهم في الترف والسلطان .

رابعاً : الاستعداد الذهني مع الصبر والمصابرة (المثابرة) حتى أن أعمال العالم منهم (مؤلفاته) تعد بالعشرات ، في أغلب الأحيان .

ونختم هـذا (التقديم) باعترافات منصفة لبعض علماء الغرب (بقيمـة الاسلام الحضارية) .

جاء في كتاب (القيم الخالدة في الاسلام) للعالم الشهير « اميل درمنجم » :

« ان حضارة الاسلام تقوم على رسالة سماوية ، نظامها الاجتماعي يقـوم

---

(١) ان الراهب الفرنسي « جربرت » ترك بلاده وقصد الاندلس ، ليزداد من مناهل العـلم العـربي الاسلامي بهـا ، واستوطن (اشبيلية) وتسمى الآن ــ اكوادور ــ حتى ارتوى ، ثم تركها الى (قرطبة) وتسمى الآن ــ سيلفيا ــ فاكتمل له التحصيل ، ومنهـا رحل الى روما ، حيث علا شـأنه ، وارتقى منصب البابوية باسم (سلفستر الثـاني) عام ٩٩٩ م وتبعه كثير من امثاله الرهبان الذين عنوا الثقافة العربية ، وطبع مؤلفـاتها ، وترجمة كتبهـا في الفلسفة وعلوم الطبيعة : وقـد اشتهر منهم راهب المـاني يـدعى (البير الكبـير) وكان أستاذا للفلسفة واللاهوت بجامعتي : باريس وكولونيا ، وقد تثقف العربية ودرس مؤلفـات : ابن سينا والغـزالي والفارابي ، وألف في الفلسفة كتابه الضخم : (مآثر العـرب) الذي يعد مفتاحا لمعرفـه الغرب في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ومنهم الراهب الانكليزي (روجر بكون) الذى أوصى قومه بتعلم العربية ، وأكبّ على دراسـة مؤلفـات ابن الهيثـم .

على أسرة متماسكة ، ونظامها الاقتصادي يعتبر المال وسيلة لا غـاية ، ويحترم الملكية الفردية غير المستغلّة ، وثقافتها تستخدم العقل في كسب المعارف ، ولا شك أن لدى المسلمين أكبر ذخيرة من القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية ».

وقال الدكتور غوستاف لوبون (المؤرخ الفرنسي) في كتابه (حضارة العرب):

« إن فلاسفة العـرب والمسلمين هم أول من علّم العـالم كيف تتّفق حـرية الفكر مع استقامة الدين » .

أثر الحضارة الاسـلامية في الحضارة الغربية :

لقد كان تأثير الحضارة الاسلامية في العالم الغربي المسيحي كبيراً ـ خلال العصور الوسطى ـ إذ انتقلت كثير من المؤلفات العلمية ، من مختلف العـلوم والفنون الى أوربا ، وترجمت الى اللغات اللاتينية مرات متعددة ، وكانت تدرّس في المؤسسات والمعاهد والجامعات ، ويعتمد عليهـا كمراجع أساسية ، ولذلك يعترف كثير من المستشرقين بعظمة الدور الذي قامت به الثقافة الاسلامية ، في إثراء الفكر الأوربي لفترة طويلة من الزمن ، استمرت لقرون عديدة .

ومن المعروف والثابت تاريخياً ، أنه في الوقت الذي كانت البلاد الاسلامية تمثل المشعل الفكري الوضّاء الذي ينشر النور فيما حوله ، ويملأ الدنيا علمـاً ومعرفة ، كانت أوربا تعيش في حـالة من الجهل والتخلف ، والضياع والتمزق ، ولما أرادت أن ترفـع عن كاهلها عبء ذلك الوضع المهين ، التفتت الى الحضارة الاسلامية ، تنهل من رحيق المعرفة والفكر ما أمكنها ذلك ، ولذلك عكف علماؤها ورجال الدين فيها على دراسة الآثار العلمية التي كتبها العلماء المسلمون من أمثال: ابن سينا والرازي والبتّاني وابن الهيثم ، والبيروني والخوارزمي والفارابي وابن رشد وغيرهم ، فكانت هـذه المؤلفات تمثل المنهـل العذب ، الذي كان طلاب المعرفـة ينهلون منه .

قال الاستاذ « كويلو بونج » استاذ العلاقات الأجنبيّة بجامعة برنستون ، ورئيس قسم اللغات والآداب الشرقية فيها ، في محاضرته التي ألقاها ، في مؤتمر

الثقافة الاسلامية ، الذي عقد برعاية (جامعة برنستون) و (مكتبة الكونغرس) في واشنطن عام ١٩٥٣ ، تحت عنوان :

« أثـر الاســلام الثقـافي في المسيحية »

« وبعد ، فهذا عرض تاريخي قصد به التذكير بالدّين الثقافي ، الذي ندين به للاسلام ، منذ أن كنا نحن المسيحيين ـــ داخل هذه الألف السّنة ـــ نسافر الى العواصم الاسلامية ، والى المعلمين المسلمين ندرس عليهم العلوم والفنون وفلسفة الحياة الانسانية ٠٠٠٠ ولن تتجاوز حدود العدالة ، إذا نحن أدّينا ما علينا بربحه ، ولكن سنكون مسيحيين حقــاً ، إذا نحن تناسينا شــروط التبادل ، وأعطينا في حبّ ، واعتراف بالجميل » (١) ٠

وقد انتقلت الثقافة الاسلامية الى أوربا المسيحية ، عن طريق معابر ثلاثة : اسبانيا ، وصقلية ، وسوريا أيام الحروب الصليبية ، وعن طريق هــذه المعابر ، انتقلت آثار الحضارة الاسلامية ، ومؤلفات العلماء المسلمين إلى أوربا ٠

★ ★ ★

---

(١) ينظر الثقافة الاسلامية والحيــاة المعاصرة ص ٢٥٧ ، مجموعــة محاضرات القيت في مؤتمر الثقافة الاسلامية في واشنطن عــام ١٩٥٣ ٠

الفصل الثالث

معابر الحضارة الاسلامية الى أوربا

أما المعابر التي سلكتها الحضارة الاسلامية في طريقها الى أوربا ، واجتيازها الفكر الاسلامي بمختلف عناصره (الأدبية والعلمية والفلسفية) فهي ثلاثة مراكز رئيسية كبرى :

- الشرق العربي في زمن الحروب الصليبية [1] .
- صقلّية [2] ـ حيث نشأت دولة عربية ، ظلت حضارتها قائمة بين الصقليين زمناً طويلا ، بعد زوال تلك الدولة .
- والأندلس [3] ، زمن الخلافة الأموية فيه .

١ ـ الشرق العربي زمن الحروب الصليبية (سوريا) :

فقد كانت سوريا ـ وما ارتبط بمسرحها من حروب صليبية ـ ذات أثر فعّال في هذا الميدان ، فالحروب الصليبيّة قد صحبها بعد النشاط الفكري والحضاري ، إذ وجد من اللاتين الذين استقروا في الأراضي المقدسة ، من كتب في التاريخ ، مثل « وليم الصوري » أو في القانون ، مثل « حنّا الابليني » و « فيليب نافاري » كما انسابت بعض المصطلحات العربية الى البلاد الغربية .

كذلك أثّرت الحروب الصليبيّة في تطور فن الحرب عند الغربيين ، ولاسيما فيما يتعلق ببناء القلاع ذات الحوائط المزدوجة ، هـذا بالاضافة إلى ما أدت اليه

(١) منطقة الشام (سوريا) خلال الحروب الصليبية وما بعدها في الفترة (١٠٩٨ ـ ١٣٠٠م) .

(٢) صقلية ـ في عهد الاغالبة (٨٣١ ـ ٩٠١م) .

(٣) اسبانيا ـ في عهد الاسلام ، وقد اقام الاسلام في اسبانيا بين (٧١١ ـ ١٤٩٢م) .

الحروب ، من تقـدم حركات الحصار واستعمال المجانيق ، واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم ، والمراسلة الحربية عن طريق الحمام الزاجل .

وبالنظر الى المؤثرات الاسلامية في الحيـاة الأوربية (نتيجة لنمو التبادل التجاري) الذي أثارته الحروب الصليبية ، نلاحظ انتقال (نباتات) و (حاصلات) و (أشجار) جديدة ، من شـرق البحر المتوسط إلى غربه ، مثـل : الثّوم ، والبطيخ ، والأرز ، والليمون ، كما انتشرت في الغرب العقاقير والأصباغ والتوابل الشرقية ، كما كثر استعمال وصناعة الأقمشة التي نسبت الى بلدان الشرق ، مثل (الموسلين ــ نسبة الى الموصل) و (الدامسكو ــ نسبة الى دمشق) وغيرهـا ، وكذلك (الناعورة) نقلها الصليبيون من (حماه) الى بلادهم ، فعندما شاهدوا النواعير ترفع الميـاه من العاصي ، أعجبوا بها ، فاقتبسوها ، بأن نقلوا نمـاذج منهـا الى ألمـانيا .

٢ ــ صقليـة :

وهي المعبر الثاني ، الذي انتقلت عنه حضارة الاسلام الى غرب أوربا ، حيث صار للثقافة الاسلامية شـأن كبير .

وكلنا نعرف ، أن جزيرة صقلية ، كانت قد خضعت (من القرن الخامس ــ الى الثامن) للدولة الرومانية الشرقية ، ثم فتحها العرب في عام ٨٣٠ م ، ثم عزاها النورمانديون في سنة ١٠٨٧ م ، وكان من أثر تعاقب غزو الجزيرة ، أن تأثر سكانها بعادات ولغات المغيرين ، كما تأثر الفن بطابع هـذه الشعوب ، وكان للعرب تأثير فني كبير على المبـاني التي وصفت بأنها (عربية ــ نورماندية) .

ويظهر الطراز العربي في (كنائس النورمانديين) الذين دخلوا الجزيرة بعد العرب ، ومنها كنيسة (القديس جيوفاني) في مدينة « بالرمو » وهي ذات قباب حمراء ، نصف كروية ، كما تظهر الأقواس المدبّبة ، والزخارف العربية الدقيقة ، في قصور الملوك النورمانديين ، في مدينتي (بالرمو ــ ومونديال) .

ولمـا سيطر العرب على (كريت) شرقاً ، و (صقلية ، مالطة ، وقوصر) في

الوسط ، وجزر (الباليار) غرباً ، ثم على جزيرتي (سردينيا وقبرص) تمّ للعرب السيطرة التامة على البحر المتوسط ، وحققّت هذه السيطرة للعرب أغراضاً دفاعية:

- فكانت (طرطوس وقبرص) تحميان شواطىء سوريا •
- وكانت (كريت) تحمي مصر ، كما تحمي (صقلية) شمال أفريقيا •
- وتحمي (جزر البليار) الأندلس •

وفي أواخر القرن التاسع ، أصبحت هذه الشواطىء العربية في مأمن من أي غزو لأول مرة ، منذ عام ٦٤٥ م ، واصبح لدى العـرب كل ما يحتاجون اليه ، وخاصة فيما يتعلق بالمواد الأولية الهامة اللازمة لبنـاء السفن ، ففي (صقلية) كميات وفيرة من أخشاب السفن ، وكذا بعض الحديد ، كما كانت (كريت) غنيّة بخشب الأرز والسرو •

ولما كانت طبيعة (صقلية) تتكون من مرتفعات وهضبات ، وتحتل مدنهـا الأجزاء الغالية ، مما جعلها حصينة ، عنيدة أمام كل فتح ، واتسمت بسمتين كان لهما أثرهما في تاريخها بصفة عـامة •

السمة الأولى : موقعها البحري ، والثانية : توسّطها بين أفريقيا وأوربا ، وهي لهـذا ، ملتقى حضارات جمّة (فينيقية ، ويونانية ، ورومانية ، وقوطية ، وبيزنطية ، وعربية) •

وقد بدأت أنسابها تختلط بأنفاس المسلمين، منذ نزلها « حبيب بن أبي عبيدة» حفيد عقبة بن نافع ، ثم عودته الى أفريقيا ، والنتيجة التي تلت هذا هي استيقاظ الروم ، وحرصهم على تحصين (صقلية) •

غـير أن خطوات الفتح الاسلامي بدأت مع استغاثة ثائر (بصقلية) عـلى القسطنطينية ، وهو « فيمي » الذي لجـأ الى بني الأغلب ، فعهد (ابراهيم بن الأغلب) الى (أسد بن الفرات) حيث قـاد أسطولا ، في شهر ربيع الأول ، سنة ٢١٢ هـ ، وجابه أهوالاً ، ذابت أمام قوة المسلمين النفسية ، وما أن فتحت (بلرم)

حتى صارت صقلية في أيـدي المسلمين ، وان ظـل قسمها الشرقي ، القريب من القسطنطينية عنيداً ، يؤلب (سائر القلاع المستسلمة) على المسلمين ، ثم سقطت (سرقوسة) وبعدها(طبرين)وبقي معظم القسم الشرقي يكتفي بدفع الجزية فقط .

واستعدت الجزيرة بعد ذلك ، لاستقبال قيم جديدة ، ودين جديد ، وتمتع عبيدها بحياة جديدة في ظل النظم الاسلامية التي حكمت بين الناس (بعدالة الله) مما دفعهم لتقذير الاسلام ، والإقبال على اعتناقه ، والتشرف بمصاهرة المسلمين .

ثم شهدت الجزيرة شيئاً من التنافس العباسي والفاطمي ، انتقل خلاله الحكم ، من يد الأغالبة إلى (بني أبي الحسين ــ الكلبيين) حيث تم ارتباط صقلية بالخلافة الفاطمية ارتباطاً وثيقاً .

وعرفت صقلية من (الكلبيين) عشرة ولاة ، طيـلة خمسة وتسعين سنة ، نشطت خلالها ، القطاعات العمرانية والثقافية ، مع هدوء وأمن اجتماعيين ، عـادا على البلاد بالنمو الفكري والتقـدم الحضاري ، مما مهّد لصقلية أن تتزعم حركة فكرية كبرى ، تنافس مثيلتها في (الأندلس) و (مصر) و (القيروان) ، بل قدر لهـا أحياناً أن تحتل الصدارة ، بالنسبة لسائر المراكز الاسلامية .

يقول المؤرخ الانكليزي « سنجر » .

« ان صقلية دانت للعرب ، بعد أن كانت تحت حكم الامبراطورية البيزنطية ، وسقطت (بلرم) سنة ٨٣١ م وكان النصر حليف الهلال (الاسلام) الذي امتـد سلطانه سنة ٨٤٦ م إلى روما نفسها .

ونتيجة تفـوق المسلمين في شتـّى القطاعات ، بدأت آمالهم تغـزو الآفاق المجاورة ، حتى وصلوا الى جنوب ايطاليا ، واستسلمت (سالرنو) و (نابولي) و (مونت كاسينو) فاستعدّت تلك البلاد ، لتتقبّل نفحات الثقافة الاسلامية الثّرية .

ثم كان انتقال الحكم مـن (الكلبيين) إلى (أمراء الطوائف) حيث بـدأ التنافس ، وشرعت صقلية تشهد قواداً يتقاتلون ويختلفون ، فيهزم ــ ابن الثمنة ــ

ويسرع بطلب النجـدة من النورمان ، الذين كانوا على شـوق لفتح صقلية ، فاستولوا على (مسنية) سنة ١٠١٦ م ثم هفت قلوبهم الى (بلرم) وتمت الفترة الاولى من الفتح سنة ١٠٧٢ م وبعدها بـ عشرين عاماً ، تم الاستيلاء على الجزيرة،

وقد تيسّر لملك صقلية (روجر الاول) أن يتّكيء على أعمدة الاطمئنان ، ويشرع في حكم الجزيرة ، ومعاملة المسلمين ــ وخاصة علماؤهم ــ معاملة حسنة، عادت بالخير ، لا على الجزيرة فحسب ، بل على الحضارة الأوربية بأسرها .

وهنا تجدر الاشارة، إلى أن المسلمين ، رغم ذهاب الحكم من بين أيديهم ، لم يبخلوا على الانسانية بمواصلة ما بدأوه .... وأضافوا إلى ما أنتجوا مـن ثمار ، ما استحقوا أن يتولوا زمام الفكر قروناً عـدة .

وقـد ترك العـرب لأهالي صقلية الأصليين عاداتهم وقوانينهم ، وحريتهم الدينية ، وحافظوا على جميع الكنائس التي وجدوها ، واهتموا بالزراعة والصناعة، وأنشأوا مصانع الورق ، وامتدت هذه المصانع من صقلية الى ايطاليا ، واستخرج العرب الذهب والفضة والحديد والرصاص ، وعلموا أهالي صقلية صناعة الحرير، كما اهتموا بالتجارة .

وأخرجت صقلية جملـة من العلماء ، والمحدثين ، والفقهـاء ، والأدباء ، والفلاسفة ، وكان في طليعتهم ، أسد بن الفرات ، وهو من أصحاب مالك ، وأسد ابن الحرث (صاحب الاسديات في الفقه) والقاضي ميمون بن عمر ، وابن حمديس الصقلي (الشاعر المبدع) .

ومن رجـال صقلية ، أبو عرب الصقلي ، وابن بشرون ، وابن الفحـام ، والشريف الادريسي ، وابن طغر ، والحسن بن يحيى (المعروف بابن الجزار) وهو صاحب تاريخ صقلية .

وترك العرب أيضاً ألفاظاً عربية ، في اللغـة الصقلية والايطالية ، ولا تزال مدن وأماكن كثيرة من صقلية تحمل أسماء عربية ، لا سيما أسماء القلاع والمراسي والشوارع .

وفي (بالرمو) الآن قصران جليلان من مباني العرب : أحدهما قصر القبّة ، والآخر قلعة الجزيرة . وقد تحدث الرحّالة العربي الشهير « ابن جبير » عن آثار العرب في صقلية ، وخاصة مساجدهم ، وأسواقهم ، ويذكر أن « وليم » ملك صقلية الذي سماه (غليام) كان شديد الثقة بالمسلمين الى حدّ بعيد ، يقول عنه :

« وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن اليهم في أحواله ، والمهمّ من أشغاله ، وله جملة منهم هم أهل دولته وخاصته ، وعليهم يلوح رونق مملكته » .

ومن أغرب ما ذكره « ابن جبير » عن هذا الملك ، معرفته باللغة العربية (قراءة وكتابة) وأن شعاره (الحمد لله حق حمده) وكان شعار أبيه (الحمد لله شكراً لأنعمه) .

تحدّث « رينالدي » عن التأثيرات العربية في جزيرة صقلية فقال : إن الجزء الأعظم من الكلمات العربية (الباقية في الايطالية) التي تفوق الحصر ، دخلت اللغة الايطالية ــ لا بطريق الفتح العربي ، بل بطريق الحضارة ، التي كثيراً ماتؤلف بين مظاهر الحياة المختلفة .

ولقد اضطرت مدينة « جنوه » أن تؤسس مدرسة لتعليم اللغة العربية سنة ١٢٠٧ م ويدل على ذلك وجود كلمات عربية في لغة هذه المدينة ، وفي جميع اللغات العامّية في جميع المدن الايطالية ، التي كانت تتّجر مع الشرق وصقلية ، وقد دخلت إليها مع التجارة العربية .

ولا تزال معاجم لغتهم تحفظ كثيراً منها ، والهندسة القوطية هي في الحقيقة الهندسة العربية ، كما أن أسماء الموازين والمكاييل والألفاظ البحرية ــ في اللغة الايطالية ــ من أصل عربي .

وأثبت « أماري » المستشرق الصقلي ، أن صقلية مدينة للعرب بحضارتها ، كما أن ايطاليا مدينة لصقلية باقتباس معالم الحضارة العربية ، وقد أدّى هذا الى ابتكار الشعر الوطني . ومنذ ذلك الحين ، بدأت العناية بقرض الشعر ، مما أدى الى نهوض الشعر الايطالي .

ويكمل « رينالدي » هـذا الحديث فيقول :

لم يساعد العرب على إنهاض الشعر الصقلي والايطالي ، بل إنهم أمـدّوا قصصنا (بشكلها ومادتها) وهذا ما يؤيد ما يذهب اليه بعض المفكرين من أن (دانتي) الشاعر الايطالي ، اقتبس موضوع ــ الكوميديا الإلهية ــ من رسـالة الغفران (للمعرّي) •

إن النفحة العربية التي هبّت نسماتها الزكية على ديار الايطاليين ، علّمتهم كيف يسلكون سبل الحياة الكريمة ، وعلمت أبناءهم القراءة والكتابة ، وشتّى العلوم ، بعـد أن كانوا أمّيين ، وعلمتهم الصناعات المختلفة ، وأصول الزراعة والحياكة، وشاركهم العرب في ضروب التجارة ، التي درّت عليهم الثروات الطائلة•

والزائر اليوم للمكتبة الكبرى في الفاتيكان بمدينة « روما » بايطاليا ، يجد الألوف المؤلفة من الكتب الخطية القديمة ، وهي كلها من تأليف علماء العرب •

كما أشاد « دييل » بالحكم العـربي في صقلية فقـال :

« إن العـرب حملوا معهم الى صقلية ، مظاهر فنّهم ، وقناطرهم العاليـة الجميلة ، وفسيفسائهم المعمولة من الرخـام الملون ، وصورهم الجميلة ، وبهيج صناعاتهم وليدة علمهم ، وكانت المصانع العربية مثلا يحاكيه الزمان فيما بعد » •

ولما سقطت (بالرم) في أيدي المسلمين سنة ٨٣١ م لم يكن فيها سوى ثلاثة آلاف نسمة ، فلما غدت عاصمة أمراء العرب المسلمين ، برزت حضارتها وفنونها ، فأصبح لهـا حكومة ذات مجـد ورقيّ •

اهتم الولاة العرب بالاصلاحات ، ونشروا ألوية العدل ، وعنوا بحفر الترع وترقية الزراعة ، فزادت ثروة سكانها ، وعمّت فيهـا الخيرات ، وظل العـرب المسلمون لا يمتازون عن الأهالي الأصليين بشيء ، فكل منهم يمارس شعائر دينه ، ويتبع أسلوب معيشته ، بل ان نساء صقلية تشبهن بنساء العرب ، فانتقبن النقب الملونة ، وانتعلن الأخفاف المذهبة ، ولبسن الحرير الموشّى بالذهب ، وتزيّن ، بكل ما تزيّن به المسلمات •

ولم يرهق الفاطميون أهالي صقلية بالضرائب، بل اكتفوا بأخذ الجزية العادلة.

وقد اهتم المسلمون في القرن التاسع الميلادي بوسائل الزراعة في صقلية، وبالقنوات، كما أدخلوا صناعة القطن وقصب السكر، وفي الصناعة اشتغلوا بالتعدين، فاستخرجوا النحاس والكبريت، كما ارتفعت التجارة في عهدهم، وقد كانت قبلهم في الحضيض، أما العمارة فقد بلغت حد الروعة، ونستدل على هذا من النادر المتبقي من مباني المسلمين في صقلية.

هذا ولم تنته الحضارة الاسلامية بانتهاء حكم المسلمين في صقلية، فقد وجدت في ملوك النورمان خير مشجع لها، ويوجد في « نورمبرج » رداء من الحرير، اعتاد ارتداءه ملوك صقلية وهو مطرز بكتابات عربية، بخط كوفي، يرجع تاريخه الى سنة ١١٣٣ م، كما شجّع ملوك صقلية ترجمة الكتب والمؤلفات العربية، واحتفوا بالعلماء والأدباء، والجغرافيين والفلكيين المسلمين.

٣ ـ اسبانيا :

وفي شبه جزيرة الأندلس، التي كان الرومان يحكمونها، منذ عصور سحيقة في القدم، فإن ثاني قياصرتهم، أصدر أمراً بتشييد المدن في الجزيرة (الايبرية)، وبعث لهذا الغرض أربعة من أقطاب مملكته، لتنفيذ هذه الرغبة، فشيّد كل منهم مدينة بالجهة التي تولى الحكم فيها وسمّاها باسمه، وكانت هذه المدن الأربعة هي : قرطبة، اشبيلية، ماردة، سرقسطة، وظل شبه الجزيرة خاضعاً لحكم قياصرة الرومان، حتى أغار عليه قبائل الوندال، في القرن الخامس الميلادي، ومن ثم أطلق عليها ـ فاندالوسيا ـ أي بلاد الوندال، يقول المقري :

لم تشأ القبائل القوطية أن تترك (الوندال) ينعمون بهذه الأرض الطيبة، حتى أغاروا عليها وطردوا الوندال الى أفريقيا، وكونوا لهم دولة قوية في اسبانيا، عمّرت نحواً من أربعمائة سنة، حتى جاء الاسلام، وكان آخر ملوك القوطيين « غيطشة » وهلك عن أولاد ثلاثة صغار، لم تؤهلهم سنّهم إذ ذاك لضبط الملك وتدبير شؤونه، فانحرف قائد الخيل « رودريك » ـ ويسمّيه العرب لذريق ـ بمن تبعه من رجاله، وجلس على العرش، يؤيده نبلاء القوط ورجال الكهنوت،

وسار الى قرطبة ، بعد أن كان ملوك القوط الأصليون ينزلون بـ (طليطلة) .

وهناك على الساحل الأفريقي تقع مدينة (سبته) وكانت هـذه المدينة من الناحية السياسية تخضع للحكم القوطي،ويدين حاكمها (يوليان) له بالطاعةوالولاء. وكان فضل الله عظيمـاً ، إذ حدثت المعجزة ، فانه كان على اسبانيا رجل اغتصب الملك من أهـله الشرعيين.

ينهض البطريق (يوليان) الى الأمير طارق بن زياد ، ويتفق معـه على غزو اسبانيا ، ويكشف له عن عورة عدوّه ، ويدلّه على مكان الضعف فيه .

ويتأهب طارق للغـزو بجيشه ، ويساعده (يوليان) بمراكبه وأدلاّئه ، ثم ينزل بجيش لجب فوق صخرة تسمّت باسمه (جبل طارق) ، وينتهي الأمر الجلل الى (لذريق) ، الذي كان وقتها مشغولاً باخضاع ثورة قامت ضده في الشمال ، فيقفل مسرعاً ، حيث تلقاه جيوش المسلمين ، عند وادي نهر (لكه)، فيهزم وجيشه هزيمة ساحقة منكرة ، ويختفي لذريق الى الأبد ، ولم يقف له أحـد على أثر من بعد ، وينتهي الأمر الى (موسى بن نصير) الوالي على أفريقيا ، ويأمر (طارقاً) بالتوقف ، ريثما يلحق به ، ولكن طارقاً يخشى مغبّة هـذا التوقف ، فيعقد في الحال مجلساً عسكرياً استشارياً يضم أركان حربه ، ويشير عليه المجلس بأن عملية التوقف ربما تعطي العـدو فرصة التجمع والتكتل ، فينهض طارق ويقسم جيشه الى فرق ، ويبثها في شبه الجزيرة .

ويلحق (موسى) بجيوش المسلمين ، ويسلك طريقاً آخر غير الذي سلكه طارق ، ويذهب الجميع في توطئة أكناف شبه الجزيرة وضمّها الى حظيرة الاسلام.

ومنذ ذلك اليوم ارتبطت الأندلس الاسلامية بالمغرب الاسلامي ، في المـدة التي تلت الفتح ، وكان واليها يولّى من قبل أمير أفريقية ، وكان أول والٍ تولى السلطة فيها بعد الفتح (عبد العزيز بن موسى بن نصير) عينه أبوه أميراً عليهـا ، بعد أن رحل الى الشرق ، بناء على طلب الخليفة بدمشق ، وتزوج من مسيحيّة ، فثار عليه شعبه وقتلوه ، وأمّروا عليهم « أيوب بن حبيب » والياً على الأندلس .

وحينما سقطت دولـة بني أميـة في الشـرق على أيدي أبنـاء عمومتهم

« العباسيين » تناولوهم بالتقتيل وكأنّها حرب إبادة ، فشاء الله أن تكتب النجاة لشخص من بني مروان يدعى : عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، الذي لقّب بـ (صقر قريش) .

ولقد حاول الخليفة العباسي أن يقضي عليه، ولكنه كان من الدّهاء والحيطة، بحيث قضى على أعدائه وبعث برؤوسهم الى الخليفة العباسي (في موسم الحج) مما جعله يقول قولته المشهورة : « الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه بحراً » .

ومن هذا التاريخ الذي تولى فيه عبد الرحمن أمر الأندلس ، بدأ دور (قرطبة) في توجيه دفّة الأمور ، وبرزت الى قمّة الوجود ، لتشارك في عواصم العالم المتحضّر — إذ ذاك — في السياسة والثقافة والعمارة وجميع مظاهر الحياة الحضارية ، وصارت قرطبة مستقر الخلافة ، وموطن الوزارة ، وكعبة الشعراء والأدباء ، وموئل أهل العلم ، ومقصد الطلاب ، ومورد الثقافة .

ولقد لقّب عبد الرحمن نفسه ، بالناصر ، وترجع قصّة حياته ، إلى أنه خرج (وهو فتى) طريداً وشريداً ، يلتمس النجاة من يد أعدائه ، وزوّدته أخته ببعض النقود ، يستعين بها في تدبير شئونه ، ثم بعثت في أثره بخادم يدعى بدراً ، لعب في حياته دوراً هاماً ، وظلاّ يتنقلان حتى وصلا الأندلس ، حيث كان لبني أمية حزب قوي ، ولهم فيها عدد كبير من الموالي والأنصار ، ومعظمهم ممن اشترك في الفتح من أهل الشام ، الذين قامت على أكتافهم الدولة الأموية ، واستطاع هذا الفارّ من الموت بمهارته ، أن ينشيء ملكاً أموياً ، حتى كان نجاحه حافزاً للكثير من الأمويين على الهجرة الى اسبانيا، وقد أغدق عليهم عبدالرحمن المناصب والهبات.

وازدهرت في أيامه الأندلس ، بعد أن أنفق حياته في إخماد الثورات الداخلية التي قامت ضده ، وعني بشكل خاص باخماد أنفاس كل دعوة لها صبغة غير الصبغة الأموية ، وسار بعده بنوه وأحفاده ومن تعاقب من الأمويين ، على هذه النزعة الاستقلالية .

ونافست قرطبة في عظمتها ، القيروان وبغداد والقاهرة ، وبخارى ودمشق ، وأصبحت قبلة الشعراء والكتّاب ، والفنّانين والعلماء ، وتسمى عبد الرحمن

ب ـ أمير المؤمنين الناصر لدين الله ـ فكان أول أمير من بني أمية في الأندلس ، ينعت بأمارة المؤمنين ، وبدأت الدعوة له بذلك ، ولمن أتى بعده من بني أمية .

ونقشت ألقاب الخلافة على (السكّة) وغدا أمير المؤمنين وهو في قرطبة يمثل سلطانه سلطان المسلمين والاسلام في الغرب الاسلامي ، فوفدت اليه السفارات المسيحية ، تلتمس المفاوضة في شتى الشئون الثقافية والتجارية والسياسية ، بل ظلت الدولة المسيحية أشبه بالمجبة للدولة الاسلامية الى القرن الحادي عشر .

وكانت قرطبة أشبه ما تكون بالعاصمة الكبرى لاسبانيا ، يفد اليها الملوك والسفراء ، ويقدمون الى صاحبها فروض الطاعة والولاء ، ويستجيرون به ، ويستظلون بسلطانه .

والحقيقة ، أن المصالح المشتركة ، بين بيزنطة وقرطبة ، هي التي دعّمت أواصر الصداقة بينهما ، ولم تكن المصالح المشتركة سوى مقاومة الدولة الفاطمية والأفريقية الفتيّة ، والتي ابتدأت تزعج حكومة بيزنطة في أواسط البحر الأبيض المتوسط ، وتزعج بدورها حكومة قرطبة ، بتوغلها في المغرب الأقصى .

ولما أصبحت قرطبة عاصمة الحضارة العربية في اسبانيا كلها ، وأنشأ حكامها مدارس للطب والفلسفة والعلوم والفنون الأخرى ، وبذلوا المال في سخاء ، إذ كانت دولتهم قد بلغت درجة عظيمة من الثّراء والتقدم ، أرسل الملك (عبد الرحمن الثالث) (٩١٢ ـ ٩٦١ م) لجمع الكتب واجتذاب العلماء ، للبحث والدرس والتأليف ، فأصبحت موطناً للعلوم ، وأصبح فيها عدد ضخم من المستشفيات والأطباء والصيادلة ، والكيماويين وعلماء النبات ، والرياضيات والفلك والفلسفة ، وكانت جامعة قرطبة ومكتبتها مراكز للعلوم والترجمة ، من اليونانية والهندية (وغيرها من الكتب القديمة) إلى اللغة العربية .

وفي عصر (الحكم الثالث) وهو ابن الملك عبد الرحمن الثالث ، الذي كان مثل أبيه ، عظيم الشغف بجمع العلوم ونشرها ، وصل عدد الكتب الموجودة في مكتبة قرطبة نحو (نصف مليون كتاب) وضع لها فهرس مكون من أربع وأربعين

كتاباً لكل منها خمسون صفحة ، وأرسل ـــ مثل أبيه ـــ في طلب العلماء والكتب ، من جميع مراكز العلوم ، في اليونان ، وبيزنطة ، ومراكـز الحضارات الثقافية في البلاد العربية ، لشراء أحدث المؤلفات ، وكان لا يبخل بدفع ثمنها مهما كان باهظاً .

وقلّد أمراء المقاطعة الأندلسية ، عبد الرحمن الثالث ، وابنه الحكم ، في هذه الأعمال العلمية المجيدة ، مثل أمير سرقوسة واشبيلية وطليطلة وغرناطة ـــ قلدوا قرطبة ـــ بمكتبتها وجامعتها، حيث كانت تدرس علوم الطب والصيدلة والكيمياء ، ومدريد أيضـاً ، التي اشتهرت بجامعتها ومدينتها الجامعية التي أقيمت ليعيش فيهـا الطلبة .

واتسم عهـد الحكم بالمحبة والهدوء والسلام ، فخمدت الفتن الخارجية ، وقضي على المنازعات الداخلية ونعمت البلاد إبان حكمه بالسكينة والاستقرار ، وكان الأمير نفسه يجنح الى السلم ، ويميل بطبعه الى العلم ، فكانت هذه الأسباب جديرة بخلق البيئة الثقافية والمكتبة الثقافية .

كلمـة طيبة لعـالم غـربي منصف :

بعد أن استعرضنا معاً (المعابر الثلاثة) التي عبرت عليها الحضارة العـربية الاسلامية ، في طريقها الى أوربا وهي : سوريا ، وصقلية ، واسبانيا ، وقبـل أن نستهلّ العرض الوصفي (لمختلف الآثار الحضارية في العلوم) جدير بنا أن نقف قليلا لنستمع الى كلمة طيبة ، لعالم غربي منصف هو : (البروفسور ادوار بروي) استاذ تاريخ الحضارات ، في جامعة السوربون في باريس حيث قال :

« ظهـر الاسلام كالشهاب الساطع ، فحيّر العقـول بفتوحاته السريعة ، وباتساع رقعة الامبراطورية الجديدة التي أنشأها ، نحن أمام شعب ، كان للأمس الغابر مجهول الاسم ، مغمور الذكر ، فاذا هو يتحـد في بوتقة الاسلام (الدين الجديد) الذي انطلق من الجزيرة العربية ، فاكتسحت جيوشه في بضع سنوات ، الدولة الساسانية (الفرس) وهدّت منها الأركان ، ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للامبراطورية البيزنطية في آسيا وأفريقيا ، ولم تلبث جيوشه بعـد قليل ، أن استولت على معظم اسبانيا وصقلية ، وأن تقتطع لأمد من الزمن ـــ يقصر أو

يطول ــ بعض المقاطعات الواقعة في غــربي أوربا وفي جنوبها ، ودقّت جيوشه أبواب الصين والحبشة والسودان الغربي • وقد تهاوت الدول أمام الدفع العربي الاسلامي ، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقــدها النظيم ، وهــذه الأديان التي سيطرت على الشعوب والأقــوام ــ الضاربة بين سيرداريا والسنغال ــ ذابت كما يذوب الشمع أمام النار ، بعد أن أطلّ على الدنيا دين جــديد ، له من الأتباع والمريدين اليوم ما يزيد على ثلاثمائة مليون انسان ، وانجلى غبار الفتح عن امبراطورية جديدة ، ولا أوسع ، وعن حضارة ولا أسطع ، وعن مدنيــة ولا أروع ، عوّل عليه الغرب في تطوّره الصاعد ورقيّه البنّاء ، **بعــد أن نفخ الاســلام في قسم موات** (من التراث الانساني القديم) **روحاً جديدة ، عادت معه الى الحياة ، فنبض** (أي التراث الانساني) وأشعّ وأسرى ، ولهــذه الأسباب مجتمعة ، كان لا بد وأن يحتل تاريخ العالم الاسلامي ، محلاً مرموقــاً في ثقافة رجل العصر ، كما كان لا بد لرجل العصر هــذا من أن يفهم جيداً ، أن المدنية لا يقتصر مدلولها على شعب أو بلد متحيّز في الزمان (فالتراث الحضاري الانساني ملك للجميع)وعلى رجل الغصر أن يعرف جيداً ، أنه قبل(توما الاكويني) الذي رأى النور في ايطاليا ، طلــع (ابن سينا) ــ المولود في احــدى مقاطعات التركستان ــ وأن مساجد دمشق وبغداد وقرطبة ، ارتفعت قبابها ، قبل كاتدرائية نوتردام في باريس ، بزمان ، والا ينتقص من شأن العالم العربي الاسلامي (من خلال واقعه الراهن) بل علينا اعتبار هذا التاريخ (للحضارة العربية الاسلامية) من صميم التاريخ الانساني ، المتنوع في الأزمنة والأمكنة ، والــذي لا يزال على الرغم من جزئياته وخصائصه ، تاريخ هذه البشرية الجامعة الجمعاء » [1] •

جميل بالانسان أن يرتفع الى مستوى الانصاف ، والوعي الانساني ، فيدرك أن التراث الحضاري الانساني ملك للجميــع ، وان الاعتراف بالفضل لأهــله ، شيمة الانسان الواعي المنصف •

---

(١) ينظر تاريخ الحضارات العام (المجلد الثالث) فجر الاسلام ص ١٠٩ للبروفسور ادوار بروى ـ باريس ـ وينظر أيضاً ـ مختارات ـ اللواء مصطفى طلاس ص ٤١ فما بعــدها ـ طبع دمشق •

الفصل الرابع

العلوم الطبية عند العرب

الطب - الصيدلة - الكيمياء

يعد علم الطب من العلوم التي عني بها العرب عناية كبيرة ، واستطاعوا أن يكتشفوا كثيراً من النظريات العلمية ، وأن يؤلفوا كثيراً من المؤلفات الطبية ، وقد ترجمت المؤلفات العربية في الطب إلى اللغات الأوربية ، ولقيت اهتماماً كبيراً ، وكان لهذه المؤلفات العلمية تأثير كبير في عالم الطب عدة قرون ، كانت خلالها هي المصادر الرئيسية التي يعتمد عليها ، والمراجع الهامة التي يرجع إليها ، وهذه الحقيقة العلمية ، لم تكن مجال خلاف بين المؤلفين (المؤرخين) الذين كتبوا عن تاريخ العلوم ، إذ كانوا مجتمعين على القول بأن الكتب العربية في الطب ، كانت متفوّقة فكراً وتنظيماً وتنسيقاً ، على جميع ما كتب خلال القرون الوسطى .

وقد أفاد الغربيون من المؤلفات العربية في الطب ، بعد أن ترجمت الى اللغات اللاتينية ، وظلت هذه المؤلفات تدرّس في الجامعات الأوربية حتى منتصف القرن السادس عشر .

الطب بعد الاسلام :

ولما ظهر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين (لسعادة الانسان والانسانية) كان طبيبه « الحارث بن كلدة » وكان أكثر اهتمامه بعلم حفظ الصحة ، فأوصى بالحجامة ، والحقن ، وعدم الاستحمام بعد تناول الطعام [1] .

---

(١) الحارث بن كلدة الثقفي - كان من الطائف ، تعلم الطب في مدرسه (جنديسابور) من اعمال بلاد فارس ، وتمرن هناك ، وعرف الداء والدواء ، وشهد اهل فارس بعلمه ، واشتهر طبه بين العرب ،

وبعد انتشار الاسلام نال الطب ـ بكشف أطباء الأندلس وجرّاحيها ـ من السمو والتقدم أعظم ما ناله قبلهم ، وقد عرف علماء الطب في الغرب ، عن طريق مدارس العرب (في صقلية واسبانيا) بوجه خاص ترجمات لاتينية ، للكتب الطبية العربية ، وظل أطباء العرب يحتلّون أرفع منزلة وأسمى مكانة بين أطباء العالم

وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يوصي بالتطبيب عنده ، وكان (للحارث) معالجات كثيرة ، ومعرفة بما كانت العرب تعتاده ، وتحتاج اليه من المداواة ، وله كلام مستحسن فيما يتعلق بالطب وحفظ الصحة ....

من ذلك ـ أنه لما وفد على (كسرى انوشروان) واذن له بالدخول عليه ، فلما وقف بين يديه منتصبا قال له :

فما صناعتك ؟ قال : الطب ، قال : أعرابي أنت ؟ قال : نعم من صميمها وبحبوحة دارها ، قال : ما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وسوء أغذيتها ؟ قال : أيها الملك ، إذا كانت هذه صفتها كانت احوج الى من يصلح جهلها ، ويقيم عوجها ، ويسوس أبدانها ، ويعدّل امشاجها ، فان العاقل يعرف ذلك من نفسه ، ويميز موضع دائه ، ويحرز عن الادواء كلها بحسن سياسته لنفسه .

قال : فاستوى كسرى جالسا ، وجرى ماء رباضة الحلم في وجهه ، لما سمع من محكم كلامه ، ثم أمره بالجلوس ، فجلس ، فقال : كيف بصرك بالطب ؟ قال : ناهيك ، قال : فما أصل الطب ؟ قال : الأزم ، وهو ضبط الشفتين ، والرفق باليدين ، قال : أصبت ، قال : فما هو الداء الدويّ ؟ قال : إدخال الطعام على الطعام ، هو الذي يفني البرية : ويهلك السباع في جوف البرّية ، قال : أصبت ، قال : فما الجمرة التي تصطلم فيها الأدواء ؟ قال : هي التخمة ، إن بقيت في الجوف ثقلت ، وإن تحللت أسقمت ، قال : صدقت ، قال : فما تقول في الحجامة ؟ قال : في نقصان الهلال في يوم صحو لا غيم فيه ، والنفس طيبة ، والعرق ساكنة ـ لسرور يفاجئك ، وهمّ يباعدك ، قال : فما تقول في دخول الحمام ؟ قال : لا تدخله شبعانا ، ولا تغش أهلك سكرانا ، ولا تقم بالليل عريانا ، ولا تقعد على الطعام غضبانا ، وارفق بنفسك ، يكن ارخى لبالك ، وقلل من طعامك يكن أهنأ لنومك ، قال : فما تقول في الدواء ؟ قال : ما لزمتك الصحة فاجتنبه ، فان هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ، فان البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت ، وان تركها خربت ، قال : فما تقول في الشراب ؟ قال : أطيبه أهنؤه ، وارقه امرؤه ، واعذبه اشهاه ، لا تشربه صرفا فيورثك صداعا ، ويثير عليك في الأدواء أنواعا ، قال : فاي اللحمات افضل ؟ قال : الضأن الفتيّ ، والقديد المالح مهلك للآكل ، واجتنب لحم الجذور والبقر . قال : فما تقول في الفواكه ؟ قال : كلها في إقبالها ، وحين أوانها ، واتركها إذا أدبرت وولت ، وانقضى زمانها . قال : فما تقول في شرب الماء ؟ قال : هو حياة البدن ، وبه قوامه ، ينفع ما شرب منه بقدر ، وشربه بعد النوم ضرر ، أفضله وأرقه أصفاه . قال : أفتأمر بالحقنة ؟ قال : نعم ، قرأت في بعض كتب الحكماء ، أن الحقنة تنقي الجوف ، وتكسح الأدواء عنه ، وان الجهل كل الجهل ان ياكل الانسان ما عرف مضرّته ، ويؤثر شهوته على راحة بدنه ، قال : فما الحميه ؟ قال : الاقتصاد في كل شيء ، فان الأكل فوق المقدار ،يضيق على الروح ساحتها ، ويسدّ مسامها .

حتى القــرن السادس عشر ، وظلت الكتب العربية (المترجمة الى اللاتينية) هي أساس المعرفة الطبّية في جامعات أوربا •

أما طريقة الفحص الطبي عند الأطباء المسلمين، فقد ارتفعت الى أرقى أساليب الفحص الطبي الحديث ، فكان الطبيب يجسّ النبض ، ويحلّل البول ، ويتتبّع تاريخ المريض ، والعلل التي انتابته في حياته ، ويهتم بمعرفة الاصول الصحية بين أفراد أســرته ، وعاداته وطرائق معيشته ، ومناخ البلدة التي يقيم فيها ، ويفحص لون الجلد ، وملحمة العينين وحالة التنفس ، ودلالة ذلك الدقّة والعناية بالمرض ، ولهذا فقد برع الأطباء المسلمون في تشخيص الأمراض والتفريق بين المتشابه منها[1] •

وقد كان انتقال الطب الى أوربا في فترة مبكــرة ، حيث أنشئت مدارس للطب في كــل مــن : نابولي ، ومونبيليه ، وبولونيا ، واورليان ، واكسفورد ، وكمبردج ، وكلهــا تعتمد على المراجع العربية المترجمة الى اللاتينية ، كأساس لتدريس الطب •

ومن أهم الكتب التي ظلت عمدة للدراسة الطبية ، طيلة ستة قرون كتــاب « القانون في الطب » لـ « أبو علي الحسن بن عبد الله بن سينا » ، المولود عــام ٩٨٠ م ، في قرية (أفشنة) من قرى بخارى وتوفي عام ١٠٣٧ م •

طبع كتاب « القانون » أو ــ قواعد الطب ــ لابن سينا ، في روما عــام ١٥٩٣ م واتخذ هذا الأثر الطبي الشهير ، أساساً للدراسات الطبية ، في جامعات فرنسا وايطاليا ، خلال ستة قرون •

ويتألف هذا الكتاب من خمسة أجزاء اشتملت على : علم وظائف الأعضاء ، وعلم الصحة ، وعلم الأمراض ، وعلم المعالجة ، والمادة الطبية [2] •

ولابن سينا في (القانون) آراء صحيحة قيّمة ، وملاحظات على غــاية من

---

(١) فضل الحضارة العربية الاسلامية على العالم للاستاذ زكريا هاشم زكريا ص ٤٠٦ .

(٢) ويقصد بعلم المعالجه وصف العلاج وتركيبه ، كما يقصد بالمادة الطبيه ، الاشارة الى أعراض المرض وتشخيصه .

الأهمية ، فقد فرّق بين التهاب الحجاب الفاصل بين الرئتين ، وبين ذات الجنب ، وأشار الى عدوى السلّ الرئوي ، وقال بانتشار الأمراض المعدية بواسطة المـاء والتراب أيضاً ، وعرّف التهاب السحايا ، والالتهابات المختلفة في الصدر ، وخرّاج الكبـد ، ووصف اليرقان وصفاً واضحاً ، والسكتة الدماغية (موت الفجـأة) وعرف العقاقير التي تنشط القلب ، وتكلم عن الآلام العصبية .

وكانت له معـرفة بالطب النفساني (وقـد سبق العالم النمساوي الشهير ــ سيغموند فرويد ــ بالعلاج بطريقة التحليل النفسي) .

فقد دعي الى عيادة فتى مريض ، حار الأطباء في معرفة علّته (ويقال أن اسم البلد جرجان) . فأمر باستدعاء عريف (مختار) من عرفاء المدينة (خبير بأسماء الأمكنة) وتناول يد الفتى يجسّ نبضه ويرقب وجهـه ، وطلب الى العريف أن يسرد أسماء الأحياء ، في تلك الناحية ، ففعل ، حتى إذا ذكـر حيّاً منها ، ازداد نبض الفتى ، فسأل العريف أن يذكر بيوت ذلك الحيّ ، فازداد نبض ذلك الفتى ارتفاعاً ، عندما ذكر واحد من بيوت الحي ، فطلب ابن سينا الى العريف أن يعدّد أسماء بنات ذلك البيت ففعل ، وعند ذكر واحدة منهن ، كشف الطبيب النفساني علّة الفتى ، وقال لأهله : زوّجوه من هذه الفتاة ، فهي الدواء [1] .

---

(١) أثر عن ابن سينا ، أنه نظم الشعر ، وكان شعره من النوع (الطبي) أو (الفلسفي). أما في مجال الشعر الفلسفي ، فله وصف ، لاتصال النفس بالجسد ، بعد هبوطها من عالم الروح

الشرك الكثيف : هو القفص الجسدي ، الذي تعبق مطالبه المادية ، تحرر الروح وانطلاقها في رحاب الثقة والايمـان بالله .

وأعظم جرّاحي المسلمين هو (أبو القاسم القرطبي) (خلف بن العباس ــ الشهير بالزهراوي) .

وكان جرّاحاً بارعاً ، له كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » مؤلف من ثلاثة أقسام : قسم طبّي ، وقسم صيدلي ، وقسم جراحي ، ويذكر (الزهراوي) تعقيم الجراح وتطهيرها بالكيّ (بالنار) وبالقوابض (المواد المرّة ــ التي تقلّص الأجسام وتشدّها) وهــو يؤكد حاجة المشتغلين بالطب ، إلى تشريح الأجسام (ميّتة ــ وحيّة) .

ويقول العالم الفيزيولوجي الشهير (هالّر) مؤكداً : كانت كتب أبي القاسم

يشبه فيلسوفنا النفس في اصـالة صفائها (بالحمامة) في الأنس والوداعة ، والاطمئنان الى العدالة والسلم ، مقرون ذلك بالاباء والنفور من الظـلم ، ولا تزال (هـذه الحمامة ــ النفس في أصالة الصفاء) في حنين إلى تلك الأصالة (إذا ذكرت عهودا بالحمى ــ وعاد اليها الصفاء الفطري) .

ثم يتساءل (فيلسوفنا) في معرض اتصال النفس بالجسد ، عن سبب هذا الهبوط ....؟ انهـا الحكمة الإلهية التي حجبت عن الانسان : (ليدرك عدالة الله ــ لتجزى كل نفس بمـا تسعى) .
ليمرّ الانسان بتجـربة هـذا الصراع (بين واقعـه ومثله الأعلى) ....

- بين جاذبية الأرض (نزعات الفردية ، الأنانية المفرطة ، المصلحة الشخصية) .
- ... وجاذبية السماء (منطق الثقة والايمان بالله ــ منطق الحكمة والرحمة والعدالة) وما يـؤدي الى تزكية النفس وانطلاقها في رحاب رضوان الله ، تحررا من قيود الهـوى والانانية ...

وتكون النتيجة لهـذا الصراع (السعادة ــ سعادة الاطمئنان لعدالة الله) لمن اعتصم بحبـل الله ، وجاهـد نفسه وهواه ، والزم نفسه بمنهـاج الله ، تعظيماً لأمـر مولاه ... (أو الشقاء ــ شقاء الحرمان من عنـاية الله) لمن أعرض عن ذكـر الله وأهمل وصاياه ، وبقي على الغفلة والجهالة ، متبعاً لهواه .... وكمـا قـال تعـالى :

- « فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فان الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقـام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنـة هي المأوى » . سورة النازعات : الآيات : ٣٧ ــ ٣٨ .

اما شـعر ابن سينا (في مجـال الطب الوقائي) وحفظ الصحة ، فنقتطف منه الابيات التاليـة :

احفظ أخيّ وصيتي واعمـل بهـا	فالطبّ معقــود بنص كـلامي
لا تشـربنّ عقيب أكـل عـاجـلا	فتقـود نفسـك للأذى بزمـام
واجعـل طعـامك كل يـوم مـرّة	واحـذر طعامك قبـل هضم طعـام
واحفظ منيّك ما استطعت فانـه	مـاء الحيـاة يـراق في الارحـام
فكن الحريص عـلى العـدالة دائما	وعـلى البكـور ليقظـة ومنـام
إن السـعادة صحـة وصيانـه	فاحفـظ رعـاك الله نصـح إمـام

الزهراوي ، المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهــر من الجراحين ، بعــد القرن الرابع عشر ، وترانا مدينين لأبي القاسم ، بكثير من الآلات الجراحية ، التي تظهــر صورها في كتبه •

ووصف أبو القاسم عملية سحق الحصاة ، في المثانة ، (التي عدت اختراعــاً عصرياً على غــير حق) فأشار الى عملية الشقّ ، الى عين المكان الذي يشير اليه جرّاحونا في الوقت الحاضر •

وكتاب أبو القاسم في الجراحة ، طبع باللاتينية عام ١٤٩٧ م ، وحسبنا أن نعلم أن كتاب أبي القاسم الزهراوي الأندلسي ، المؤلف من واحد وعشرين جزءاً ، في الطب والجراحة ، قد اشتمل على أكثر من (مائتي شكل) للآلات والأدوات الجراحية ، التي كان العالم يستعملها في ممارسة أعماله الجراحية ، وكانت ترجمة هذا الكتاب ، مرجع الأطباء ، وهو أحــد الكتب السبعة ، التي قام عليها العلاج والصيدلة في أوربا ، وهــو أول من وفّق الى ربط الشرايين لمنع النزيف (على ما ورد في دائرة المعارف البريطانية) •

وكان أبو القاسم الزهراوي (الجراح) هــو أول من وضع أصول عــلم الجراحة ، حتى ساعدت مؤلفاته الجراحية على وضع حجــر الأساس للجراحة في أوربا ، وذاعت شهرة (الفصل الثلاثين) من كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» المنوه عنه آنفاً ، (وهو الفصل الخاص بالجراحة) ، في جيمع أنحــاء أوربا • يقول العــالم الكبير (هالّر) :

ان كتب أبي القاسم الزهراوي الأندلسي ، كانت المصدر المشترك الذي نهل منه ، وانكبّ عليه ، جميع الجراحين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر ، ولقد طبعت أول مرة ترجمة لاتينية لكتاب أبي القاسم عــام ١٤٩٧ م أما آخر طبعة ، فكانت عــام ١٨٦١ م •

ونلاحظ بوضوح ، أن كتاب الزهراوي هذا ، في الجراحة ، يعادل (في مجال الدراسات الطبية) في الاهتمام، كتاب (القانون)لابن سينا،الذي أشير اليه آنفاً•

وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، المولود في بلدة (الريّ) من أعمال فارس (جنوبي طهران) عام ٨٥٤ م والمتوفى في بغداد عام ١٩٣٢ م والذي نعتوه بـ (جالينوس العرب) ، كان مديراً لأطباء مستشفى (الريّ) ثم مدير المستشفى في (بغداد) لبراعته في الطب ، وتنسب اليه أيضاً خياطة الجروح الباطنية بأوتار العود ، وقد ألّف كتباً عديدة كانت محوراً في دراسة الطب بالمعاهد والجامعات الأوربية ، فترة طويلة من الزمان ، وأهمها (الحاوي) ويعتبر من أوسع دوائر المعارف في الطب والجراحة •

تكلم (الرازي) في هذا الكتاب عن أمراض الرأس (السكتة ، الفالج ، أمراض العصب واسترخائه وعن الصرع والتشنّج والكزاز) ثم عن أعراض كل مرض ، ويصف العلاج الموافق له ، ثم يؤكد تشخيصه وصحة مداواته بأمثلة كثيرة من تجاربه •

وكتابه في الجدري والحصبة ، يعتبر مضمونه في مقدمة الاكتشافات ، فقد سبق غيره من الأطباء في وصف هذين المرضين ، وطبعت مقالة الرازي،عن الجدري أربعين طبعة باللغة الانكليزية وحدها ، ما بين عام ١٠٧٨ ــ ١٨٦٦ م ، وهذه المقالة استنار بها جميع الأطباء ، في جميع الأمم •

وكان (الرازي) أيضاً أول طبيب لاحظ (تجاوب بؤبؤ العين ــ مع النور ــ ضيقاً واتساعاً) • وسجل ملاحظته هذه ، وكان يدعو الى معالجة الحمّى الناشئة عن الالتهابات ، بكمدات الماء البارد ، ويحثّ على معالجة الحمّى على أساس مسبباتها •

وقد اعترف بفضله الغربيون ، وعلماء أمريكا وجامعاتها ، ومما يدل على تقديرهم للطب العربي ورجاله ، اهتمام (جامعة برنستون) الأمريكية بالحضارة الاسلامية ، فقد خصصت أفخم ناحية في أجمل أبنيتها ، لمآثر علم من أعلام الحضارة الخالدين (الرازي) ، كما أنشأت داراً لتدريس العلوم العربية ، والبحث عن المخطوطات واخراجها ، ونقلها الى الانكليزية ، ليتمكّن العالم من الوقوف على آثار التراث الاسلامي ، في تقدم الطب وازدهار العمران •

لقد ألّف (الرازي) كتباً قيّمة جداً في الطب (كما ذكرنا) وقد أحدث بعضها أثراً كبيراً في تقدمه ، وفي طريق المداواة ، وقد امتازت (بما تجمعه من علوم اليونان والهند) إلى آرائه وبحوثه المبتكرة ، وملاحظات تدل على النضج والنبوغ ، كما تمتاز بالأمانة العلمية ، إذ نسب كل شيء نقله الى قائله وأرجعه الى مصدره .

لقد سلك الرازي في تجاربه (كما يتجلى من كتبه) مسلكاً علمياً خالصاً ، وهذا ما جعل لبحوثه في الكيمياء قيمة ، دفعت الباحثين الى القول : « إن الرازي مؤسس الكيمياء الحديثة في الشرق والغرب معاً » .

والرازي من أوائل الذين طبقوا معلوماتهم على الطب ، ومن الذين ينسبون الشفاء الى إثارة تفاعل كيماوي في الجسم (في جسم المريض) ، ويتجلى فضل الرازي على الكيمياء بصورة واضحة في تقسيمه المواد الكيماوية المعروفة في زمانه إلى أربعة أقسام أساسية وهي :

المواد المعدنية ● المواد النباتية ● المواد الحيوانية ● المواد المشتقّة .

ثم قسّم المعدنيات لكثرتها ، واختلاف خواصها الى ست طوائف ، ولا يخفى ما في هذا التقسيم من بحث وتجربة ، وهو يدل على إلمام تام بخواص هذه المواد ، وتفاعلاتها بعضها مع بعض .

وكان ابن النفيس[1] هو أول من وصف (الدورة الدموية) قبل أن يكتشفها

---

(١) ابن النفيس هو العلامة العربي ـ علي بن أبي الحزم القرشي ، ولد عام ١٢١٠م وتوفي ١٢٨٨ م وهو أحد أطباء دمشق المشهورين ، كان إماماً في علم الطب ، ولكتابه (شرح تشريح القانون) اهمية قصوى ، لأنه في وصفه للرئة سبق غيره ، في اكتشاف الدورة الدموية (الرئوية) الصغرى ووصفها وصفا علميا دقيقا . والدورة الدموية الصغرى ، هي دورة الدم في الرئتين ، ويبلغهما الدم بواسطة الشريان الرئوي ، مدفوعا من (بطين القلب الايمن) فينتقي فيهما ، باخذه الاوكسجين ، ثم يعود (بالأوردة الرئوية) إلى البطين الأيسر من القلب ، منمماً بذلك دورة نعتوها (بالصغرى) تمييزا لها عن الدورة الكبرى ، وهي دورة الدم في كافه انحاء الجسم .

أما أول من اكتشف الدورة الدموية الكبرى فهو (وليم هارفي) وهو عالم فسلولوجي انكلبزي ، ١٥٧٨ ـ ١٦٥٧ م درس في كبمردح ، وجامعة بادوا ، مارس الطب في لندن ، ووضع نظريته عام ١٦١٦ م ، أعان (هارفي) في اكتشافاته الطبية فيما بعد .

« سرفينوس » البرتغالي بثلاثمائة عام ، وهو الذي أجرى التجارب والاختبارات ، وأثبت أن الدم ليس سائلا • مستقراً في الأورد والشرايين ، بل هو سائل متحرك يدور في جميع أنحـاء الجسم •

يقول عنه الاستاذ (جورج سارتون) أنه أول من اكتشف الدورة الدموية ، فهو بذلك الرائد للطبيب الانكليزي (وليام هارفي) الذي ينسب اليه اكتشاف الدورة الدمـوية •

بنـاء المستشفيات :

أول المستشفيات في الاسلام بناه الوليد بن عبد الملك (٧٠٦ م) في دمشق وجعـل فيه الأطبـاء •

وفي أيام الخلافة العباسية ، كثرت المستشفيات ، في بغـداد ، وفي الأمصار ، فممن بنى المستشفيات هارون الرشيد ، والمعتضد ، والمقتدر العباسـي ، ثم معز الدولة بن بويه ، وأخوه عضد الدولة •

ونالت مصر في بناء المستشفيات عنـاية كبيرة : بنى الأمويون مستشفى في الفسطاس (مصر القـديمة) ثم بنى (الفتح بن خاقان) (الوزير لدى الخليفة المتوكل العباسي) مستشفى الفسطاس أيضا ، ثم بنى أحمـد بن طولون فيهـا (المستشفى الأعلى) ، كما بنى كافور الأخشيدي المستشفى الأسفل •

وقـد بنى صـلاح الدين الأيوبي (المستشفى الناصري) في القاهـرة ، وبيمارستان الاسكندرية ، كما بنى نور الدين بن محمـود الزنكي ، المستشفى النوري الكبـير في دمشق (١) •

---

(١) يصف الرحـالة المعروف (ابن جبير) المستشفى الذي بنـاه صلاح الدين الايوبي ، وما رآه فيه أثنـاء زيارته (القاهـرة) سنة ٥٧٨هـ كمـا يلي :

رأينـا من أعمال هـذا السلطان المجيدة ، المستشفى في القاهرة ، وهو قصر رحب جميل ، ومدير المستشفى مـدير مقتدر عنده كل أنـواع الادوية والجرعات ، ويلي المـدير امنـاء يسهرون على راحـة المرضى ليلا ونهارا ، ويعطونهم الغـذاء والجرعات الموافقة ، وللنساء رواق خاص ، وتعنني بهن ممرضات ويعـرف السلطان أحـوال المستشفى ، فهـو دائم السؤال عنه ، والبحث فيه يشدد في توفـير العنـاية التـامة الدائمـة للمرضى •

الصيدلة (علم الأدوية) عند العرب :

كان العرب قد جعلوا مهنة الصيدلة منفصلة عن الطب ، في بغداد ومصر والأندلس ، وفي كلية طب سالرنو وهي الاولى في أوربا اللاتينية ، لتدريس الطب والصيدلة ، بالعربية واللاتينية ، وبقيت نحو تسعمائة عام ، الى أن أصدر نابليون عام ١٨١١ ، قانوناً لتنظيم كلية الطب في سالرنو .

وظهرت الصيدلة كمهنة منفصلة عن الطب لأول مرة ، في أواخر القرن الحادي عشر عندما أمر الامبراطور « فريدريك الثاني » بألمانيا ، بعدم ممارسة الطب أو الصيدلة إلا باذن خاص . وفتح فريدريك أبواب مملكته للعلماء العرب ، ودعا الكثير منهم ، ومن غيرهم من علماء أوربا والشرق ، لتدريس العلوم الطبية ، في كلية طب سالرنو ، وجامعة نابولي التي أنشأها .

ومن الكتب التي كان على الصيادلة دراستها (في سالرنو) دستور طبي للصيادلة ، به الطرق التي يجب اتباعها في تحضير العقاقير ، وذكر فيه طريقة استعمال الاسفنجة للتخدير (وهي مزيج من خلاصة الأفيون والبنج واليبروح ، ونباتات أخرى ذات تأثير مخدر) تجمع وتجفف في الشمس ، ثم تنقع في ماء

وقد تفنن أطباء العرب في اساليب معالجة المرضى ، حتى اهتدوا الى المعالجة بالموسيقى ، لقد كانت الاجواء الموسيقية في (بيمارستان ــ فاس) تروح عن المرضى ، وتسليهم عن آلامهم (ومعنى كلمة بيمارستان ــ بيت المريض) وكذلك الامر في (بيمارستان ــ النوري بدمشق) ، فقد كانوا يجلبون القصاص (وهو الذي يتحدث بالقصص والحكايات) الى قاعات المرضى فيه .

وكانوا يجعلون لمن يخرج من المشافي من المرضى عند برئه ، كسوة ، ومن مات ، جهز وكفن ودفن . ورتب في المستشفى مختلف الاطباء (الجراحون ، المجبرون ، الكحالون ، اطباء العيون) كما رتب الفراشون (الآذنون والمستخدمون) والفرّاشات ، لخدمة المرضى واصلاح اماكنهم وغسل ثيابهم ... وافرد لكل طائفة من المرضى امكنة تختص بهم ، فجعلت قاعة للرمد (أمراض العيون) وقاعة للجرحى ، وقاعه للنساء ، ورتب فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء لالقاء دروس في الطب ينتفع بها الطلبة . وقد جعل السلطان (المارستان) سبيلا لكل من يصل اليه ، في سائر الأوقات ، من غني أو فقير .

ولم يقتصر أيضاً فيه على من يقيم به من المرضى ، بل رتب لمن يطلب ـ وهو في منزله ـ مايحتاج اليه ، من الاشربة والاغذية والادوية .

ورتب على ذلك كله الاطباء الماهرين ، والشهود المبرزين ، والنظار العارفين ، لكل من هو في معالجته موثوق بعداله ، مسلم له في معرفته ، غير مقصر في تصرفه وخدمته .

ساخن ، وعند الاستعمال (تملأ الاسفنجة من السائل) ويقطر المحلول في فتحتي أنف المريض •

ويعتبر هـذا أول استعمال للتخدير ، في الجراحات والآلام المرضية •

وظهـرت الصيدلة كمهنة منفصلة عـن الطب ، وفتحت صيدليات تحضر (التذاكر) الوصفات الطبية ، ويقسم الصيادلة اليمين ، على أن يكونوا أمنـاء في تحضير العقاقير بدقـة •

وحـدّدت الدولة أثمان العقاقير ، ووضعت رقـابة شـديدة ، فإذا خالف (الصيدلي) أو (الرقيب) الذي يقوم بالتفتيش عليه ، تلك القوانين ، وارتكب أي غش في أنواع العقاقير ، عوقب بعقوبات قاسية ، قد تصل الى الاعدام ، وذلك لحمـاية الشعب •

والعـرب هم الذين وضعوا أسس صناعة (الصيدلة) ، فكانوا يجلبون العقاقير من الهنـد ، ومن غيرها ، ثم راحوا يصنعون مختلف العقاقير ، ويعالجون بهـا المرضى ، ويدرسونها ويؤلفون الكتب فيها •

ولم يقف تنظيم الطب والصيدلة عند العرب الى هذا الحد ، فقد فرضوا على الأطباء أن يكتبوا ما يصفوا للمريض من أدوية على ورقـة خاصة ، كانت تسمى بأسماء مختلفة : التذكرة ، الصفة ، النسخة ، وسميت أخيراً (الوصفة الطبّـية) •

وقد أراد (مجمع الصيدلة في انكلترا) أن يختار أعظم اثنين ، تدين لهمـا علوم الصيدلة بالفضل ، فوقع اختياره على (جالت) اليوناني ، و (ابن سينا) الطبيب العالمي الشهير •• وهذا الاقرار بفضل العرب والمسلمين أدلى به :

- السير هيولنستن (رئيس الاتحاد الدولي للصيدلة) في المؤتمر الصيدلي العربي الذي أقيم في القاهرة عـام ١٩٦٢ م •
- والدكتورة شوارتزهب (وزيرة الصحة بجمهورية ألمانيـا الاتحادية) في افتتاح المؤتمر الدولي ـ للبلهارسيا ـ بالقاهرة، حيث شهدت بذلك في قولها :

« ان الغرب لن ينسى أبداً أنه مدين للعرب بدراسة الطب ، وان مؤلفات ابن

سينا ، والزهراوي ، والرازي ، كانت هي الكتب الوحيدة التي تدرّس في جامعة (بالرمو) التي تضم أشهر مدرسة للطب في العالم الغربي ، وكانت هذه الكتب ، قد ترجمت إلى اللغـة اللاتينية .

ويشهد بذلك (الدكتور غريسيب) مدير جامعة برلين ، ورئيس فرع الطب فيها حيث قال في حفل (أقامه الطلاب المسلمون ـ بمناسبة الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف) :

« أيهـا الطلاب المسلمون ، والآن قـد انعكس الأمـر ، فنحن الأوربيين يجب أن نؤدي ما علينـا تجاهكم ، فما هـذه العـلوم الا امتداداً لعلوم آبائكم ، وشـرحاً لمعارفهم ونظرياتهم ، فلا تنسوا أيهـا الطلبة تاريخكم وعليـكم بالعمـل المتواصـل لتعيـدوا مجـدكم الغـابر ، طالمـا أن كتابكم المقدس عنوان نهضتكم ، ما زال موجوداً بينكم وتعـاليم نبيكم محفوظة عنـدكم ، فارجعـوا الى الماضي لتؤسسوا للمستقبل ، ففي قرآنكم عـلم وثقـافة ، ونور معرفة ، وسـلام عليكم يا طلابنا إن كنـا في الماضي طـلابكم » .

وكان العرب يخصّصون قسماً خاصاً من المستشفيات التي أسسوها ـ منذ أيام الوليد بن عبد الملك ـ لتدريس علوم الطب والصيدلة ، وأعدّ جـزء خاص للصيدليات وتحضير العقاقير وصرفها للمرضى .

وللعرب فضل كبير على فن الصيدلة ، ولعلهم أول من اعترف بالصيدلة كمهنة وعـلم مستقل بذاته ، وعرّفوا الصيدلة بأنها :

« العلم الباحث عن التمييز بين النباتات المتشابهة في الشكل ، ومعرفة منابتها (صينيّة أو هندية ، أو فارسية أو مصرية) ومعرفـة زمانهـا (بأنها صيفيّة أو شتوية أو ربيعيّة) ومعرفـة جيّدها من رديئها ، ومعرفة خواصّها .... الى غير ذلك » .

وعرضه وفائدته ظاهران ، والفرق بين علم الصيدلة وعلم النبات ، أن الأول (بالعمل أشبه) والثاني (بالعلم أشبه) وكل منهما مشترك بالآخر .

وكان الصيادلة لا يمارسون عمـلا في المستشفيات إلا إذا كان معروفاً عنهم الأمانة والكفاءة ، ويعطون التراخيص ، بعد تقييد أسمائهم في سجل خاص بهم ، كما كان لكل صيدلية (أمين) يتسلّم ما بها ويحافظ عليه •

وقـد ترك لنا عـدد من أطبـاء العرب وصيادلتهم ، والدارسين للنباتات والأعشاب الطبية ، والعقاقير (على سائر أنواعها) كتباً ، تقـدم صوراً واضحة ، لما كان عليه العلاج بالعقاقير والأعشاب والطرق الطبية الشائعة الاستعمال ، توضح لنا مهنتي الطب والصيدلة ، حتى أواخر القـرن الماضي •

ورسموا لنا صوراً لصيدلياتهم العربية الخاصة في عواصم حضارتهم ، وقد ارتدى الصيدلاني ثياباً بيضاء ، ووقف بباب صيدليته يصرف الدواء ، ومن ورائه (الأرفف) الممتلئة بالأوعية والقوارير •

وكانوا يستخرجون السكر من قصب السكر ، ويصنعون منـه الشراب ، كما أنهم كانوا ذوي خبرة في استعمال أمـلاح معدنية كثـيرة ، كأملاح الزئبق والرصاص والحديد والصودا والبوتاس ، كما أنهم كانوا يحضّرون في الجـزء الخاص بالمعمل (من الصيدلية) الزيوت العطرية والكحول •

وقد خلّف لنا العرب الكثـير من كتب الصيدلة مثـل :

تذكـرة ابن داود : وهـو كتاب ضخم معروف ، لـدى محبّي البحث في العقاقير العربية القديمة ، كما أنه كان من مراجع الصيادلة في القـرون الماضية ، ويشمل عقاقير وأعشاباً ، ووصفات طبيّة ، مرتبة حسب الحروف الهجائية ، ولابن داود ، كتب أخرى غير (تذكرة أولي الألباب) المنوه عنها آنفاً ، منهـا كتـاب « البهجة والدرّة المنتخبة فيما صحّ من الأدوية المجرّبة » و « غـاية المرام في إصلاح الأبدان » •

وفجأة ، وفي عـام ١٩٦٤ م بدأ العلماء في أوربا وأمريكا ، يعيدون قـراءة (تذكرة أولي الألباب) في محاولة للكشف عن أدوية جديدة للأمراض ، ويبدو أن (ابن داود) كان صادقاً فيما كتبه، وذلك ان شركات الأدوية (في ألمانيا والدانمرك،

وهولندا وايطاليا وأمريكا) طلبت شراء بعض النباتات التي وردت (في كتاب التذكرة المنوه عنه) بما قيمته مليون جنيه مصري ، ومنها ورق السكران ، لاعداد البنج الموضعي و (بذر الخلّة) الخاص بأدوية القلب ، وبذور البقدونس وورق البرفوف (لعلاج احتباس البول) كما أشير الى أن (شرش الوردينيا) مفيد في النزيف الدموي .

ومن كتب الطب الشعبي المشهورة أيضاً كتاب « منهاج الدكان ودستور الأعيان » لأبي المنى ــ داود بن أبي النصر ، من علماء القرن السابع الهجري .

وفي الفصل الأول منه (نصائح قيّمة) لمن استصلح نفسه ، في أن يكون مقلّداً لعمل هذه (المركّبات) كأن يكون على غاية من الدين والثقة ، والتحرّز والخوف من الله أولاً ومن الناس ثانياً حيث يقول :

اعلم وفقك الله لطاعته وأرشدك الى مرضاته ، أن الله خلق للانسان عقلا ، وجعله كالسراج يفرق بين الخير والشر ، والحسن والقبيح ، وجعله مخيّراً في ذلك ، وان المبدأ منه تعالى ، فاذا أراد الله بالانسان خيراً ، أجرى الخير على يديه ، فأعانه على فعله (ويسر له أسبابه) ، وإذا كان غير مستحق لذلك، تخلت عنه العناية الإلهية ، ففعل الشرور وقوبل عليها في الدنيا والآخرة (لأن الجزاء في شريعة الله من جنس العمل) .

والآن ــ فاحرص يا أخي أن تكون في نفسك أولا تقوى الله تعالى (تعظيم أمره) والخوف والاجلال لعدالته ، خوف محبة في ذاته ، لا خوف عقابه ، فان أجرك يكون عظيما ، ويكون جانبك من الناس سليما ، واعلم بأنه لا ذنب أعظم من ظلم الناس ، وأخذ أموالهم بغير حق ، لا سيما من كان ضعيفاً أو مسكيناً ، كمثل مريض قد أشرفت نفسه على الهلاك ، فيستدعي طبيباً حاذقاً ، فيكتب له ورقة تطمئن بها جوارحه ، على أنها يكون بها برؤه ، مع عناية الله تعالى واذنه ، واتكل فيها على الصيدلاني ، فقد رجع الأمر اليك ، فلا إثم إن فرّطت الا عليك ، فهل تستحسن أنت لو كنت مريضاً أن تفرط في حقك ، وأنت تعلم هذا التفريط

مؤدٍ الى إتلاف المال والروح ، وأنت تعلم قدر العقاب من الله تعالى على هذين الذنبين ، وفي هذا القدر من التنبيه (على ماينبغي) كفاية ، لمن كان ذا بصيرة ولبّ نيّر فتذكره ــ يا أخي ــ كل يوم وعشاء ، واحفظه ولا تنسه ، والله الموفق .

وكتاب شعبي ثالث اسمه (الرحمة في الطب والحكمة) وجاء فيه وصف الأعشاب والتركيبات واستعمالاتها وعلاج الأمراض ، مثل : داء الثعلبة في الشعر ، والبهاق وأوجاع الظهر والمفاصل ، وضيق النفس ، وعلاج الحروق من النار ، أو الشمس ، وعلل الكبد والطحال ، وطرق الفصد والحجامة ، وحصى المثانة ، والبول الدموي ، وعلاج البواسير .

وقد استنبط المسلمون العلاج ، فأنشأوا الصيدليات ، ويقال أنهم أول من أسّس مدرسة للصيدلة ، كما كان لهم قصب السبق في عدة تراكيب كيماوية ، كالكحول ، وماء الفضة ، والحامض النتري ، وزيت الزاج (الحامض الكبريتي) واخترعوا أصول التقطر ، وطبّقوا الكيمياء على الصيدلة والصناعة .

وقد كانت الصيدلة مهنة مستقلة ، لها أصولها وتقاليدها ، ولم يكن في مقدور الصيدلي أن يعمل إلا بعد اجتيازه امتحاناً ، ثم يقيد اسمه بالجدول الخاص بالصيادلة ، مع حصوله على ترخيص بالعمل .

وبلغ العلماء المسلمون في هذا المجال أيضاً منزلة كريمة ، وما زالت تآليفهم الكيماوية تشهد بذلك ، أما المؤلفات الكيماوية الأوربية ، فانها تشيد بفضل المسلمين ، ولا يزال كثير من المصطلحات الكيماوية الأوربية ، يحمل الاسم العربي .

وقد طبّقوا الكيمياء على الصيدلة والصناعة ، ولا سيما استخراج المعادن ، وصنع الفولاذ ، والدباغة ، كما اهتدوا الى صنع البارود والأسلحة النارية ، وصنعوا الورق من الأسمال القطنية الصعبة الكثيرة التراكيب .

يقول الاستاذ (ميبرهوف) :

«ان علم الصيدلة العربي استمر في أوربا حتى منتصف القرن التاسع عشر» .

وكان جابر بن حيان (المولود في طوس سنة ٧٣٧ م ـ والمتوفى حوالي سنة ٨١٣ م) أول من استحضر الحامض الكبريتي ، بتقطيره من الشبّة ، وسماه : (زيت الزّاج) كما أنه أول من كشف الصودا الكاوية وأول من استحضر ماء الذهب ، وأول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة ، بالحلّ بواسطة الحامض، ولا تزال هذه الطريقة تستخدم حتى الآن ، في تقدير عيارات الذهب في السبائك الذهبية وغيرها •

وهو أول من لاحظ ما يحدث من رواسب « كلورور الفضة » عند إضافة محلول ملح الطعام الى نترات الفضة ، وينسب اليه استحضار مركبات أخرى ، غير التي مرّت ، ككربونات البوتاسيوم ، وكربونات الصوديوم ، واستعمل ثاني أوكسيد المنغنيز في صناعة الزجاج ، ودرس خصائص ومركبات الزئبق واستحضرها ، وقد استعمل بعضها فيما بعد ، في تحضير الاوكسجين ، ولا يخفى أن جميع هذه المركبات ذات أهمية عظمى في عالم الصناعة ، فبعضها يستعمل في صنع المفرقعات، وبعضها الآخر في السماد الصناعي،والصابون، والحرير الصناعي•

وبحث (جابر) في السموم ، وله فيها كتاب : (السموم ودفع مضارّها) ، ولعل من أروع ما كتب في هذا الموضوع ، وهو من أندر المؤلفات ، ابتاعه (قبل ثلاثين عاماً) أحمد باشا تيمور ، وكتب عنه بشيء من التفصيل •

وقد سار (جابر) في معالجة بحوث الكتاب على طريقة علمية ، لا تختلف في جوهرها ، عما هو جار الآن ، فأتى فيه على أسرار وأقوال فلاسفة اليونان ، في السموم وأفعالها ، كما ضمّنه آراء جديدة ، وتقسيمات ، لأنواع السموم وأدويتها ، وتأثيرها وأفعالها في أجسام الحيوانات ، مما لم يصل غيره إليه •

ولهذا الكتاب أهمية كبرى عند علماء تاريخ العلوم ، وذلك لما له من وثيق العلاقة بالطب والكيمياء ، وسنأتي على شيء من أقسامه ومحتوياته ، وهو يبتدىء كما يلي :

« **بسم الله الرحمن الرحيم ـ قال أبو موسى جابر بن حيان ـ :** قد ارتسمت

ـ أطال الله بقاءك ـ ما أمرت به ، وأحدثت من الشرح ، ما علمت أنك من الفهم بحسبه ، وانتهيت الى إرادتك ، وأتيت على حاجتك ، وأرجو أن تبلغ به رغبتك وتنال به بغيتك ، وتكون به راضياً ، ولأدلك كافياً » ••••

قال بعضهم : ان السمّ جسم كوني ذو طبائع غالبة ، مفسدة لمزاج أبدان الحيوان •••• وقال آخر : إنه مزاج طبائع غالبة ، لدواب الحيوان بذاته ، وقال بعضهم : بأنه مزاج قوّة ، مزاج غالب ، مفسد ومصلح •••

فهذه آراء الناس في حدّه (أي في تعريفه) ، فأما غرضنا في هذا الكتاب ، فهو الإبانة ، عن أسماء أنواع السموم ، وكذا أفعالها ، وكميّة ما يسقى منها ، ومعرفة الجيد من الرّديء ، ومنازل صورها ، والأعضاء المخصوصة المقابلة لجوهريّة خواصها ، وأذكر مع ذلك ، السمّ الذي يكون نافذاً بفعله في سائر البدن والمهلك بجملته •

وينقسم الكتاب الى فصول خمسة :

الأول : في أوضاع القوى الأربع ، وحالها مع الأدوية المسهلة ، والسموم القاتلة ، وحال تغيّر الطبائع ، والكيموسات المركبة •

الثاني : في أسماء السموم ، ومعرفة الجيد من الرّديء ، وكمية ما يسقى من كل واحد منها ، وكيف يسقى ، ووجه ايصالها الى الأبدان •

الثالث : في ذكر السموم العامة الفعل في سائر الأبدان ، والتي تخص بعض أبدان الحيوان دون البعض ، والتي تخص بعض الأعضاء من أبدان الحيوان دون بعض •

الرابع : في علامات السموم المسقاة ، والحوادث العارضة منها في الأبدان ، والانذار فيها بالخلاص ، والمبادرة الى علاجه •

الخامس : في ذكر السموم المركّبة ، وذكر الحوادث الحادثة منها •

السادس : في الاحتراس من السّموم قبل أخذها ، فاذا أخذت لم تكد تضرّ ، وذكر الأدوية النافعة من السموم إذا شربت من قبل ، بعدم الاحتراس منها •

ويتبين من الكتاب أن (جابراً) قسّم السموم الى : **حيوانية** ، **ونباتية** ، **وحجرية** ، وذكر **من السموم الحيوانية :** مرارة الأفاعي ، ومرارة النمر ، ولسان السلحفاة ، الأرنب البحري ، والعقارب ••••

ومن السموم النباتية : قرون السنبل ، والأفيون ، والشيلم ، والحنظل ، والشوكران •••

ومن السموم الحجرية : الزئبق ، والزرنيخ ، والزجاج ، وبرادة الحديد ، وبرادة الذهب ••• وقد أسهب في وصف كل هذه السموم ، وأتى على عملها وأثرها في أجسام الحيوانات •

ويمتاز (جابر) عن غيره من العلماء ، بكونه في مقدمة الذين عملوا التجارب ، على أساس علمي ، هو الأساس الذي نسير عليه الآن ، في المعامل والمختبرات •

لقد دعا (جابر) الى الاهتمام بالتجربة ، وحثّ على إجرائها ، مع دقّة الملاحظة ، كما دعا إلى التأنّي وترك العجلة ، وقال : ان واجب المشتغل بالكيمياء ، هو العمل وإجراء التجربة ، وان المعرفة لا تحصل إلا بها ، وطلب من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية ، أن لا يحاولوا عمل شيء مستحيل أو عديم النفع ، وعليهم أن يعرفوا السبب في إجراء كل عملية ، وأن يفهموا التعليمات جيداً « لأن لكل صنعة أساليبها الفنيّة » على حدّ قوله ، وطالبهم بالصبر والمثابرة والتأنّي باستنباط النتائج ، واقتفاء أثر الطبيعة ، فيما تريده من كل شيء طبيعي ، وفوق ذلك ، طالب المشتغل بالكيمياء ، أن يكون له أصدقاء مخلصون ، يركن إليهم ، يحملون مزاياه وصفاته ، من صبر ومثابرة وشدّة ملاحظة ، وعدم الوقوف عند الظواهر ، ولهذا لا عجب ، إذا كان قد وفّق في الكثير من العمليات : كالتبخير ، والتقطير ، والتكليس ، والإذابة ، والتبلور ، والتصعيد ، وغيرها من العمليات الهامة في الكيمياء ، فوصفها وصفاً هو في غاية من الدقّة وبيّن الغرض من إجراء كل منها •

وضع (جابر) عدداً كبيراً من المؤلفات والرسائل ، وردت في كتاب « الفهرست » لابن النديم ، ومن كتبه التي ترجمت الى اللاتينية « كتاب الجمع »

و « كتاب الاستتمام » و « كتاب الاستيفاء » و « كتاب التكليس » .

ولقد تركت هذه الكتب الأربعة وغيرها ، أبلغ الأثر عند العلماء والفلاسفة ، حتى أن بعضهم رأى فيها من المعلومات : « ما هو أرقى ما يمكن تصوّره صادراً عن شخص عاش في القرن التاسع للميلاد » ، مما يدلّ على قيمة هذه الكتب ونفاستها ، من الناحية العلمية والكيماوية .

هذا بعض ما قام به (جابر) في العلم ، ولا شك أنه بهذه الإضافات ، والطريقة العلمية التي سار عليها في بحوثه وتجاربه ، قد أحدث أثراً بعيداً في تقدم العلوم ، وخاصة الكيمياء ، فأصبح بذلك أحد أعلام العرب ، ومن مفاخر الانسانية ، إذ استطاع أن ينتج ، وأن يبدع في الانتاج ، مما جعل علماء أوربا يعترفون له بالفضل والسبق والنبوغ .

★ ★ ★

الفصل الخامس

العلوم الرياضية والطبيعية
عند العرب

الحساب - الجبر - الهندسة - العلوم - البصريات

لم تقتصر الثقافة الاسلامية على الجوانب النظرية (كعلوم الدين والأدب والفلسفة) وانما تناولت الجوانب العلمية التجريبية ، وأسهمت فيها إسهاماً كبيراً ، وأسدت للحضارة الانسانية فكراً علمياً ، وثروة من النظريات والآراء والأفكار ، اعترف بقيمتها المؤرخون ، وأشادوا بدورها الفعّال ، في تنمية الفكر العلمي ، الذي قاد المجتمع البشري الى حضارته الحالية •

أما علم (الرياضيات) فقد لقي اهتماماً خاصاً وكبيراً من العلماء المسلمين (من أمثال الخوارزمي والبتاني والبيروني) ويقول : (أ • دو هينولد) :

« يجب عدّ العرب مؤسّسين حقيقيّين للعلوم الطبيعية » •

وبالرغم من ضياع كثير من مؤلفات العلماء المسلمين ، في الفيزياء ، فان القسم الباقي منها ، أثار إعجاب العلماء الغربيّين ، وجعلهم يعترفون بأصالة الدور العلمي العظيم ، الذي ساهمت به الحضارة الاسلامية ، في العلوم الطبيعية والتجريبيّة •

ومن أشهر العلماء المسلمين الذي عرفوا في هذه العلوم « محمد بن الحسن ابن الهيثم » وقد كتب « ابن الهيثم » كتباً ، ومقالات متعددة ، شملت موضوعات متنوعة ، في الرياضيات ، والفلك والطبيعيات والبصريّات ، والجبر والهندسة ، إلا أن شهرته تقوم على الجهود التي بذلها والدراسات التي قدّمها عن « علم الضّوء » والمعروف بالبصريّات •

وقد اعتمد في هذه الدراسات على أسلوب علمي تجريبي ، واستطاع من خلاله ، أن يقدم دراسات قيّمة وهامة [1] .

- **الرياضيات عند العرب :**

عرّف العرب العلم الرياضي بأنه : **علم غرضه إدراك المقادير** ، وأطلقوه على الحساب ، والجبر والمقابلة ، والمثلثات ، والهندسة ، والفلك ....

- **العرب وعلم الحساب :**

عرفوه بأنه علم الأعداد ، واشتقّوا اسمه ، من كلمة الحساب المصدرية ، ومعناها العدد .

اطّلع العرب على حساب الهنود ، فأخذوا عنه (نظام الترقيم) ، وهذّبوه ، وكوّنوا منه سلسلتين :

- عرفت احداها بالأرقام الهندية ــ وهي التي تستعمل الآن ــ .
- وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية ــ جاءت تسميتها بالغبارية ــ لأن أهل الهند ، كانوا يأخذون غباراً لطيفاً ويبسطونه على لوح ، ويرسمون عليه الأرقام التي يحتاجون إليها في عملياتهم الحسابية ومعاملاتهم التجارية .

ولقد قسّم العرب (الحساب) إلى :

- **غباري :** وهو الذي يحتاج فيه الى استعمال أدوات : كالقلم والورق .
- **هوائي :** وهو الحساب الذهني ، الذي لا يحتاج فيه إلى أدوات .

استعمل العرب (الصفر) في الترقيم ، كما استعملوه في (المنازل الخالية من الأرقام) ، ووضعوا علامة الكسر العشري ، واستعملوا النظام العشري (أي القيم الوضعية للأرقام ــ الآحاد والعشرات والمئات) .

---

(١) اشاد الاسناد « الدومبلي » في كتابه (العلم عند العرب) بكتاب (المناظر) ـ لابن الهيثم ـ الذي ترك آثارا كبيره في البحوث التي قدمها عدد من العلماء الغربيين ، وقد ترجم هذا الكتاب الى اللاتينية مرات متعدده ، ينظر ص ٢٠٦ .

● العرب وعلم الجبر :

عرّف ـ الشيخ بدر الدين المارديني ـ الجبر ، في شرحه على (لامية ابن الهائم) بقوله :

« علم بأصول يتعرّف فيها على مقادير مجهولة : مسمّاة بأسماء خاصة ، ويتوصل به ، إلى استخراج كميّة المطلوب : من معلوم مفروض : بينهما صلة » .

وعرّفوه أيضاً : « علم من العلوم الرياضية ، تستخرج به المجهولات ، باستخدام حروف وأرقام وعلامات » .

اشتغل العرب بالجبر ، فجعلوه علما منظماً ، وهم أول من أطلق لفظة (الجبر) على العلم المعروف الآن بهذا الاسم ، وعنهم أخذ الافرنج لفظة (الجبر) . وكذلك هم أول من ألّف فيه بصورة علمية منظمة .

لقد وجد المأمون ، في أوائل القرن التاسع الميلادي ، ميل العلماء الى التوسع في الجبر ، فكلّف أحد الرياضيين المنتسين الى بلاطه ، وأعني به (محمد بن موسى الخوارزمي) ، أن يضع كتاباً في الجبر والمقابلة ، يكون سهل المنال ، لينهل منه علماء العرب ، وما كاد ينشر هذا الكتاب ، حتى استفاد منه علماء العرب ، وعلماء أوربا على السّواء ، واعتمدوا عليه في بحوثهم ، وأخذوا عنه كثيراً من النظريات .

وقد نشر الكتاب المذكور ، الدكتور علي مصطفى مشرفة (عميد كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول) ، والدكتور محمد موسى أحمد . عن مخطوط ، محفوظ في (اكسفورد) في مكتبة (بودلين) وعلّقا عليه .

ولقد سبق الغربيون العرب الى نشر هذا الكتاب . والتعليق عليه ، وكان ذلك عام ١٨٣١م .

ظهر الخوارزمي في عصر المأمون ، وكان ذا مقام كبير عنده . فأحاطه بضروب من الرعاية والعناية ، وولاّه منصب « بيت الحكمة » كما جعله على رأس بعثة علمية الى الأفغان ، بقصد البحث والتنقيب .

برز (الخوارزمي) في الرياضيات والفلك . وكان له أكبر الأثر في تقدمهما

وارتقائهما ، فهو أول من استعمل علم الجبر بشكل مستقل عن الحساب ، وفي قالب منطقي علمي ، كما أنه أول من استعمل كلمة (الجبر) للعلم المعروف بهذا الاسم ، ومن هنا أخذ الافرنج هذه الكلمة واستعملوها في لغاتهم ، وكفاه فخراً أنه أول من ألّف كتاباً في الجبر ، في علم يعد من أعظم أوضاع العقل البشري ، لما يتطلبه من دقّة وإحكام القياس .

ولهذا الكتاب قيمة تاريخية وعلمية ، فعليه اعتمد العلماء العرب في دراستهم عن الجبر ، ومنه عرف الغربيون هذا العلم .

وكذلك لهذا الكتاب شأن عظيم في عالم الفكر والارتقاء الرياضي ، ولا يخفى ما لهذا الفرع الجليل من أثر في الحضارة ، من ناحية الاكتشاف والاختراع ، يعتمدان الى حد كبير على المعادلات والنظريات الرياضية .

وفي هذا الكتاب الفريد ، أشار الخوارزمي في المقدمة الى الدوافع التي تدفع العلماء الى وضع الكتب ، وكان فيما ذهب اليه يخالف العادة المتبعة عند كثير من المؤلفين في عصره ، وما تلاه من العصور ، فقد كان مجدّداً في الفكرة التي أوردها وصاغها في عبارات بسيطة ، لا تكلّف فيها ، قال في بيان الدوافع :

« ولم يزل العلماء في الأزمنة الخالية والأمم الماضية ، يكتبون الكتب ، مما يضيفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة ، نظراً لمن بعدهم واحتساباً للأجر بقدر الطاقة ، ورجاء أن يلحقهم من أجر ذلك وذخره ، ويبقى لهم من لسان الصدق ما يصغر في جنبه كثير مما كانوا يتكلفونه من المؤونة ، ويحملونه على أنفسهم من المشقّة ، في كشف أسرار العلم وغامضه ، إما رجل سبق إلى ما لم يكن مستخرجاً قبله ، فورّثه من بعده ، وإما رجل شرح مما أبقى الأولون ، ما كان مستغلقاً فأوضح طريقه ، وسهّل مسلكه ، وقرّب مأخذه ، واما رجل وجد في بعض الكتب خللا ، فلمّ شعثه ، وأقام أزره ، وأحسن الظن بصاحبه ، غير رادّ عليه ، ولا مفتخر بذلك في فعل نفسه » .

وكذلك أشار في المقدمة ، الى أن الخليفة المأمون ، هو الذي طلب اليه وضع

الكتاب ، وهو الذي شجّعه على ذلك ، كما بيّن أيضاً شأن الكتاب ، والفوائد التي يجنيهـا الناس في معاملاتهم التجـارية ، وفي مسح الأراضي ، ومواريثهم ، ووصاياهم ويقول في هـذا كلّه :

« وقد شجّعنا ما فضّل الله به الامام « المأمون » أمير المؤمنين ، مع الخلافة التي حاز له إرثها ، وأكرمه بلباسها ، وحلاّه بزينتها من الرغبة في الأدب ، وتقريب أهـله وإدنائهم ، وبسط كفه لهم ومعونته إياهم على ايضاح ما كان مستبهماً ، وتسهيل ما كان مستوعراً » .

على أني ألّفت من كتـاب الجبر والمقابلة كتـاباً مختصراً ، حاصراً للطيف الحساب وجليله ، لما يلزم الناس من الحاجة اليه ، في مواريثهم ووصاياهم ، وفي مقاسمتهم ، وأحكامهم وتجاراتهم ، وفي جميع ما يتعاملون به بينهم ، من مساحة الأراضي ، وكري الأنهار ، والهندسة ، وغير ذلك من وجوهه وفنونه ، مقـدّماً حسن النيّة ، راجياً لأن ينزله أهـل الأدب ــ بفضل ما استودعوا من نعـم الله تعالى وجليل آلائه وجميل بلائه عندهم ــ منزلته ، وبالله توفيقي في هذا وفي غيره، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ولسنا بحاجة الى القول ، أن المجال لا يتسع (في هذا البحث) لشرح فصول كتاب الخوارزمي والتعليق عليه . ولكتاب الجبر هذا شأن تاريخي كبير ، إذ كل ما ألّفه العلماء والرياضيون فيما بعد ، كان مبنياً عليـه (تقريباً) فقد بقي عـدة قرون ، مصدراً اعتمد عليه علماء العرب في مختلف الأقطار ، في بحوثهم الرياضية ، كما أنه المنبع الذي استقى منه فحول علماء أوربا في القرون الوسطى .

وقد نقله الى اللاتينية (روبر اوف شستر) ، وكانت ترجمته أساساً لدراسة كبار العلماء ، أمثال : (ليونارد اوف بيزا) الذي اعترف بأنه مدين للعرب بمعلوماته الرياضية ، و (كراون) و (تارتا كليا) و (لوقا باصيولي) وغـيرهم .

ولا يخفى أنه على بحوث هؤلاء تقدمت الرياضيات ، وتوسعت موضوعات الجبر العـالي ، وقد نشر الكتاب (فريدريك روزن) كما نشر ترجمته في لندن

عـام ١٨٣١ م ٠

وفي سنة ١٩١٥ نشر (كاربنسكي) ترجمة للكتاب المذكور (عن ترجمة شستر) إلى اللاتينية ٠

ولهذا الكتاب شروح كثيرة ، ظهرت في العصور التي تلت عصر الخوارزمي ، لكبار رياضيي العرب وعلمائهم ، فقد اعتمدوا عليه ، وأخذوا عنه كثيراً ، ومنهم من استعمل نفس المعادلات التي وردت فيه في مؤلفاتهم ورسائلهم ٠

وإن من أكبر المآثر التي جـاد بها العرب على الحضارة ، نقلهم الحساب الهندي ، وتهذيبهم الأرقام الهندية المنتشرة في العالم ، ويعود الفضل في تنـاول الأرقام الى الخوارزمي وغيره من رياضيي العرب ، فلولا مؤلفاتهم في الحساب ، لما عرف الناس الأرقام وقدروا فوائدها ومزاياها ٠

ونرى إتماماً لموضوع الأرقام ، ولما لهـا من أهمية في تاريخ الحضارة ، أن نأتي على نبذة موجزة عن تاريخ الترقيم واستعمال الصفر ٠

ان النظـام الذي نتّبعه الآن في الترقيم مبني على أساس القيم الوضعية (آحاد ، عشرات ، مئات) وبوساطته يمكن ترقيم جميع الأعداد ، واجراء الأعمال الحسابية بسهولة كبـيرة ٠

ولقد بقيت الأمم في القرون الخالية (كالمصريين ، والبابليين ، وغـيرهم) محرومة من هذا النظام وكانوا يجدون صعوبة في إجراء الأعمال الحسابية ٠

ولما نهض العرب نهضتهم العلمية أيام العباسيين ، اقتبسوا فيما اقتبسوه من الهنود ، الأرقام الهندية ، وقد قدروا النظام الترقيمي عند الهنود ، ومن الغريب ، أن في بلاد الهند أشكالا متنوعة ومختلفة للأرقام ، ولكن العرب بعـد أن اطلعوا على هذه الأشكال ، كوّنوا منها ، سلسلتين عرفت احداها باسم «الأرقام الهندية» وعرفت الثانية باسم « الأرقام الغبارية » ٠

ففي بغداد والجانب الشرقي من العـالم الاسلامي ، عمّ استعمال الأولى

(أي الأرقام الهنـدية) وهي التي لا تزال شائعة ومستعملة في بلادنا ، وشـاع استعمال الثانية (أي الأرقام الغبارية) في القسم الغـربي من العـالم الاسلامي (في الأندلس وأفريقيا والمغرب الأقصى) وهـذه الأرقام هي المستعملة الآن في أوربا ، وهي المعروفة بالأرقام العربية .

ولم يفطن أحـد ـ قبل الهنود ـ لاستعمال الصفر ، في المنازل الخالية من الأرقام ، وقد أطلقوا عليه لفظة (سونيا) ومعناها (فراغ) واستعملوا النقطة (.) كعلامة للصفر ، وقد أخذها العرب عنهم ، واستعملوها في معاملاتهم ، ويقال أن الهنود لم يلبثوا أن عدلوا عن استعمال النقطة ، وأخذوا يكتبون الصفر بصورة دائرة (o) .

ونرجع الآن الى (الخوارزمي) فنقول إنه وضع كتاباً في الحساب كان الأول من نوعه ، من حيث (الترتيب ، والتبويب ، والمـادة) وقد نقـله الى اللاتينية (اولارد أوف بات) . وهذا الكتاب هو أول كتاب دخل أوربا ، وقد بقي زمنـاً طويلا ، مرجـع العلماء والتجار والحاسبين ، والمصدر الذي عليـه يعتمدون في بحوثهم الحسابية ، وقد يعجب القارىء إذا علم أن الحساب بقي عدة قرون معروفاً باسم (الغورتمي) نسبة الى الخوارزمي ، ومن هـذا الكتاب وغيره من الكتب العربية التي دخلت أوربا فيما بعد ، عرفت أوربا الأرقام العربية (الهندية) .

- **عـلم الهندسة :**

قال ابن خلدون (في المقدمة) : واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله ، واستقامة في فكره ، لأن براهينها كلها بيّـنة الانتظام ، جليّـة الترتيب .

ومن فروع الهندسة ، المساحة ، وهـو فن تحتـاج اليه في مسح الأرض (قياسها) ويحتاج اليه في توظيف الخراج (توزيع الضرائب) على المزارع والفدن وبساتين الغراسة ...

- **العـرب والهندسة :**

إن اليونان لم يتركوا في الهندسة (القـديمة) زيادة لمستزيد ، ولم يستطع

أحـد بعد اقليدس ، الذي دوّن علم الهندسة (٣٣٠ ــ ٣٢٠ ق • م) ، أن يزيد على هذا العـلم شيئاً أساسياً •

أعظم أفضال العرب على الهندسة أنهم اهتموا بها حينما أهملتها الشعوب ، ثم حفظوها من الضياع ، وناولوها للأوربيين في زمن باكر ، فلقد أخذ الأوربيون الهندسة اليونانية عن العرب ، لا عن اليونان ، ونقلوها الى اللغـة اللاتينية •

ولقـد كان اهتمام العرب بالناحية العلمية من الهندسة أكثر من اهتمامهم بالناحية النظرية ، تشهد بذلك المباني والقصور التي نهضت في المشرق والمغرب •

ويعترف « سميث » في كتابه (تاريخ الرياضيات) أن البيروني [1] ، كان ألمع علماء زمانه في الرياضيات ، وأن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهنـد

---

(١) أبو الريحان محمد بن احمـد البيروني ، أصلـه من فارس ، ومولده في بـيرون (عاصمـة خوارزم) في التركستان سنة ٩٧٣ م وتوفى فيهـا عـام ١٠٤٨ م • وقـد رحـل البيروني عن موطنه وهـو لا يزال شـاباً يافعـاً ، وتوطدت علاقته بابن سينا ودرس علوما عـديدة ولغـات مختلفة ، رحل الى الهند فحمل معـه الحكمة والفلسفة الاسلامية ، وفي الهنـد أحاط بكنوز العـلم عنـد الهنود ، وتعـرف علـى آدابهم وفلسفاتهم بعـد أن درس اللغـة السنسكريتية وأتقنهـا ، كما درس عقائدهم وعاداتهم وعلومهم ، وضمنها كتابه العظيم « تحقيق ما للهنـد في مقولة مقبولة » ويقول الاستاذ نفيس أحمد ــ الاستاذ بجـامعة كلكتـا بالهنـد :

يعـد البيروني أحـد عظماء العالم في التاريخ ، وهو يحتل مكانة فريدة بين علماء المسلمين ، إذ هو عالم ، مؤرخ ، طبيعي جيولوجي ، فلكي ، رياضي ، ويتمتع البيروني بحاسة جغرافية حاذقة •

مؤلفـات البيروني : أما عن مؤلفـاته ، فقـد أدرج البيروني بياناً بمعظمها ، في مخطوطه « الفهرس » ومن أهمهـا : « القـانون المسعودي » وهو يعـد أعظم موسوعة في عـلوم الفلك والجغرافيا والهنـدسة والرياضيات ، وينتهج فيه المنهج النقـدي الموضوعي •

وللبيروني عـدة مخطوطات علمية منهـا مخطوط « راشيكات الهنـد » وكلمـة (راشيك) معنـاها (موضـع) وكلمـة (راش) معنـاها (برج) أي برج مراقبة النجوم والكواكب السماوية ••• كما كان للبيروني كتـاب : (الرسائل المتفرقة في عـلم الهيئة) ــ وقد قامت دائرة المعارف العثمانية بحيدر آبـاد الدكن بالهنـد بطبعـه سنة ١٩٤٨ •

ومن أهم كتب البيروني في عـلوم المعارف والفلزات : « الجماهر في معرفة الجواهر » وقد قام بتحقيق بعض فصوله المستشرق الالمـاني « ادوار سخاو » ونشـر في لنـدن عـام ١٨٧٨ •

أمـا المستشرق الالمـاني « شاخت » فيقول • كان البيروني يتمتـع بشجاعة فكرية فائقـة ، وكـان مولعـاً بالاطـلاع العلمى أشـد الولع بعيـداً عن الاوهام ، محبا للحقيقة ، متسامحا ، مخلصاً لأبحـائه العلميـة اخلاصاً نـادراً •••

ومآثرها في العلوم ، وكذلك يعترف الدكتور سارتون بنبوغه وسعة اطلاعه فيقول : كان البيروني باحثاً ، فيلسوفاً رياضياً ، ومن أصحاب الثقافة الواسعة •

وللبيروني رسالة سامية كانت تتجلى في ثنايا مؤلفاته وكتبه ، ومن سياحاته وسلوكه ، فهو يرى في وحدة الاتجاه العلمي ، وكأنه كان يدعو إلى إدراك وحدة الاصول الانسانية والعلمية بين الشعوب (وأن التراث الحضاري الانساني ملك للجميع) •

ويمكن الخروج من أقواله ورسائله ، أنه يؤمن بإنسانية العلم ، وبالوحدة الشاملة التي يؤدي اليها العلم فيوحد بين العقول ، ويزيل التنافر بينها ، ويقرب بعضها من بعض ، ويدعو الى التفاهم على أساس ، المنطق (السليم) ، والحقيقة العلمية (المجردة) •

وللبيروني مآثر كثيرة ، أوضح في بعض مؤلفاته كيف أخذ العرب الترقيم عن الهند ، وكيف انتقلت علوم الهند الى العرب ، كما نجد فيها تاريخاً وافياً لتقدم الرياضيات عند العرب •

وقد يكون كتاب (الآثار الباقية عن القرون الخالية) من أشهر كتبه وأغزرها مادة ، وقد ترجم المستشرق الألماني « ادوار سخاو » هذا الكتاب الى الانكليزية ، وطبع عام ١٨٧٩ م في لندن ، كما توجد نسخة عربية لهذا الكتاب مطبوعة في (ليبزغ) عام ١٨٧٨ ، وفيه مقدمة باللغة الألمانية للعالم الألماني الشهير « سخاو » ، عن البيروني ،وأقوال المؤرخين العرب القدماء في مآثره في العلوم •

وللبيروني كتاب « تاريخ الهند » وقد ترجمه « سخاو » الى الانكليزية ، وطبع الأصل في لندن عام ١٨٨٧ م وفيه تناول البيروني لغة أهل الهند وعاداتهم وعلومهم ، والبيروني ذو مواهب جديرة بالاعتبار ، فقد كان يحسن السريانية ، والفارسية والعبرية عدا العربية •

وقد احتفلت مؤتمرات عديدة في العالم الغربي بمناسبة مرور ألف عام على مولده ، فأصدرت أكاديميات العلوم (السوفياتية، والأوربية، والهندية) مجلدات

دراسية تذكارية ، اعترافاً بفضله على العلم والثقافة الانسانية، كما شاركت في ذلك (هيئة اليونسكو) في الأمم المتحدة ، فنشرت منذ سنوات عديدة دليلاً (ببليوجرافيا) للقيم الثقافية العربية ، حوى بين دفتيه تعريفاً بالكثير من أعمال أبي الريحان البيروني ـ الخالدة على مرّ الدهور .

● **العرب وعلم المثلّثات :**

ويسمى أيضاً ـ علم الأنساب ـ وهو فرع من فروع الرياضيات ، يبيّن النسب بين أضلاع المثلث وزواياه ، وكان القدماء يستخدمون هذا العلم في قياس المساحات الكبيرة والمسافات الطويلة ، ودراسة الفلك والاهتداء في الملاحة (السفر في البحر) .

وبما أن هذا العلم قد نشأ متصلا بالفلك اتصالاً وثيقاً ، فان تاريخه يرجع ـ كرجوع تاريخ علم الفلك ـ الى الألف الثالث قبل الميلاد .

يقول المسيو شال :

وعلم المثلثات من العلوم الرياضية ، التي عني العرب بها كثيراً ، لما كان من تطبيقه على علم الفلك ، وعلم المثلثات مدين للعرب بما أدخلوا عليه من تحسينات كثيرة ، اكتسب بها شكلا جديداً ، وصار صالحاً لتطبيقات ، كان الأغارقة لا يقدرون عليها إلا بشق الأنفس (١) .

وللعرب يرجع الفضل الأكبر في جعل علم المثلثات علماً مستقلا بين العلوم الرياضية الأساسية ، ويعتبره الكثيرون علماً عربياً صرفاً .

ولا يخفى ما لهذا العلم من أثر في الاختراعات والاكتشافات ، وفي تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية .

● **العرب وعلم الفلك (علم الهيئة) :**

شغف الانسان بجمال النجوم ، فتتبّع حركاتها ، ثم راقب ازدياد القمر

---

(١) ينظر كتاب مبادىء الثقافة الاسلامية للدكتور محمد فاروق نبهان ص ٥٧ .

ونقصانه ليلة بعد ليلة ، كما راقب ميل الشمس (اختلاف مطالعها ومغاربها ، وخط سيرها في السماء) شهراً بعد شهر ، فاتخذ من الشمس والقمر والنجوم دلائل ، لحساب الأيام والشهور، والفصول والسنين، وعلامات للتنقّل بين الأماكن البعيدة .

وقد عرّف العرب (علم الهيئة) بأنه العلم الذي يبحث عن الأجرام السماوية، من حيث الكيفية والوضع والحركة اللازمة لها .

وقد ورث العرب نزعة قوية الى علم الفلك ، وكيف لا يكون كذلك ، وقد عاشوا تحت سماء صافية ، لامعة النجوم .

يعد الخليفة المأمون أول من اهتم بعلم الفلك ، وجعل بغداد مركزاً للعلم ، وأقام المأمون عنده جماعة من فحول علماء الهيئة، وأمر بترجمة كتاب (المجسطي)[1] .

كان لجميع المدن الكبرى في الامبراطورية الاسلامية مراصد تقريباً ، وكان أشهرها مراصد : بغداد ، والقاهرة ، وقرطبة ، وطليطلة ، وسمرقند .

وفي سنة ٩٥٩ م قاس أبناء المؤرخ (موسى بن شاكر) الثلاثة (محمد وحسن وأحمد) عرض بغداد فقيّدوه بـ (٣٣) درجة و (٢٠) دقيقة ، أي برقم يصح باضافة عشر ثوان تقريباً ، وقد رصدوا انحراف (سمت الشمس) ووضعوا تقاويم لمنازل السيارات .

الجداول الفلكية : قد سميت الجداول الفلكية بـ (الأزياج) ، وهي جداول بنيت على قوانين عددية ، تبين حركة كل كوكب ، ويعرف منها مواقع الكواكب في أفلاكها ، ومنها أيضاً تعرف تواريخ الشهور والأيام ، والتقاويم المختلفة ، وهذه أشهر الأزياج :

زيج ابراهيم الفزاري ، زيج الخوارزمي ، زيج الشامي للطوسي ، زيج الشامل لأبي الوفاء .

ويرجع الفضل الى العرب في تطهير علم الفلك من أدران التنجيم ، وجعله

(١) اقدم كتاب وصل الينا مما وضعه الفلكيون في علم الهيئة ، معرب عن اليونانية ، ومعناه (الاكبر) الفه (بطليموس) وعربه (حنين بن اسحق) .

علماً رياضياً مبنيّاً على الرصد والحساب •

ونحن إذا أردنا أن نبحث عن المواطن الأصلية التي نبغ فيها الفلك كعلم مؤسس على المنطقين التجريبي والرياضي ، يتحتم علينا أن نستعرض ما وصل اليه هذا العلم في الحضارات الثلاث القديمة : (حضارة الصين)و(حضارة الهند) ثم (حضارة حوض البحر الابيض المتوسط) •

- **حضارة الصين :**

عزيت الى الصينيين القدماء ، أرصاد كثير من الظواهر الفلكية ، لا سيما المذنّبات ، والخسوف والكسوف ، وأنهم كانوا يعرفون الدورة الشمسية القمرية ، المعروفة الآن بدورة (ميثون) •

- **الحضارة الهندية :**

أما ما ينسب الى الهنود في هذا المضمار ، فقد جاء في كتاب قديم اسمه (السند هانت) الذي اتخذه العرب دستوراً في مستهل نهضتهم العلمية ، في أواخر القرن الثامن الميلادي ، وفي خلافة أبي جعفر المنصور •

- **حضارة البحر المتوسط :**

يقصد بها تلك الحضارات التي انبثق فجرها في حوض وادي النيل ، وحوض ما بين النهرين (دجلة والفرات) وفي جزر اليونان ، ثم في مدن الاغريق القديمة ، وجزر البحر الابيض المتوسط ، وذلك لأن تلك الحضارات كانت معاصرة بعضها لبعض في نشأتها ، وانتقلت مراكزها من آسيا الصغرى الى اليونان ، ومن اليونان الى مدرسة الاسكندرية •

وفي المرحلة الأخيرة ، بدأ علم الفلك يؤسس على قواعد تجريبية وحسابية ، ثم استكمل ملامحه الواضحة الاولى (كعلم ذي كيان) ما لبث أن علا بنيانه شامخاً بين العلوم الطبيعية كافة •

ويعدّ نصير الدين الطوسي ، المولود في (طوس) عام ١٢٠١ م والمتوفى في بغداد عام ١٢٧٣ ، من أعلام العرب ، في الرياضيات والفلك •

لمع (الطوسي) في الدرس والبحث والابتكار ، وكانت له مكانة عند الخلفاء ، وأولي الأمر من الأمراء والوزراء ، فكان المقدم عندهم ، وصاحب الرأي لديهم .

وقد استطاع الطوسي أن يكسب منزلة عالية عند (هولاكو) وقد عيّنه (أميناً) على أوقاف الممالك التي استولى عليها .

وهنا تجلّت براعة الطوسي في أبهى صورها ، وتجلّى حبه للعلم ، ورغبته في البحث والدرس ، فاستغلّ الأموال التي تحت تصرّفه ، وأنشأ بها مكتبة كبيرة ، وبنى مرصد (مراغة) الذي اشتهر بآلاته وراصديه ، أما المكتبة فقد احتوت على كل نفيس ونادر ، وكانت الاولى من نوعها في العالم ، ويربو عدد كتبها على أربعمائة ألف مجلد .

وأما المرصد ، فكان يشتمل على آلات كثيرة ، بعضها لم يكن معروفاً عند الفلكيين ، وقد جمع فيه الطوسي جماعة من كبار الحكماء ، وأصحاب العقول النيّرة من سائر الأنحاء ، فمن أعيان هذا المرصد : (المؤيد العرضي) من دمشق ، و (الفخر المراغي) من الموصل ، و (النجم دبيران القزويني — ومحي الدين المغربي) من حلب .

وفي هذا المرصد استطاع الطوسي إخراج أكثر مؤلفاته ، وأزياجه في الفلك ، التي كانت من المصادر المعتمد عليها ، في عصر الإحياء في أوربا .

ويتجلّى في مؤلفاته (في الهيئة) أنه أضاف اليها إضافات هامة ، فقد تمكن من ايجاد ، مبادرة الاعتدالين ، ومن استنباط براهين جديدة لمسائل فلكية ، كما حاول أن يوضح بعض النظريات .

وقد ترجم « كارادي فو » بعض الفصول من كتب الطوسي الى الافرنسية ، وكذلك ، كتب « ثانري ودرابر » عن الطوسي ، وعن بحوثه في الكرة السماوية ونظام الكواكب .

وللطوسي مؤلفات قيّمة في الرياضيات ، ولعلّ كتاب (شكل القطاع) أجلّها ، ومن يطالع هذا الكتاب ، يجد فيه ما لا يجده في أنفس الكتب الحديثة

في (المثلثات) ولهـذا الكتاب أثر كبير في المثلثات وارتقائها • وتتجلى لنا عظمة (الطوسي) وأثره في تاريخ الفكـر الرياضي ، إذا علمنا أن المثلثات هي (ملح) كثير من العلوم الرياضية والبحوث الفلكية والهندسية ، وأنه لا يمكن لهـذه ، أن تستغني عن المثلثات ومعادلاتها •

وخلاصة القول أن مؤلفات (الطوسي) ورسائله في الرياضيات والفلك ، تدل على أنه خصب القريحة ، قوي العقل والفكر ، صبور ، ذو روح علمي صحيح ، ورغبة صادقة في البحث عن الحقيقة •

● **التقـويم العـربي :**

يدخل في إطـار البحث عن تاريخ الرياضيات عنـد العرب ، البحث عـن التقـويم العـربي •

كان للعرب في الأحقاب الأولى شهور قمرية هي : المؤتمر ، وناجر ، وخوان ، وصوان ، وحنين ، ورنى ، والأصم ، وعادل ، وناتق ، وواغل ، وهواع ، وبرك ، وقد نجـد هذه الأسماء مخالفة لما أوردنا ، ومختلفة الترتيب •

ثم انه قبل الاسلام بمائتي سنة ، في زمن (كلاب بن مرة بن لؤي) أحـد أجداد الرسول الكريم ، وضعت لها الأسماء المعروفة بين ظهرانينا — الآن — وهي: المحـرم ، صفر ، ربيع الأول ، ربيـع الثاني ، جمادى الأولى ، جمادى الثانية ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة •

وقد جـاء ذكر عدد الشهور ، في سورة التوبة — من القرآن الكريم — :

● « إن عـدّة الشهور عنـد الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلـق السموات والأرض ، منهـا أربعة حـرم [1] » •

أما الحساب (الهجري) فوضعه الخليفة (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه ، بالاتفاق مع وجـوه الصحابة الكرام وتوافق الهجرة (من مكة الى المدينة) يوم

---

(١) الاشهر الحـرم أربعه — ثلاثة سـرد (متتالية) ذو القعـدة وذو الحجـة والمحرم ، وواحـد فـرد وهـو (رجب) •

(١٤ أو ١٥) من شهر تموز (يوليو) سنة ٦٢٢ للميلاد .

قال الجبرتي : ان أول واضع لعلم التأريخ في الاسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك حين كتب أبو موسى الأشعري الى عمر ، أنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب ، لا ندري على أيّها نعمل ، فقد قرأنا صكاً محله (شعبان) فما ندري أيّ الشعبانين ؟ (الماضي أم الحاضر) .

وقيل رفع لعمر صك محله ــ شعبان ــ فقال : أي شعبان هو ؟ أهذا الذي نحن فيه أم الذي هو آت ؟ ... ثم جمع وجوه الصحابة رضي الله عنهم وقال : إن الأموال قد كثرت ، وما قسمناه غير مؤقت ، فكيف التوصل إلى ما يضبط به ذلك ؟ فقال له الهرمزان: (وهو ملك الأهواز)، وقد أسر عند فتح فارس، وحمل الى عمر وأسلم على يديه ــ : إن للعجم حساباً يسمونه ، (ماه روز) ويسندونه إلى من غلب عليهم من الأكاسرة ، فعرّبوا اللفظ (ماه روز) بـ (مؤرخ) ومصدره ــ التاريخ ــ واستعملوه في وجوه التعريف ، ثم شرح لهم الهرمزان كيفية استعمال ذلك فقال لهم عمر : ضعوا للناس تاريخاً يتعاملون به ، وتصير أوقاتهم فيما يتعاطونه من المعاملات مضبوطة ، فاتفقوا على أن يجعلوا تاريخ دولة الاسلام ، من لدن هجرة النبي الكريم ، لأن وقت الهجرة لم يختلف فيه أحد بخلاف وقت ولادته ، ووقت مبعثه ﷺ .

- **العلوم الطبيعية عند العرب :**

العلوم الطبيعية هي علوم الواقع والتجربة ، وقد حاول الانسان من قديم أن يكشف أسرار الكون ، وأن يستخدم قوى الطبيعة ، وتفنّن في ذلك قدر طاقته ، حيث استطاع الاهتداء الى خصائص كثير من الظواهر الطبيعية ، وتوسّع في البحث والدرس ، وتأنّى في الملاحظة والتجربة ، واستعان بالآلات والأجهزة ، ثم تمكّن أخيراً من وضع أسس كثير من العلوم التي تتحكّم في الطبيعة .

هكذا شغل الانسان منذ القدم ، بالكون ومظاهره ، فاستوقفته السماء بكواكبها ، والأرض بما فيها من جبال وأنهار وبحار .... وكذلك الظواهر

الطبيعية التي أثارت كوامن تفكيره ، كالرعد والبرق ، فحاول تفسيرها ، ومعرفة حقيقة أمرهـا •

وقد ساهمت الحضارات الانسانية المتعاقبة في درس ذلك وبحثه ، وإقـامة صرح العلوم الطبيعية ، وما أن عرف العرب التراث العلمي اليوناني ، حتى أقاموا المراصد ، ودرسوا علم البصريّات ــ لأول مرة في التاريخ ــ دراسة (علمية ــ تجريبية) على يد ، محمد بن الحسن بن الهيثم (المولود ٩٦٥م والمتوفى ١٠٣٨) •

وهو من عباقرة العرب الذين ظهروا في القرن العاشر للميلاد ، في البصرة ، ومن الذين نزلوا مصر، واستوطنوها ، ترك آثاراً خالدات في الطبيعة والرياضيات، ولولاه لما كان علم البصريات على ما هو عليه الآن ، ولا أظن أني بحاجة الى القول، أن البصريات من عوامل تقدم الاختراع والاكتشاف ، وأن كثيراً من آلات البصر والكهرباء مرتكزة في صنعها على قوانين ومبادىء تتعلق بعلم الضوء •

وقـد ثبت أن (كبلر) أخـذ معلوماته في الضوء ، ولا سيما فيما يتعلق بانكساره في الجو ، من كتب ابن الهيثم ، واعترف بهذا العالم الافرنسي الشهير « فياردو » ، ويقول أحـد الباحثين من علماء أمريكا :

« إن ابن الهيثم أعظم عـالم ظهـر عند العرب في عـلم الطبيعة ، بل أعظم علمـاء الطبيعة في القـرون الوسطى ومن علمـاء البصريات القليلين المشهورين في العـالم كلـه ••• »•

وقد بقيت كتبه منهلاً ينهل منه فحول العلماء في أوربا من أمثال : كبـلر ، وروجر بيكن ، وغيرهم ، وسحرت بحوثه في الضوء « ماكس مايرهوف » وأثارت إعجابه الى درجة جعلته يقول : «ان عظمة الابتكار الاسلامي تتجلّى في البصريات» •

ومن الثابت أن كتـاب (المناظر) لابن الهيثم ، من أكثر الكتب استيفاء لبحوث الضوء ، وأرفعها قدراً وهو لا يقل ــ مادة وتبويباً ــ عن الكتب الحديثة العالية ، إن لم يفق بعضها في موضوع انكسار الضوء ، وتشريح العـين ، وكيفية تكوين الصور على شبكة العين •

وقد ثبت للاستاذ ــ مصطفى نظيف ــ بعد مراجعة مخطوط ابن الهيثم في المناظر ، أن ابن الهيثم قد توافرت فيه مميزات التفكير العلمي الصحيح ، وأنه وجد بين العرب من سار في بحوثه في الضوء ، على الطريقة العلمية الصحيحة ، وقد سبق (روجر بيكون)(١) في ذلك ، إذ توفرت في بحوثهم جميع العناصر اللازمة في البحوث العلمية ، ولما كان لكشف العرب للطريقة العلمية من الأحداث الهامة رأيت(٢) ، أن أواصل البحث بايجاز في شرح هذا الكشف ، معتمداً على الدراسات التي قام بها الاستاذ مصطفى نظيف ــ لمخطوط المناظر ــ •

ان العناصر الأساسية في طريقة البحث العلمي هي : الاستقراء والقياس ، والاعتماد والمشاهدة أو التجربة والتمثيل •

ولقد أدرك ابن الهيثم الطريقة المثلى وقال بالأخذ والقياس والتمثيل ، وضرورة الاعتماد على المواقع الموجودة ، على المنوال المتبع في البحوث العلمية الحديثة (٣) •

ففي كتاب المناظر ، عند البحث مثلا في كيفية الإبصار ، واختلاف العلماء فيه يقول :

« ونبتدىء بالبحث باستقراء الموجودات ، وتصفّح أحوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حالة الإبصار ، وما هو مطّرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه به ، من كيفية الاحساس » •

---

(١) لقد درس الراهب الانكليزي (روجر بكون) المتوفى سنه ١٢٠٩ م علوم العرب والاسلام ، وقال : ان الطريقة المثلى للوصول الى الحقائق العلمية ، هي طريقة علماء الاسلام من العرب (شاهد واختبر) أي شاهد الاشياء في حالاتها المختلفة واجر عليها التجارب ، وهؤلاء وأمثالهم هم الرعيل الأول من طلاب العلم ــ من أوربا ــ نقلوا الى لغاتهم (عن أساتذتهم المسلمين والعرب) ثروة علمية ، كانت بمثابة البذرة والنواة ، التي أنبتت شجرة الحضارة في أوربا •

ويذكر المسيو (رينان) في كتابه (الاسلام والعلم) ترجمة المهندس علي يوسف ص ٣ : ومن عجب بعد أن انتقل المنهج التجريبي من فرنسا الى انكلترا ، حيث أخذ به (فرنسيس بيكون) ومن بعده (جون ستوارت ميل) نسب حديثاً الى علماء الغرب ، وتناسى الكتاب نشأته في الحضارة الاسلامية•

(٢) المتكلم هو الاستاذ قدري حافظ طوقان ، في كتابه (تراث العرب العلمي) •

(٣) ينظر كتاب الحضارة العربية الاسلامية للدكتور المرحوم أحمد شوكت الشطي ، ص ٥ •

ثم نترقّى في البحث والمقاييس ، على التدريج والتدريب ، مع انتقاد المقدمات ، والتحفّظ من الغلط في النتائج ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه وتتصفّحه ، استعمال العدل ، لا اتباع الهوى ، ونتحرّى في سائر ما نميّزه وننتقده ، طلب الحق الذي به يثلج الصدر ، ونصل بالتدرّج واللطف ، إلى الغاية التي عندها يقع اليقين ، وتظهر — مع النقد والتحفّظ — الحقيقة التي يزول معها الخلاف ، وتنحسم بها مواد الشبهات ، وما نحن مع ذلك براء مما هو في طبيعة الانسان ، من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية ، ومن الله نستمدّ العون في جميع الأمور .

ومن أقواله هذه تتجلّى لنا الخطّة التي كان يسير عليها في بحوثه ، وأن غرضه في جميع ما يستقريه ويتصفّحه ، استعمال العدل ، لا اتباع الهوى ، وبعد ذلك نراه رسم الروح العلمية الصحيحة ، وبيّن أن الأسلوب العلمي هو في الواقع مدرسة للخلق العالي ، فقواعده التجرّد عن الهوى ، والانصاف بين الآراء ، فيكون قد سبق علماء هذا العصر ، في كونه لمس المعاني وراء البحث العلمي الحديث ، وكان يرى في الطريق المؤدي الى الحق والحقيقة ما يثلج الصدر — على حدّ تعبيره — وهذا ما يراه باحثو هذا العصر من روّاد الحقيقة العاملين على إظهار الحق ، فاذا وصلوا الى ذلك ، فهذا غاية ما يبغون ويؤمّلون .

وابن الهيثم في طريقته العلمية التي اتّبعها في بحوثه وكشوفه الضوئية ، قد سبق (بيكون) في طريقته الاستقرائيّة ، وفوق ذلك سما عليه ، وكان أوسع منه أفقاً وأعمق تفكيراً .

★ ★ ★

الفصل السادس

العلوم الاجتماعية عند العرب

العرب والجغرافية :

إن لفظ (الجغرافية) يعدّ دخيلاً في اللغة العربية وهو يعني(رسم الأرض)، أما منطلق المعنى لهذا العلم في اللغة العربية فهو (علم تقويم البلدان) بكل ماتحمله هـذه العبارة من معنى .

كان من المشكلات الاولى التي شغلت العرب مسألة (إدارة البلاد ــ التي أعقبت الفتح الاسلامي) وهي مسألة كثيرة التعقيد ، لارتباطها بالطريقة التي تمّ بها الفتح ، وكانت المحاولات الأولى تدور حول التعرّف على البلاد ، وطرقها وخراجها ، ومن ثمّ ،**كان كتاب المسالك والممالك** ــ وهو أقدم الكتب الجغرافية ــ **تقريراً عن جباية المملكة العباسية ، في أواسط القرن الثالث الهجري .**

وليس من المصادفات ، أن مؤلفه « ابن خرداذبة » كان من متولي البريد والخبر ، بنواحي الجبل بفارس ، وكذلك كان كتاب « الخراج وصنعة الكتابة » لمؤلفه، قدامة بن جعفر، الذي يبيّن الطرق والمسافات، فضلا عن قيمةجبايةالمملكة.

والاسلام شجّع الكتابة الجغرافية :

أولاً : عن طريق الحج ، وكان أثر هذه الفريضة كبيراً ، في إثارة الكتّاب الرحّالة ، إلى تدوين ما لاحظوا أو رأوا ، كابن جبير ، وابن بطوطة .

ثانياً : طلب العلم ، هي الناحية الثانية التي شجّع الاسلام فيها الكتابة الجغرافية ، فقد كان المسلمون يتنقّلون في سبيل طلب العلم والمعرفة ، من قطر

إلى آخر ، وان علماءهم ليحرصون على تدوين مشاهداتهم ، ليطلع عليها الخلف ويستفيد منهـا •

وان المكتبة العربية الجغرافية تضم انتاج حوالي ثلاثين من علماء العـرب والمسلمين الذين وصلت آثارهم الينا ــ غير الذين لم يبق من كتابتهم شيء ــ •

وقد تأثرت الأبحاث الجغرافية في عهدها الأول ، بما وصل اليه اليونان من قبل ، شأن بقية الأبحاث التي أخـذها العرب عنهم •

وبلغ تاريخ البحث الجغرافي النّضج ، في القرن الرابع الهجري (العاشـر الميلادي) وكان الاصطخري وابن حوقل والمقدسي، يمثلون درجة عالية في البحث، المبني على الاختبار الشخصي ، والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقّل ، والتأليف الجغرافي الناضج ، الذي استمر ثلاثة قرون ، وكانت تظهر فيه في أول أمره آثـار فارس ، لكنه لم يلبث أن خلصت عروبته ، والاتجاهات التي نلمسها ، فيما خلّفه لنا كتّاب هـذه الأزمنة ثلاثة :

- **أولهـا :** عناية شديدة بأقاليم العالم الاسلامي والأقطار المجاورة ، على نحو ما نراه ، عند : البلخي ، والاصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي •
- **ثانيها :** نوع التخصص في قطر واحد ، فقد كتب (الهمذاني) صفـة جـزيرة العرب ، وكتب (البيروني) عن الهند ، وترك لنا (ابن فضلان) وصفـاً لبلغاريّي الفولغا ، زار بلادهم في وفد الخليفة المقتدر •
- **وأما الاتجـاه الثالث :** فقد بدأ في كثرة المعاجم الجغرافية ، التي وجدت طريقها الى المكتبة الجغرافية ، منذ القرن الخامس للهجرة •

و (البكري) [1] ، يعرّفنا بكتابه بقوله :

« هـذا كتاب « معجم ما استعجم » ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والأخبار ، والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والآثار ،

---

(١) أبو عبيد عبد الله البكري ، من كبار الجغرافيين في الاندلس ، توفي عـام ١٠٩٤ م •

والمياه والآبار ، منسوبة محدّدة ، ومبوّبة على حروف المعجم مقيّدة » •

و (ياقوت الحموي) في طليعة أصحاب المعاجم الجغرافية على الاطلاق ، فكتابه (معجم البلدان) معجم كبير عام للعالم الاسلامي كله ، هو خزانة علم وأدب ، وتاريخ وجغرافية ، إذا ذكر بلداً ، أورد شيئاً من تاريخه ، ومن اشتهر فيه من الفقهاء والأدباء والشعراء ، هذا بالاضافة إلى مقدمة وافية عن علم الجغرافية ، والمعجم دقيق في معلوماته ، منظم في طريقته •

يبدأ كتاب « معجم البلدان » بمقدمة ، ثم بخمسة أبواب ، فيها معارف عامة تتصل بعلم الجغرافية ، ثم كلام عن صورة الأرض ، وان الأرض كرة في وسط الفلك ، ثم الكلام عن المصطلحات الجغرافية ، وقياس المسافات ، والألفاظ اللغوية والفقهية المتعلقة بالزكاة ، والجباية (الضرائب) ثم تأتي معارف تاريخية عامة ، تتعلق بديار الاسلام ، وبغير ديار الاسلام •

بعد ذلك يأتي متن الكتاب ، أو القسم الجغرافي على الحصر ، وفيه أسماء الأماكن ، منسّقة على أحرف الهجاء ، يورد (ياقوت) اسم المكان ، متبوعاً بطريقة لفظه واشتقاقه اللغوي ، ثم ينتقل (في الكلام عن الأماكن الكبيرة والمشهورة) إلى تعيين موقع المكان ، فالى وصف دقيق مفصّل له ، وللمعالم التي هي فيه ، كالمساجد والقلاع ، وإذا كان المكان مسرحاً لحادثة تاريخية ، وفّى تلك الحادثة حقّها من السّرد والوصف ، ثم يذكر ، من نشأ من ذلك المكان من العلماء والأدباء ، وقد يصف الأحوال الاجتماعية ويورد في أثناء ذلك عدداً من القصص والطرائف •

وتمتاز هذه الفترة ، بأن الخرط الذي رسمها هؤلاء الجغرافيون ، كانت تاجاً عربياً خالصاً ، وقد أحصى (ميلر) مائتين وخمساً وسبعين خريطة للعالم الاسلامي تعود الى ذلك العصر ، هذا باستثناء خرط « الادريسي » (الآتي ذكرها فيما بعد) •

ويعنى الجغرافيون العرب بالمسالك والطرق والمسافات ، لعلاقتها بالرحلة

والتجارة والبريد وهذه عندهم صحيحة دقيقة ، والمستعمل عندهم (الفراسخ والأميال) للقياس ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل يقل عن الكيلو متر قليلا ، ويستعملون للمسافات الطويلة ، وحدة للسير ، هي اليوم • فسوريا مثلا طولها (مسيرة) خمسة وعشرون يوماً •

وقد انتقد (المقدسي) كتب من سبقه من الجغرافيين : فمنهم من كتب باختصار لا يفيد ، ومنهم من جمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها ، وكيف المسالك اليها ، ومنهم ••••

وهنا نلحظ (المقدسي) الجغرافي ، العالم الدقيق ، الذي يريد أن يكون البحث دائماً ، مبنيّاً على الدرس والاختبار ، منظماً ، مبوّباً ، وافيا •

ولما جاء « أبو الفداء » تناول ــ في مقدمة كتابه « تقويم البلدان » ــ من تقدّمه من الجغرافيين بالنقد ، فأظهر أن : (ابن حوقل ، والادريسي ، وابن خرداذبة) لم يحقّقوا الأسماء وغيرهم ، لم يحقق الأطوال ، أما هو ، فقد جمع بين التحقيق في الأسماء والأطوال •

والواقع أن كتابه ، يصحّ أن يعتبر تاريخاً انتقادياً ، لكتابة الجغرافية العربية إلى عصره، (القرن الثامن للهجرة) •

وثمّة مؤلف جغرافي آخر ، حريّ بالالتفات ، ذلك هو (الادريسي) (١) صاحب كتاب : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » كتب هذا الكتاب بالعربية ، في صقلية ، في بلاط ملكها ، (روجر الثاني) سنة ١١٥٤ م •

---

(١) والشريف الادريسى ، المتوفى سنة ١١٦٠ م ولد في (سبته) فى شمال المغرب ، على ساحل البحر الابيض المتوسط ، ودرس في جامعة قرطبة ، ثم جاب شمال أفريقيا وآسيا الصغرى وغيرهما ، ثم دعاه ــ زميله فى الدراسة ــ (روحر الثاني) ملك صقلية وجنوبي ايطاليا ــ وكان بلاطه عربى السمات ــ فلبى طلبه ، وألف له كتابه القيم (السابق الذكر) ورسم صورة الأقاليم على كرة من الفضه الخالصة ، عظيمة الجرم •

وقد ترجم كتابه الى اللاتينية ، وترجمت كل أمة ما يعنيها منه ، وطبع القسم الخاص منه في اسبانيا مع ترجمته ، سنة ١٧٩٩ م وعن هذا الكتاب أخذت أوربا (علم الجغرافيا) في القرون الوسطى ، واستمرت تنسخه ثلاثة قرون كاملة •

والادريسي يمثل مدرسة جغرافية خاصة ، هي التي سمّاها (ميلر) المدرسة العربية النورماندية ، فقد كان بلاط (روجر الثاني) ملتقى الحضارتين (الاسلامية والغربية) وموئلا للحـرية العلمية في القرن الثاني عشر الميلادي ، والخرط التي رسمها الادريسي ، كانت ذات أثر كبير في تصوير الدنيا (للأوربيين) مدة طويلة بعـد عصره •

ولا يصحّ ـ في مجال الانصاف ـ أن ننسى (شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدي) [1] الذي كان يلقب بـ (أسد البحر) في القرن الخامس عشر الميلادي ،

---

(١) يرجع نجاح العرب في تجـديد المعرفة العلمية ، واضافة الشيء الكثير اليها ، الى اعتمادهم عـلى الملاحظة والتجـربة ، أي عـلى المنهـج العـلمي في البحث وهي طريقـة ـ لا شـك ـ بأن الاوربيين قـد أخـذوها من العـرب •

الا أن هنـاك من الاوربيين والمستشرقين خاصة ، من يدعي بأن العرب لم يكن لهم مجـال واسع في عـلم البحـار ، وأنهم أقرب الى البر في أسفارهم ، منهم الى ارتياد البحـار • وحقيقة الامـر ، أن العرب عرفوا البحـر والأسفار فيه (مغـرب الخليج) كما تشير كتب التراث والآثار وعلم الأجناس (قـد وصلوا الى بلاد الصين والهنـد) ، وما يعرف اليوم باندونسيا ، قبل الميـلاد ، واستمرت رحلاتهم بعـد ذلك ، وأصبح العرب سادة المحيط الهنـدي ، كما اصبحوا سادة البحر المتوسط ، ابان عهـد الدولـة العـربية الاسلامية ، والدولة العثمانية بعـد ذلـك •

ونشير هنا الى شهادة مؤرخ برتغالي قديم هو (خودي باروش) ممن أرّخوا لرحلة (فاسكودي جاما) في كتـابه الكبير عن آسيا ، حيث يعترف بخصوبة جـزر البحرين ، بأن جميع ما كتب عن هذه المنطقة في كتبنا الجغرافية مستمد من المعلومات الجغرافية العـربية والفارسية •

وفي العشرينات من هـذا القرن ، اكتشف مخطوط عربي قـديم يرجع عهـده الى القرن الخامس عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري) كانت مكتبة المخطوطات في (باريس) قد حصلت عليه في عام ١٨٦٠ م من أستاذ جزائري ، تولى التدريس في مدرسة اللغات الشرقية في (باريس) في ذلك الوقت •

وفي الثلث الأول من هـذا القـرن قـام المستشرق الفرنسـي (جبرييل فران) بالتحقيق في قيمتـه العلميـة ، فنشره بين سنوات ١٩٢١ ـ ١٩٢٣ م بطريقة التصوير الفوتوغرافي ، ويحتوي هذا المخطوط على تسعة عشر مؤلفا في الملاحـة الفلكية وفنون البحـر •

ويعتبر هـذا المخطوط في الواقع أهم وثيقة في الجغرافية الفلكية والملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على الاطـلاق ، وتنحصر أهميته ، في أنه أقـدم الوثائق الجيدة التي وصلتنا ، والتي دونت عن الملاحة وفنون البحـار ، في البحار الجنوبية بين الساحل الشرقي الافريقي وبلاد الصين بلغـة من اللغات ، كما أنه يرد فيه لأول مـرة اسم عـلم جـديد (هو علم البحـر بمعنـاه الواسع) مما نعـرفه اليوم باسـم (الاوقيانوغرافية) الجغرافيا الملاحية ، ولهـذا أثره الكبير في تاريخ العلوم ، وهذه الوثيقة تلقي كثيرا من الضوء على ما بلغـه العرب من تقـدم ، في فنون البحر والملاحة حتى القرن الخامس عشر ، وعلى مدى تأثر البرتغال بالفكر العـربي ، والتعاليم والتقاليد الملاحية العربية بشـكل عـام ، وفي المحيط الهنـدي

فانه كان المرشد (لفاسكو دي جاما) في رحلته إلى الهند سنة ١٤٩٨ م والكشف عن الطـريق إليهـا •

بشكل خاص ، كما نشير شهادة المؤرخ البرتغـالي (باروش) السابقة ، وفضلا عن ذلك فان هذه الوثيقة تحتوي على كثير من المصطلحات العلمية والفنية التي تعتبر في حـد ذاتهـا ثروة كبرى للغـة العـربية ، وفي وقت ينلطـع فيه العـرب الى التعـريب للعـلوم •

هـذه الوثيقـة ، من صاحبهـا ؟••• انه المـلاح العـربي الشهير (أحمـد بن ماجد) من عمان ، عـلى الخليـج العـربي •

مولده ونسبه ـ هو الشيخ شهاب الدين احمد بن ماجـد بن محمـد بن عمـرو بن فضل بن رويك ابن يوسـف بن حسن بن حسين بن أبي معلـق السعدي بن أبي الركائب النجـدي ، المكنى بالمعـلم ، أو بالمعـلم العـربي أو (باسـد البحـر) •

وينحـدر (ابن ماجـد) نفسه من أسـرة ربانية ، فقد كان أبوه ربانا يلقَّب ب (ربّان البرّين) بر العـرب وبر العجـم ، وقد روى هو الآخر تجاربه الملاحية ، في مصنف ضخم هو (ارجوزته الحجازية) التي تضم أكثر من ألف بيت ، في وصف الملاحة بالبحر الاحمر ، وكان جده هو الآخـر ملاحـا مشهورا • وقـد اختلفت في تحـديد سنة ولادته ، الا أن الدكتور أنور عبد العـليم أثنـاء دراسته لمؤلفات ابن ماجد ، حـدد سن ميلاده عـام ٨٣٨ هـ • وكما اختلف في ميـلاده ، كـذلك اختلف في وفـاته ، إلا أن الدلائل نشير الى أنـه ناهز الستين عاما ، وتولى قيـادة المركب منـذ صباه ، وكان على عـلم بمطالع النجـوم الملاحية ومضاربها ، والامر الذي اشتهر به (اضافة الى علمـه الغـزير وكتبه العديدة) هو ، ارشـاده فاسكو دي جاما في رحلته الى الهنـد ، وهـذا ما تشير اليه المصادر البرتغالية والعربية ، وقـد اعترفت الحكومة البرتغالية نفسها بهذا الامر مؤخرا ، فاقامت له نصبا تذكاريا في « ملبندى » اعترافا بفضله •

مؤلفـات ابن ماجـد :

١ ـ أهم مؤلفاته (كتاب الفوائد في أصول عـلم البحر والقواعد) ويعتبر هـذا الكتاب من المؤلفات النادرة ، وهو يقـع في ١٧٦ صفحة ، بكل صفحة منها ٩١ سطرا ، وهـو مكتوب بخط واضح ، ويحتوي على مقـدمة واثني عشر فصلا وفائـدة ، يرجع تاريخه الى ٨٩٥ هـ ، يبحث عن بعض الاساطير البحرية ، والابرة المغناطيسية ، ومنازل القمر الثمانية والعشرين ، والطرق البحرية في المحيط الهنـدي ، وخطوط عرض بعـد مرافىء هـذا البحر ، وبحـر الصين الغـربي ، والعلامات والاشارات ، الموجودة في البحار ، والتي تستهدي بهـا الطيور ، وسواحل الهنـد الغربيه ، والجزر العشر الكبرى ، وهي : جزيرة العرب ، وجـزيرة قمـر ، ومدغسكر ، وسومطرة ، وجـاوة ، وفورموزة ، وسومطرة ، وسيلان ، وزنجبـار ، البحـرين • ثم يبحث عن الرياح الموسمية الملائمـة للسفر مـع تواريخها وفقا لحساب الفرس ، ثم يختـم هـذه المباحث بوصف للبحـر الاحمـر •

٢ ـ حاوية الاختصار في أصول عـلم البحـار ، وهي أرجوزة تزيد عن الف بيت •

٣ ـ ارجوزة في معرفـة القبلة في جميع الاقطار ، وهي نحو خمسمائة بيت •

٤ ـ قصيدة (المكية) موضوعها الطـرق البحرية من (جـدة) الى (رأس فرتك) •

٥ ـ ارجوزة تسمى (بالسفالية) وصف فيهـا ، نوادر من القياسات والمجاري ، وسكان الارض ،

وكان لسيادة المسلمين البحرية أثرها العظيم في الحياة الاقتصادية والتجارية في منطقة البحرين (الأسود ـ والمتوسط) وربما أهم من استفاد من هذا التحول الاقتصادي (شمال أفريقيا ـ وصقلية) ويعود الفضل في ذلك على سيطرةالمسلمين على البحر الأبيض المتوسط ، وبالأخص سيطرتهم علىالطريقالشمالية ، الدائرة الى الشام ومصر ،عن طريق (صقلية وكريت وقبرص) •

عني بنشرها وتحقيقها ووضع فهارسها (تيودور شوموفسكي) وطبعت بمطبعة المجمع العلمي للاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٧ م •

والجدير بالذكر أن (ابن ماجد) بذكر أن الربان يجب عليه أن يلم ببعض العلوم حتى تكون ربانا ماهرا يمكن الاعتماد عليه وأهم هذه العلوم كما يراها :

- علوم رياضة وفلكية ● قواعد الملاحة الأساسية ● معرفة حالة البحر والأنواء والرياح
- أرصاد جوية وبحرية ● الملم بالاتالرصد والقياس وطرقاستعمالها وصيانتها (كالبوصة والمربع)•
- قسطا من علوم الجغرافية الملاحية (الافيانوغرافية) الطبيعية والبيولوجية ، تعنه على فهم خواص المياه والاحياء البحرية،والطيور التي يستدل بها على قرب السواحل،وطبيعة القاع وحسالأغواص•

كما يلحص الصفات التي يجب أن يتحلى بها الربان ، في الفقرات التالية .

« وينبغي للمعلم أن يعرف الصبر من الدوانى ، ويفرق بين العجلة والحركة ، ويكون عارفا بالأشياء ، عزاما ، لينا في دوله ، عادلا لا يظلم أحدا ، مقيما على الطاعة لربه ، متقيا لله تعالى ، لا يغضب التجار ، كثير الاحتمال على الهمة صبورا مقبولا بين الناس ، لا يسعى فيما لا يصلح له ، أديبا لبيبا ، والا فليس هو معلم بالقاعدة » •

رحمه الله ، فانها حكم وأقوال تنم عن معرفه وسياسة عميقة للرجال ، ولكانه كان مدركا ما سيلحق علمه وجهوده من جهل ، حين ختم قصيدته المسماة « ضريبة الضرائب » بقوله :

فان تجهلوا قدري في حياني فانما   سياتي رجال بعدكم يعرفوا قدري

وهذا ما حدث بعد نصف قرن من وفاته ، من احساء لتراثه ، على يد الاميرال التركي (سيدي علي بن حسين) ، وفي القرن العشرين ، على أيدي مستشرقين من أقطار مختلفه ـ أمثال · كراتشوفساكي، وشوموفيكي ، ومن فرنسا أمثال المستشرق (جبرييل فران) ومن سويسرا، دي سويسير، وبروكلمان••• وغيرهم ممن أجهدوا أنفسهم في التعرف على هذا الربان العربي ، ودرايته ومؤلفاته ، **كما خصصت (هيئة المؤتمر الدولي الأول لتاريخ علوم البحار)** الذي عقد في اماره (موناكو) في ديسمبر ـ كانون الاول ـ ١٩٦٦ ، **بحثا ، ألقي في المؤتمر ، عن ابن ماجد وأعماله** •

أما المصادر العربية التى تشير الى رحلة ـ فاسكو دي جاما ـ تذكر اسم ابن ماجد صراحة ، وأنه هو المرشد الذي قاد أسطول (دي جاما) ، فقد اهدى المستشرق الفرنسى (جبرييل فران) عام ١٩٢٢ الى ذلك ، في مخطوط (لقطب الدين النهراوى) يرجع تاريخه الى عام ١٥٦٦ م بعنوان (البرق اليماني في الفتح العثماني) والذي يذكر فيه (ابن ماجد) أنه كان هو المرشد الحقيقي ل (فاسكو دي جاما) الى بلاد الهند •

وأصبحت تونس مركزاً تجارياً هامـاً ، وعلى الأخص (مدينة القيروان) ، وبعد عام ٩٥٨ م سيطر حكام تونس على أهم الطـرق التجارية ، وكانت الدنانير المغربية من أهم العملات في عالم البحر الأبيض المتوسط ، حتى القـرن الحادي عشر الميلادي •

أما الاسكندرية ــ فقد كانت نهاية الطريق التجارية الغربية للبحر الابيض المتوسط ، يأتيها العديد من تجار المغرب ، وبعض تجار البندقية ، وربمـا بعض تجـار القسطنطينية •

وأما طرابلس الشام ، وبيروت وصور ، وغيرها من الموانىء على طول الساحل ــ فقد دبّ فيها النشاط ، لفتح البحر في وجه التجارة الاسلامية ، غير المقيدة •

ودخل التجار الشاميون ميدان البحر مرة أخرى (وإن ظل مداهم التجاري أضيق من تجار الغرب) إذ أنهم اقتصروا بصورة رئيسية على المتاجرة مـع مصر والقسطنطينية ، والظاهر أن الازدهار في كل من الصناعة والتجارة كان عظيماً في تلك المـدن ، من أمثال دمشق وحلب وبيت المقدس •

وكانت (قرطبـة) تحت حكم عبد الرحمن الثالث ، من أعظم مدن العـالم الاسلامي ، وقد اشتهرت بمكانتها العلمية والثقافية الضخمة •

والجدير بالذكر ، أن أعظم مناطق البـلاد تقدماً ، إنما كانت في الجنوب والجنوب الشرقي (في مواجهة البحر الابيض المتوسط) مما يؤكد الدور الذي لعبته تجارة هـذا البحر ، في اسبانيا •

وقد تكون (اسبانيا) شأنها شأن شمالي أفريقيا ، قد أصابت ثروة كبـيرة من ذهب السودان ، وخاصة المناطق ، التي كانت طريق القوافل الغربية ، تحمـله إلى (سجلمانة) ومنها عبر البلاد المراكشية •

وجملة القول أن سلطة المسلمين البحرية ، على البحر المتوسط ، كان لهـا أثر عظيم هام ، إنها لم تؤد إلى إنعاش التجارة الدولية فحسب ، وانما أدت كذلك

إلى إنعاش الشام ومصر وازدهار اسبانيا وصقلية وشمال أفريقية ، وزادت الصلات التجارية بين الشرق والغرب في أثناء الحروب الصليبية ، فكانت المدن الايطالية ذات شأن خطير فيها ، وفي الهدن (ج ـ هدنة) التي تخللت الحروب الصليبية كانت قوافل المسلمين تجتاز الأراضي التي يحتلها الصليبيون ، بدون أن يعترضها حائل ، حيث يشترط في المعاهدات المعقودة (أمان القوافل) في سيرها .

ولما كثرت العلاقات التجارية بين الشعوب الاسلامية والشعوب الأوربية ، وضعت أنظمة المبيع في البلاد الاسلامية بطريقة خاصة ، وكان العشر معدّل ما تأخذه الجمارك من تلك البضائع .

وأدى نمو العلاقات التجارية بين المسلمين والنصارى ، في القرن الحادي عشر الميلادي ، إلى ايجاد (قناصل) من الشعوب الغربية ، تكون (للقنصل) صفة سياسية وتجارية معاً .

البريد (١) :

البريد كلمة عربية ، أخذت من الكلمة اللاتينية (فيرداس) ومعناها (دابة البريد) أو حصان البريد ، وثم ناقل البريد ، ثم تطورت بعد ذلك فأصبحت تدل على النظام نفسه ، ثم أطلقت آخر الأمر على المرحلة بين مركزي بريد .

وجاء في (صبح الأعشى)(٢) : ثم اختلفت فيه (البريد) ـ فقيل : انه عربي، وعلى هذا ذهب الخليل،إلى أنه مشتق من (بردت الحديد) إذا أرسلت مايخرج منه.

وقيل : من أبردته ، إذا أرسلته ، وقيل من برد إذا ثبت ، لأنه يأتي بما تستقر عليه الأخبار . وذهب آخرون إلى أنه (فارسيّ معرّب) وأصله بالفارسية (بريده دم) ومعناها (مقصوص الذنب) ، وذلك أن ملوك الفرس كانت من عاداتهم ، أنهم إذا أقاموا بغلا في البريد قصوا ذنبه ، ليكون ذلك علامة لكونه من بغال البريد .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية . ٣ ص ٦٠٩ .

(٢) القلقشندي . صبح الأعشى . ١٤ : ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

وأما (البريد) في الاصطلاح ، فهو أن يجعل خيل مضمّرات في عدة أماكن ، فاذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها ـ وقد تعب فرسه ـ ركب غيره ، فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة .

ويقال أن أول من وضع البريد في الاسلام (معاوية بن أبي سفيان) وذلك حين استقرت له الخلافة فوضع البريد ، لتسرع اليه أخبار بلاده ، من جميع أطرافها ، ثم عمّم عبد الملك بن مروان البريد في الدولة الاسلامية . فلما كانت خلافة هارون الرشيد ، رتّب البريد على ما كان عليه أيام بني أمية ، وجعلت البغال في المراكز ، وكان للبريد ديوان كبير في بغداد ، مزوّد بمحطات على طول الطريق .

وقد ساعدت معالم الطرق التي أقامتها الحكومة ، التجار في أسفارهم ، كما كانت نواة للبحوث الجغرافية ، إلا أن البريد كان خاصّاً بأعمال الدولة ، وليس لنقل مراسلات الجمهور ، وكان صاحب البريد يراقب العمال ، ويتجسّس على الأعداء ، وقد اهتم العباسيون بهذا النظام ، واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شئون دولتهم .

وفي عهد الملك الظاهر بيبرس (وقد اجتمع له ملك مصر والشام وحلب إلى الفرات) ارتقى نظام البريد ، حيث وضع له نظاماً يكفل ارتباط جميع أنحاء مملكته ، بشبكة خطوط من البريد البري والجوي (الحمام الزاجل) وكان مركز هذه الشبكة (قلعة الجبل بمصر) حيث كان يتفرع منها أربع طرق بريّة ، يمتدّ إلى (قوص) والآخر الى (عيذاب) وثالث إلى (الاسكندرية) ورابع إلى (دمياط) ومنها إلى (غزة) ، ومن هذا المكان تتفرع سائر الخطوط ، وتصدر المراسم السلطانية إلى أنحاء مملكته ، وترد اليها الرسائل من الولاة ، وأصبح البريد في عهده يرد على مصر ، مرتين في الاسبوع .

وزوّد (بيبرس) مراكز البريد ، بكل ما يحتاج اليه المسافر ، من زاد وعلف، كما راعى توفر المياه أو وجود قرية بجوارها ، وأعد لكل منها خيولا ، ولا يسمح بركوبها الا بمرسوم سلطاني .

وكان يشرف على ادارة البريد صاحب ديوان الانشاء ، فقد عهد اليه حفظ ألواح البريد ، (وهي من فضة مخلدة) بديوان الانشاء ، تحت أمر كاتب البريد بالأبواب السلطانية ، فاذا خرج بريدي الى جهة من الجهات أعطي لوحاً من تلك الألواح يعلقه في عنقه ، ويذهب الى جهة قصده ، وتذعن له أرباب المراكز بتسليم خيل البريد ، ثم يعيد ذلك اللوح الى ديوان الانشاء .

وكانت توجـد بالمملكة الاسلامية محطات للبريد تسمى (السكك) وهي مزوّدة بالخيل والراكبين ، على مسافات معينة ، كل ثلاثة أميـال أو فرسخين ، وربما كان راكب البريد يركب الطريق كله .

وكان بين المغرب والمشرق ، شبه تبادل دولي في البريد ، فكان (بريد الترك) يصل الى (يوشحان الأعلى) وهو حـدّ الصين ، وكان (بريد آسيا الصغرى) يواصل الرحلة الى (القسطنطينية) وكان لهذا البريد (سكة) كل ثلاثة أميال .

وكان أهم طرق البريد (من بغداد الى الموصل) و (من بغداد الى الشام) وأما الطريق الرئيسـي الى المشرق ، فكان يسير خلف بغـداد ، وأما البريد الى المغرب ، فكان يخرج من مصر السفلى في طريق ، يسير جنوباً أول الأمر — وكان يسمى طريق السكة — ثم عدل عنه بعد ذلك الى طرابلس ومنها كان يقصد ، الى القيروان رأساً ، وبعـد يسير بحذاء الساحل .

وكانت الأميال (معلّمة) وطول المسافة (من القيروان إلى السوس الأدنى) على المحيط الأطلسي ، الفان ومائة وخمسون ميلا ، وكان الطريق ، هـو الطريق الرئيسي الذي يصل الأندلس بالشرق ، وكان هناك طريق آخـر جنوبي ، يمرّ بالواحات الداخلية والكفرة ، ويتّجه الى السودان الغربي متجهاً إلى (غـانة ، واودغشت) فعدل عنه — في القرن الرابع الهجري — إلى طريق سجلماسة .

وكان البريد مخصصاً لأعمال الحكومة ، وكان يحمل فيه الى جانب الرسائل، أشياء تبعث للسلطان مما يحتاج الى سرعة الايصال . **وأما وسائل البريد فهي :**

- **الجمال والأفراس :** وربما بلغت قافلة البريد أربعين أو خمسين جملا .

- **السفن في البحار**
- **استعمال ماء النهر أحياناً :** فيضعون فيها الخرائط من الجلد مكتوباً عليها اسم صاحبها .
- **الرجال العدّاؤون :** وخاصة في المدن الكبيرة ، كبغداد .
- **وأخيرا ، الحمام الزّاجل :** فيربطون ورقة ، يعلقونها (بعد تمرين الحمام على السير على مواقع يعلمونها) .

وأول شاهد تاريخي على استخدام الحمام في الدولة الاسلامية ، لنقل الأخبار ، وقع عام ٢١٢ هـ إبان عهد المعتصم العباسي .

وأسهب (الجاحظ)أحد العلماء المعاصرين للمعتصم ، في كتابه (الحيوان)[1]، الحديث عن الحمام الزّاجل وتدريبه فقسّم أنواع الحمام الى حمام عادي ، وحمام رسائلي ، (وهو الزاجل) كان يختار حسب أسس وأوصاف معروفة ، ويراعى في تدريبه أساليب مقررة ، فكان يشترط في ذلك النوع من الحمام ، اعتدال العنق ، واستدارة الرأس من غير عظم ولا صغر ، ولحوق بعض الحوافي بعضها ببعض ، وقصر الساق والذنب .

كذلك كان يراعى في الحمام الزاجل ، صفاء البصر ، وثبات النظر ، وشدة الحذر ، وحسن التلفت ، وخفّة النهوض والطيران والعلوّ في الجو ، مع مدّ العنق وقلّة الاضطراب ، وحسن القصد في غير دوران . وأتقن معرفة ذلك كله أناس من (العراق) لانتقاء أجود أنواع الحمام الزاجل، وأحسنها أصولا وأنساباً.

وجملة القول ، ان العناية بالحمام كانت ظاهرة منتشرة في أرجاء العراق والشام في القرن الثالث الهجري ، وكانت الرسائل تصل إذ ذاك في نظام وسرعة ، حتى ان الرسالة كانت تصل (من الرقة ، والموصل ، وواسط ، والبصرة ، والكوفة) إلى بغداد ، في يوم وليلة .

واستخدم (بيبرس) الحمام الزاجل في إرسال رسائله ، وكان له (أبراج

---

(١) ينظر الجاحظ . كتاب الحيوان ٣ : ص ٢٦٩ — ٢٧٢ .

القلعة) ومراكز معيّنة ، في جهات مختلفة ، كمراكز البريد البرّي ، لكنها تزيد عنها بالمسافة ، فاذا نزل بها الحمام ينقل (البرّاج) ما على جناحه ، إلى طائر آخر ، ليوصله الى المنزلة التي تليها ٠

وكان (الايجاز) من أهم مميزات الرسائل ، التي ينقلها الحمام الزاجل (لغة البرقيّات) وكانت الرسالة تشدّ تحت جناح الحمامة ، أو إلى ذيلها ٠

وقد جرت العادة أن تكتب الرسالة (من صورتين) (ترسلان مع حمامتين) تطلق احداهما بعد ساعتين ، من اطلاق الأخرى ، حتى إذا ضلت احداهما أو قتلت ، أو افترسها الجوارح أمكن الاعتماد على وصول الأخرى ٠

وقد جرت العادة أيضاً ، ألا يطلق الحمام في الجو الممطر ، ولا قبل تغذيته الغذاء الكافي ، وكان حمام البريد السلطاني يميز بعلامات خاصة ، كبصم منقاره ببصمات خاصة ، أو قصّ ريشه بطرق معروفة ، فاذا وصل إلى (قلعة الجبل) ببطاقة ، تولى السلطان قطعها بنفسه ٠

- **رحلات العرب :**

دعا الاسلام ـ فيما دعا اليه ـ إلى الحركة والسير في مناكب الأرض ، سعياً وراء الرزق ، والعلم والدعوة إلى الخير والمحبة ٠٠٠ قال تعالى :

- هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ، فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ٠ سورة الملك آية ١٦ ٠

وقال الامام الشافعي رضي الله عنه :

سافر تجد عوضاً عمّن تفارقه   وانصب فان لذيذ العيش في النصب
اني رأيت وقوف الماء يفسده   إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة   لملّها الناس من عجم ومن عرب

كان هذا ما حدا بالرحّالة العرب ، منذ فجر التاريخ الاسلامي ، إلى العمل الدائب ، على نشر لواء الاسلام وتعاليمه في كل أرض وطئتها أقدامهم ، بقصد

التجارة والسعي وراء الرزق حيناً ، والرحلة والمشاهدة حيناً آخر ، ومع أن جهودهم كانت تتّسم بالفردية ، إلا أنها مهّدت طريق الدعاة ، إلى الدعوة إلى سبيل الله ، إلى دعوة الناس للدخول في دين الله أفواجاً •

وكانت الرحلة عنصراً قوياً في حياة المجتمع الاسلامي ، في عصوره الزاهرة ، فقد رحل الناس لزيارة مهبط الوحي ، ولقوا في سبيل ذلك الكثير من صعوبات السفر التي تحمّلوها راضين مسرورين ، ورحل الناس في طلب العلم ، إذ كان العلم منتشرة مراكزه في أنحاء العالم الاسلامي ، وطلابه كانوا يتحملون من المشاقّ في سبيل الحصول عليه ما يحملنا على احترامهم وإجلالهم •

ورحل القوم في سبيل الاتجار ، إذ كانت الأسواق الاسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، مرتبطة بعضها ببعض كل الارتباط ، وكان التجار يحملون بضائعهم وسلعهم ، إلى حيث يرجون الربح الوفير ، أضف إلى ذلك رحلة الرسل ، المتردّدين بين الملوك والأمراء ، كل هذه نماذج من الرحلة ، عرفها العرب والمسلمون ، وقد شجّعهم على الاستزادة منها ، خضوع العالم الاسلامي برقعته الواسعة ، لدولة واحدة بادىء الأمر ، فلما ذهبت الوحدة السياسية ، بقيت وحدة الدين ، ووحدة اللغة ، وهاتان ربطتا الحجاج وطلاب العلم ورسل السلاطين وحملة البضائع ، فاحتفظوا بالصّلة • ولما توسع الاسلام ، ودخل بلاداً جديدة ، وصار للمسلمين ملك واسع ، هناك كثرت الرحلات التجارية بين أجزاء العالم الاسلامي ، ولم يبتدىء الاهتمام بالرحلات لذاتها ، وتدوينها ، إلا في القرن الرابع الهجري •

ومن المقدمين في هذا الباب (المسعودي)[1] صاحب كتاب (مروج الذهب) •

---

(١) كان أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، رحالة ، جغرافيا ، مؤرخا ، تنقل في بلاد كثيرة ، وروى مشاهداته العجيبة فيها ، له كتابه المعروف (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وهو موسوعة جغرافية تاريخية ، انتهى من تأليفها وتنميقها عام ٩٥٦م ونهج فيها نهج العلماء ، فذكر جميع المصادر التي اطلع عليها ، ونقد ما يستحق النقد فيها بالاضافة الى تحقيقاته العلمية ، ووصفه الكثير من مناظر الطبيعة ، إذ وصف زلزال عام ٩٥٥ م وتحدث عن مياه البحر الميت ، وأثبت ملوحتها ، وعن طواحين الهواء التي شاهدها في (سجستان) •

والمسعودي ، الذي عاش في القرن الرابع الهجري ، وقضى ــ ما يقارب من ربع قرن ــ يطوف العالم الاسلامي وما جاوره ــ مثل الهند ــ سجل مشاهداته في كتابه (مروج الذهب) •

أما (البيروني) فقد ترك لنا كتابيه : (الآثار الباقية عن القرون الخالية) و (تاريخ الهند) •وظهر في القرن الرابع الرحّالة (المقدسي) ،وقد وضع قوانين الرحّالين وقواعد السفر في كتابه : (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ، ومن الرحّالين المشهورين (ابن جبير الأندلسي)و(ابن سعيد المغربي) وياقوت الحموي (صاحب معجم البلدان) •

وقد دوّن كثير من رحّالي العرب أخبار أسفارهم وتنقّلهم ، فذكروا المدن التي هبطوها ، والمسافات التي اجتازوها ، والصعوبات التي تغلّبوا عليها ، ووصفوا البلاد وزرعها ، وقيدوا مشاهداتهم عن صناعتها وتجارتها ، وأتوا على وصف حياة السكان،فعرضوا للطيّب من عاداتهم بالمديح،وعابوا مافيه من ضعف•

وهذه النقدات التي نعثر عليها في مذكرات السائح ، هي التي نميزها عن الكاتب الجغرافي ، فهذا يسأل ويستقصي ويحقق ، ويحاول أن يشتمل كل جزء من المنطقة التي يعرض لدرسها ، أما الرحّالة ، فينقل ما يشاهد ، فتكون صورته جزئية •

وطلائع الرحالين « سليمان السيرافي » و « ابن فضلان » و « المسعودي » فالأول من أهل القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) أما الآخران ، فمن رحّالي القرن الرابع الهجري •

كما حفل القرن الثاني عشر (السادس) بعدد كبير من الرحالين العرب ،

وفي آخر سنة عاشها الف كتابه (التنبيه والاشراف) الذي لخص فيه أعماله العلمية ، وضمنه تجارب حياته الامر الذي أكسبه شهرة عند العلماء والمحدثين • ولقد شغل العلماء الغربيون بالمسعودي أكثر من غيره فترجم المستشرق (دي غويه) كتاب (التنبيه) عام ١٨٩٤ ، ولخصه وشرحه (سلفتر دي ساس) وكتب عنه المؤرخ (مياد) و (فريدريك ويتريص) المستشرق الالماني ، و (بروكلمان) و (ك . فيلد) الانكليزي وبراون.(في كتابه الطب عند العرب) و (كاراديفو) في كتابه (مفكرو الاسلام) •

الذين أفاد منهم التاريخ كثيراً ، فيما دوّنوا ووضعوا ، منهم : الادريسي ، وابن جبير ، والهراوي ، وأسامة بن منقـذ •

وكان أسامة بن منقذ أميراً فارسياً ، من أهل الشرق العربي ، وقدتنقّل في مصر وسورية وبغـداد ، وقد أدخلناه في عداد الرحالين ، لأن كتابه « الاعتبار » نسيج وحـده في الأدب العربي ، ومذكرات صاحبه تشمل صفحات مجيدة ، في تاريخ الفروسية ، ولد أسامة بقلعة شيزر في سنة ١٠٩٥ م •

ويمثل القرن الثالث عشر (السابع) ثلاثة من كبار الرحالين : عبد اللطيف البغدادي ، وابن سعيد الأندلسي ، والعبدوي المغـربي •

كذلك كان (ابن بطوطة) [١] ، في القرون الوسطى ، ورحلاته المشهورة حول العالم الاسلامي • وابن بطوطة بدأ رحلته سنة ١٣٢٥ م من طنجة ، فاجتاز شمالي أفريقية ومصر والشام والعراق ، وجزيرة العرب ، ثم عرج على القسطنطينية وايران والهند والصين ، وزار بعض الجزائر ، مثل ، سومطرة وجاوه ، ثم عـاد الى مراكش بحراً ، وبعد عودته زار الأندلس وجنوبي افريقية ، حتى وصل الى مدينة (تمبكتو) وكتب هذا كله في رحلته الممتعة التي ترجمت الى عدة لغات[١]•

أما الرحالة (عبد الباسط بن خليل) فقد ولد في (ملطية ــ المغرب) عـام ١٤٤٠ م وشغف بدرس الفقه والأدب ، وألف كتاب « الروض الباسم في حوادث العصر والتراجم » وشغف بالرحلات من أجل العلم ، وخاصة الطب ، وكان لـه الصّفة (التجارية) وقد يسّر له ذلك الاتصال التجاري ، التعرف على أهل الطب والعلم ، فأتاح له ذلك أن يوسع دائرة معارفه ، ويوطّد صداقاته مـع فئات من جميع أنواع الناس ، وساعده على ذلك ، أنه لم يكن تاجراً فحسب ، ولكنه عالمـاً بالفقه والطب الحديث وشاعراً •

---

(١) هـو محمد بن عبد الله بن ابراهيم اللوني الطنجي ، ولد بمدينة (طنجـة) في مراكش عـام (١٣٠٤) م وتوفي بمراكش عـام ١٣٧٧ م •

● أملى (ابن بطـوطة) رحـلاته على الادب ــ محمد بن جزي الكلبي ــ فانتهى مـن كتابتهـا

لم يدوّن (عبد الباسط) رحلته ، على أنها وحدة ، مثلما فعل ابن جبير ، وابن بطوطة ، أو سواهما ، ولكنه ضمّنها كتابه « الروض الباسم » فكان يدوّن أجزاءها ، حيث تعرض في كتابة التاريخ ، وحريّ بالذكر أن الروض الباسم ، مصدر رئيسي للتاريخ المغربي ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر •

● **كشف القارة الأمريكية :**

وقد كان للمؤلفات الاسلامية أثر في توجيه الفكر العالمي الى نتائج عملية ، من أعظم النتائج في تاريخ العالم ، قديمه وحديثه ، **واحدى هذه النتائج التي لا شك فيها ، كشف القارة الامريكية •**

ان الروايات التاريخية عن افتحام العرب للمحيط الأطلسي، أو بحر الظلمات، كما كانوا يسمونه ، متعددة متواترة ، لا موجب للشك فيها ، وبعضها يذهب الى القول بوصول الملاحين العرب الى الشواطىء الامريكية ، وبعضها يصف الجزر التي بلغوها ، وصفاً يطابق المعلوم عن الجزائر الموجودة في هذه الأيام •

عام ١٣٥٦ م واطلق عليها : « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار » وقد كشفت هذه الرحلات عن أسرار كثيرة ، من البلاد التي زارها (ابن بطوطة) إذ يعد أول من ذكر شيئاً عن استعمال ورق النقد ـ من الصين ـ وعن استخدام الفحم الحجري ، وكان صادقا في اغلب اوصافه ، حتى أن المستشرق الكبير (دوزي) أطلق عليه الرحالة الأمين ، وافاد ابن بطوطة علم الجغرافيا ، بما ذكر من أوصاف للبيئة الطبيعية والتضاريس ، والجغرافية البشرية ، والسكان والعادات والتقاليد •

وقد وجه الأنظار الى رحلته ، وقد ظلت هذه الرحلة موضع التفات كثير من المستشرقين والباحثين ، ونقلها القس ـ صموئيل لي ـ الى اللغة الانكليزية ، وطبعت في لندن عام ١٨٢٩ م ، ونقلها « وبغريموي » و سنكوينتي ، الى الفرنسية ، وطبعت في باريس عام ١٨٥٩ في خمس مجلدات ، فيها فهرس أبجدي ، وترجمها المستشرق (مزيك) الى الالمانية وطبعت عام ١٩١٢ •

ولها ترجمة تركية اسمها (تقويم وقائع) • وتحوي الرحلة كثيرا من طريف الأخبار ، ونادر الحكايات ، وعجائب المخلوقات في الحيوان والنبات ، وحسب الكتاب ان يشهد بفضله (على العلم والأدب) الرحالة الشهير والعالم الكبير « سنيزن » فنقول ما معناه •

« أي سائح أوربي يمكنه ان يفتخر ، بأنه قضى من الزمن ما قضاه ـ ابن بطوطة ـ في البحث لكشف المجهول ، من احوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة ، وتحمل مشاق الاسفار ما تحمله بصبر وشجاعة وثبات ، بل اية امة أوربية كان يمكنها ـ منذ خمسة قرون ـ ان تجد من أبنائها من يجوب البلاد الاجنبية ، وفيه من الاستقلال بالحكم والقدرة على الملاحظة ، والدقة في الكتابة ، ما لهذا الرحالة العظيم •••؟ •

ومن القرائن التي يستدل منها على وصول العــرب الى القارة الأمريكية (قبل كولومبس) ما يلي :

« أعــلن الدكتور (هوى لين) أستاذ النبات بجامعة بنسلفانيا بأمريكا ، في المؤتمر (١٧١) للجمعية الشرقية الأمريكية ، أنه بعد بحث سبع سنوات يؤكد أن العرب كشفوا أمريكا الشمالية عام ١١٠٠م ، قبل كولومبس بثلاثة قرون [١] .

ونشرت ذلك (مجلة العربي ــ الكويتية) في عدد(يوليو)تموز عام١٩٦١م. وأضاف الدكتور (هوى لين) ، أنه أقام نظريته على أسس علمية ، من بحوث في عــلم النبات والتربة ، وأسس تاريخية أيضاً .

أما الأمر الذي لا شك فيه فهو أن الفكرة التي نهضت بكولومبس(مكتشف القارة الامريكية) الأخير إنما كانت فكرة عملية مستمدة من المؤلفات الاسلامية ، وأجدرها بالذكر في هذا المقام ، كتب الفلك والجغرافية ، فلولا اقتناع كولومبس باستدارة الأرض ، لما خطر له أن يصل الى الهند من طريق الغرب ، ولم تكن في ايطاليا واسبانيا يومئذ مؤلفات تشرح هذه الفكرة الا المؤلفات العربية الاسلامية .

- **التاريخ العــربي الاسلامي :**

يزدان التاريخ العربي الاسلامي بأعلام من المؤلفين المسلمين ، الذين تركوا لنا صفحات مجيدة ، وأشهرهم : (الطبري ، وابن الأثير ، والمقري ، والهمذاني).

- **الطبري :** ولد أبو جعفر محمد بن جرير الطبري سنة ٨٣٩ م ، في بلدة (آمل) من مدن اقليم طبرستان الفارسي ، وتوفي في بغداد سنة ٩٢٢ م وقد كان مؤرخاً وفقيهاً ، وعالماً توحيدياً ، نال من الصدارة العلمية ، ما لم يتفق لأحد أكثر منه ، بفضل ما تم له من علم وأدب وفضل ، ويعده المسعودي أعظم ممن ظهــر قبــله ، قال المسعودي :

« وأما تاريخ أبي جعفر محمد بن جــرير الطبري ، الزاهي على المؤلفات ،

---

(١) ينظــر مقــدمة كتــاب (الشريعــة الاســلامية والقــانون الدولي العــام) للاستاذ عــلي عــلي منصور ص ٤١ وما بعــدهــا .

والزائد على الكتب والمصنفات ، فقد جمع أنواع الأخبار ، وحوى فنون الآثار ، واشتمل على صنوف العلم ، وهو كتاب تكثر فائدته ، وتنفع عائدته ، وكيف لا يكون كذلك ، ومؤلفه فقيه عصره ، وناسك دهره ، إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار ، وحملة السنن والآثار » .

ويعد كتابه « التاريخ » من الكتب الأساسية لتاريخ العرب ، ولا سيما ما هو خاص فيه بمنشأ الاسلام ، ويشتمل تاريخه على ما لا يحصى من المعارف الثمينة ، في اللغة والطباع وأخلاق العصر ، وعلى ما ينتهي في سنة ٩١٤م — من الأنباء — .

و « تفسير القرآن » للطبري ، هو كتاب اتفق له ، ما اتفق لتاريخه من الصيت البعيد .

● **ابن الأثير** : ولد ابن الأثير في (ما بين النهرين) سنة ١١٦٠ م ، وعرف ابن الأثير مواصلاً للطبري ، ووضع خلاصة واضحة رشيقة ، لأثر هذا الاستاذ الضخم ، وأضاف اليه أخباراً مستقاة من منابع أخرى ، وألف فضلا عن ذلك « تاريخ اللغة الأتابكية في الموصل » .

وتقوم مزيّة (كتاب ابن الأثير) الرئيسية في نظر الأوربيين ، على ما يحويه من أخبار كثيرة في القسم الغربي — من عالم الاسلام — ، وقد استفاد مسيو (ميشيل اماري) من تاريخ ابن الأثير كثيراً في تأليف كتابه الكبير عن (سلطان العرب في صقلية) .

وقد اقتطف مسيو (أ . فانيان) من تاريخ ابن الأثير ، ما هو خاص بأفريقية الشمالية واسبانيا .

● **المقري** : أحمد بن محمد المقري ، ولد في أواخر القرن السادس عشر ، وتوفي في القاهرة سنة ١٦٣١ م وهو أهم مؤرخي اسبانيا الاسلامية .

نشر كتابه الكبير « نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب » بـ (ليدن) بين عامي ١٨٥٥ — ١٨٥٩ ، ويعد (المقري) مترجماً للأحوال أكثر منه مؤرخاً ، فقد أفرد جزءين من أثره ، إفراداً تاماً ، للأعيان والعلماء من المسلمين الذين ذهبوا

من الأندلس الى المشرق ، ومن المشرق الى الأندلس •

وما فطر عليه هـذا الكاتب ، الحادّ الذهن ، من حب للاطلاع حمله على تناول موضوعات شتّى ، فكتابه منجم حقيقي للأخبار عن مختلف بقاع اسبانيا ، وحياة أهلهـا وطبائعهم وأخلاقهم ، وما كتبت به تراجمـه ــ الغنيّة بالجزئيات والأماليح الجذّابة ــ بأسلوب رشيق دقيق ، تشهد بوجود حياة ذهنية وقّادة ، وخاصة في المدن الكبرى : كقرطبة ، وغرناطة ، واشبيلية ، وما ورد من تفصيلات عن سير الفقهاء والأطباء والأدباء ، أمـر يفوق الثمن ، في تصوير مجتمع الأندلس الاسلامي الزاهر •

● **الهمذاني :** ويعدّ الهمذاني فضل الله رشيد الدين الهمذاني ، من أعظم مؤرخي فارس إن لم يكن أعظمهم •

كان رشيد الدين مؤرخاً من الطبقة الاولى ، وكان كاتباً معتدل الأسلوب ، ألّف « تاريخ المغول » عملا بأمر (غازان خان) وأضاف الى ذلك موجزاً عن تاريخ الأمم الأخـرى ، ووصفاً للبقاع التي عرفهـا المغول ، وتمّ هـذا الأثر الكبير ــ المؤلف من أربعة أجزاء ــ في سنة ١١٣٠ م حاملا اسم « جامع التواريخ » •

ونختم بحثنا عن (العلوم الاجتماعية عند العرب) بعلم من أعلام الحضارة العربية الاسلامية هو : عبد الرحمن بن خلدون •

لما فتح المسلمون الأندلس ، كان مع جيوش الفتح رجل يمني (من عـرب حضرموت) اسمه خـالد بن الخطاب [١] • سكن في (قرمونة) ثم انتقـل إلى (اشبيلية) حيث عرف باسم خلدون ، ولما اشتد خطر الاسبان على اشبيلية سنة ١٢٢٧ ، هجرها آل الخطاب ، إلى ثغر (سبته) في المغرب •••

أما ابن خلدون نفسه (وهو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد ••• بن خالد الخطاب) • فقد ولد في تونس عام ١٣٣٢ م ، وتلقى علومه

---

(١) تكـون صيغـه (فعلون) في العربية غـير الفصيحة (للتصغير والتحبب) ، اما في الاسبانية ، فزاد الواو والنون للتعظيـم •

على أبيه ، وعلى نفر من علماء تونس ، فحفظ القرآن العظيم وتفسيره ، والحديث والفقه ، واللغة والنحو ، ثم توسع في الأدب والمنطق وعلوم الفلسفة •

حضر الى القاهرة ، وتولى منصب (كبير القضاة) للمذهب المالكي ، في عهد الملك الظاهر برقوق ، وتوفي بهـا سنة ١٤٠٦ م •

ذكر المؤرخون لابن خلدون كتباً مختلفة : في الحساب ، والمنطق والتاريخ ، يهمنا منها كتابه المشهور في التاريخ « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » •

ويهمنا من هـذا الكتاب ــ الجزء الأول ــ المعروف بمقدمة ابن خلدون ــ **واليك أقسام هـذا الجـزء الأول :**

آ ــ **الديبـاجة :** ص (٣ ــ ٩) : وفيها يذكر ابن خلدون ، أنه طالع كتب المؤرخين ، فوجدها بعيدة عن التحقيق ، فوضع هذا الكتاب ، وجعله مشتملا على البحث في العمران (الاجتماع) ، ثم على تاريخ العرب والمشرق ، ثم على تاريخ البربر والمغـرب •

ب ــ المقدمة (مقدمة الجزء الاول) : ص (٩ ــ ٣٥) : في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط ، وذكر شيء من أسبابها •

ج ــ الكتاب الأول : ص (٣٥ ــ ٥٨٨) : في طبيعـة العمران (الاجتماع البشري) : في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر ، والكسب ، والمعاش ، والصنائع والعلوم ونحوها ، وما لذلك من العلل ، **وهو ستة أبواب :**

١ ــ الباب الاول ــ في الجغرافية البشرية والطبيعية (أثر البيئة في أبـدان البشر وأخلاقهم وأحوالهم ، وفي ما ينشأ من العمران) ص ٣٥ ــ ١١٩ •

٢ ــ الباب الثاني ــ في العمران البدوي (وفيه موازنة بين أهل البدو وأهل الحضر، وذكر خصائصهم،ثم فيه كلام عن العصبية والتغلب والملك)ص١٢٠ــ١٥٣ •

٣ــ الباب الثالث ــ في الدولة (كيف تنشأ الدول وتتطور ، قوة وضعفاً ،

وما تحتاج اليه من المناصب ، ومن وسائل الدفاع في البر والبحر ، مع كلام مفصّل عن الضرائب والجباية) ص ١٥٤ ـ ٣٤٢ .

٤ ـ الباب الرابع ـ في العمران الحضري خاصة (نشأة المدن ، وبناء الهياكل العظمية لها ، تم الرفاهية في المدن ، والجاه والصنائع ، ثم خراب الأمصار حينما تنقرض الدول القائمة فيها) ص ٣٤٢ ـ ٣٨٠ .

٥ ـ الباب الخامس ـ في المعاش ووجوهه (وما يعرض في ذلك كله من الأحوال والكسب، من وظائف الدول، ومن الفلاحة والتجارة والصناعات) ص ٣٨٠ ـ ٤٩٢ .

٦ ـ الباب السادس ـ في العلوم وأصنافها ، والتعليم وطرقه وسائر وجوهه (وما يعرض في ذلك كله من أحوال) ص ٤٩٢ ـ ٥٨٨ .

● **خصائصه :**

امتاز (ابن خلدون) بسعة اطلاعه على ما كتب الأقدمون ، وعلى أحوال البشر ، وكان قادراً على استعراض الآراء ، ونقدها ، دقيق الملاحظة في أثناء ذلك كله ، مع حرية في التفكير ، وانصاف لأصحاب الآراء المخالفة لرأيه .

وقد كان لتجاربه الواسعة (في الحياة السياسية والادارية وفي القضاء) الى جانب أسفاره الكثيرة المترامية بين الأندلس وشمالي أفريقية ، وغربيها الى مصر والحجاز والشام ، **أثر بالغ في تكوين خصائصه** .

ثم إن (ابن خلدون) مفكر متّزن ، لا يميل مع الهوى ، بل تراه يقيّد استنتاجاته كلها ، بما هو مشاهد في الاجتماع الانساني ، أو بما عرفه أو بلغه من الأحوال ، أو بما تضافرت عليه الأدلة .

والحقيقة التي لا مجال لانكارها ، هي أن (ابن خلدون) يعتبر من أعظم عباقرة الفكر الذين أنجبتهم أمتنا العربية ، فقد وضع أسس علم جديد لم يفكر فيه أحد من فلاسفة اليونان في العصور القديمة ، ولم يهتد اليه أحد من مفكري أوربا ـ قبل القرن التاسع عشر ـ ذلك هو (علم المجتمع) .

وتعدّ مقدمة ابن خلدون ، أولى المؤلفات في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، فقد كان مبتكراً في هذين الميدانين بكل معنى الابتكار ، وهـذا الابتكار يعطيه مكانة ممتازة بين سائر مفكري العرب •

ثم ان ابن خلدون قد عرّف التاريخ بأنه « علم من علوم الفلسفة موضوعه الاجتماع الانساني » أما انه علم من علوم الفلسفة ــ فلأنه يقتضي تعليل الحوادث، وربط بعضها ببعض ، مع تمييز الخبر الصادق من الخبر الكاذب ، ومع الترجيح بين الأسـباب •

وأما أن موضوعه الاجتماع الانساني ــ فلأن التاريخ يجب أن يتنـاول وصف التطور في البيئة الاجتماعية بكل ما فيهـا من فاعليات الحياة (من سياسة وحرب ، وصناعة وتجارة ، وعلم وفن ، ومن حركات اجتماعية عامة ، أو دينية ، أو اقتصادية ، أو فكرية) ومن أجل ذلك ، وجب أن يكون المؤرخ ملمّاً بعـلوم كثيرة ، فان كان لا يعرف إلا (رواية الأخبار) كان قاصّاً فقط •

● **فن التاريخ (المؤرخون السابقون) كما يراه ابن خلدون :**

« أما بعـد ــ فان فن التاريخ ، من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال ، إذ هو في ظاهـره ، لا يزيد عن إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمو فيه الأقوال ، وتضرب فيه الأمثال ، وتطرف فيـه الأندية إذا غصّها الاحتفال ، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات (الحوادث التاريخية)ومبادئها دقيق ، وعـلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهـو لذلك أصيل في الحكمة وعريق ، وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق » •

لـماذا ألف ابن خلدون كتـابه :

« •••• فأنشأت في التاريخ كتاباً ، به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجاباً، وفصّلته في الأخبار والاعتبار باباً باباً •••• وأبديت فيه لأوّلية الدول والعمران (نمط الحياة الاجتماعية) عللا وأسباباً ، وشرحت فيه أحوال العمران والتمدن ، وما يعرض في الاجتماع الانساني ، ما يمتّعك بعلل الحوادث وأسبابها ويعرفك كيف دخل أهـل الدول من أبوابها ••• » •

والتاريخ (على العموم) علم نظر وتحقيق لأحداث الماضي ، يشير الى عللها وأسبابها ، هــو رقيب الحياة يسجل الأحداث ، ويحفظها لمن لم يطّلع عليهــا ، ليقرأ في ضوئها حكمة الماضي ، ويستمد منها العظة للحاضر ، ويخطّط في هديها للمستقبل الأفضل .

نظـرة الغربيين الى ابن خلدون :

قال (روبرت فلنت) : من وجهة علم التاريخ : يتحلّى الأدب العربي ، باسم من ألمع الأسماء ، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة ، ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى ، يستطيعان أن يقدما اسماً ، يضاهي في لمعــانه (ابن خلدون) ويتابع كلامه هــذا فيقول :

« إن من يقــرأ المقدمــة باخلاص ونزاهة ، لا يستطيع إلا أن يعترف بأن (ابن خلدون) يستحق لقب (مؤسس علم الاجتماع وفلسفته) » .

وفي هذه المقدمة يتجلى اتساع أفق التفكير عند ابن خلدون ، وغزارة علمه ، فقد اتخذ من المجتمع كلــه وما يعرض فيه من الظواهر ، مادة لدرسه ، وحــاول أن يفهم هــذه الظواهر ، وأن يعللها على ضوء التاريخ ، وأن يرتّب من ســيرها وتفاعلها ، قوانين اجتماعية عامة ، وهــذا ما جعل الباحثين يقولون بتفوّق ابن خلدون على (ميكيا فيللي) ، تفوقاً عظيماً في التفكير ، ونوع النّتاج ، وفي نظريات العصبيّة وإعمار الدول وخواصّها ، ومعالجتها من النواحي الاجتماعية ، مما حدا بالعالم الاجتماعي (جمبلوفيتش) أن يصرح بأن فضل السبق يرجع الى العلاّمة الاجتماعي العربي (ابن خلدون) فيما يتعلق بكثير من النظريات والآراء ، التي وردت في كتاب الأمير، لـ (ميكيا فيللي). وقد قارن (كلوزيو)،بين ابن خلدون، وميكيا فيللي ، فقال في هــذا الصدد :

« إذا كان ميكيا فيللي ، يعلمنا وسائل حكم الناس ، فانه يفعل ذلك كسياسي بعيد النظر ، ولكن العلاّمة التونسي ابن خلدون، استطاع أن ينفذ الى الظواهر الاجتماعية ، كاقتصادي وفيلسوف راسخ ، مما يحملنا بحــق ، على أن نرى في

أثره من سموّ النظر ، والسرعة النقدية ، ما لم يعرفه عصره » •

أما (مونتسكيو) فهو من أشهر رجال الفكر والقلم ، الذين نبغوا في القرن التاسع عشر ، في فرنسا ، وقد شغل مقاماً ممتازاً في فلسفة التاريخ ، وعلم التاريخ، من جرّاء الأهمية التي يعزوها الى العوامل الاقتصادية في تكوين طبائع الأمم ، وتسيير وقائع التاريخ ، حتى ان بعض الباحثين يرى أن (مونتسكيو) أول من ربط علم الاقتصاد بعلم التاريخ ، وأنه أول من شارك هذين العلمين في أمر تفسير الحادثات الاجتماعية وتعليلها •

ولكن الاستاذ ساطع الحصري تنتهي دراساته إلى القول ، ان ابن خلدون سبق مونتسكيو ، فقد جاء في المقدمة ما يشير الى العلاقات القوية التي تربط الاحوال الاجتماعية بالحياة الاقتصادية في تطوّر الدول ونموّ الحضارة ، وعلى هذا فان القول :

« إن شرف ادخال عنصر الاقتصاد في علم التاريخ يعود الى مونتسكيو ، ما هو إلا افتئات على الواقع والحقيقة ، وان هذا الشرف يعود في حقيقة الأمر إلى ابن خلدون،الذي سبق مونتسكيو في هذا الشأن مدة تزيد عن ٣٥٠سنة•••»

وفوق ذلك فقد امتاز ابن خلدون على مونتسكيو ، بعمق التفكير ودقّة النظر ، التي أظهرها في علاقة التاريخ بالاقتصاد ، وهو يدرك التطورات والتقلبات التي تصيب المجتمع ، وأن أهم عامل في هذه التطورات والتقلبات هو الاقتصاد ، وقال : ان الفقر هو الذي يجر بالناس الى النّهب والحرب •

ويرى ابن خلدون أن حوادث التاريخ مقيّدة بقوانين طبيعية ثابتة (وكما ذكرنا)أن ظاهر التاريخ تسجيل الأحداث ، ورواية الأخبار ، أما باطنه ، فهو نظر وتحقيق ، وتعليل لحوادث التاريخ ومبادئها ، وكذلك هو علم بكيفيّات الوقائع وأسبابها •

ويرى (ابن خلدون) في العقل ، أنه قبس من نور الله ، ميّزبه الانسان على المخلوقات ، وان الانسان يستطيع أن يستنبط سنّة الله في خلقه ، بقوة هذا

العقل ، كما أنه يستطيع أن يستفيد من تلك السّنن الثابتة ، في جلب المنافع ودفع المضار ، في حياته الخاصة والعامة ، وفي تقرير سياسة عقلية ومنهج للسلوك مناطها (الايمان بعدالة الله ــ واهب الحياة والارادة الحرّة للانسان)، ولهذا يمكن القول بأن ابن خلدون من الذين يعتمدون على العقل ويثقون به ، ولكن الى حد ، فهو لا يسترسل في الاعتماد على العقل استرسالاً كلياً ، بل انه يرى ، ان نطاق مدركات العقل محدود بحدود طبيعية لا سبيل الى اجتيازها بالمحاكمات النظرية وحدها ، إذ العقل البشري عاجز عن ادراك ما يقع وراء المحسوسات (من أمور التوحيد ، ومسائل المعاد ، وحقائق صفات الله ، وسائر الأمور الروحانية) [1] .

وفي المقدمة ــ فقرات ملحوَظة ــ يسكن الخروج منها ، بأن عقلية ابن خلدون تمتاز بصفات أبرزها : دقّة الملاحظة ونزعة البحث والتصميم ، والقدرة على الاستقراء ، ولسنا بحاجة الى القول إننا لا نستطيع الاسترسال في الكلام عن المقدمة ومزاياها ، فهذا يحتاج الى مجلد ضخم ، ولكننا نختم بحثنا باعترافات لكبار علماء الغرب ، مشفوعة بخلاصة موجزة عن نظرة الاسلام الشاملة الى فلسفة التاريخ .

قال (دي فو) في كتابه (مفكرو الاسلام) :

« ان نزعة الاهتمام بالبحث ، في كل شيء ، في أسباب النشوء والتطور ، وأسباب الحدوث والتقدم ، تضع ابن خلدون (كاتب القرن الرابع عشر) في

---

(١) ... والدبن يعمدون على سلطان العقل وحده ، في الوصول الى عقيدة سليمة راسخة ، وفكرة كلية واضحه ، نفسر هذا الوجود وتحل ألغازه ، قد جاوزوا بالعقل حدود اختصاصه ، وأهملوا جانبا هاما من الفطرة الانسانية هو جانب الشعور والوجدان ، جانب القلب ، كما أغلقوا على أنفسهم بابا واسعا ما كان أحوجهم اليه ، وما أضل سعيهم بغيره ، هو باب الوحي .

ان العقل مهما أوتى من الذكاء ، والقدرة على التجربه والقياس والاستنتاج ، محدود بحدود الطاقة البشريه مقيد بقيود الزمان والمكان ، والوراثه والبيئة ، فلا غنى له أبدا عن سند ومعين ، يسدده اذا أخطأ ويهديه اذا ضلّ ، ويرده الى الصواب إذا شرد ، وهذا السند هو الوحي ، الذي هو أساس الدين . (يضمن تآلف القلوب ، ووحده الرأي والهدف ، بالاضافه الى تحقيق العدالة ، وشمول الرحمه والسعادة ،

ينظر كتاب ــ الايمان والحياة ــ للدكتور يوسف القرضاوي ص ١٠٦ .

مصافّ أرقى العقليات في أوربا الحالية » .

وقال الاستاذ (فارد) الامريكي ، في كتاب علم الاجتماع النظري :

« كانوا يظنون أن أول من قال وبشّر بالحتمية في الحياة الاجتماعية هو (مونتسكيو) أو (فيكو) ، في حين أن ابن خلدون ، كان قد قال بذلك ، وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة ، قبل هؤلاء بمدة طويلة » .

أما (توينبي) الاستاذ بجامعة اكسفورد في كتابه (دراسة في التاريخ) فيعدّ ابن خلدون من العباقرة ، ويرى في مقدمته دلائل ساطعة ، على سعة النظر ، وعمق البحث ، وقوة التفكير ، ويتابع أحكامه في ابن خلدون فيقول :

« إن ابن خلدون ــ في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام ــ قد أدرك وتصوّر ، وأنشأ فلسفة التاريخ ، وهو بلا شك أعظم عمل من نوعه ، خلقه أي عقل ، في أي زمان ومكان » .

ونختم هذا البحث بعرض موجز عن نظرة الاسلام الشاملة الى فلسفة التاريخ .

● **نظـرة الاسلام الشاملة الى فلسفة التاريخ :**

ان ثمة حقيقة أساسية تبرز واضحة (في القرآن الكريم) تلك أن مساحة كبيرة من سوره وآياته قد خصصت (للمسألة التاريخية) التي تأخذ أبعاداً واتجاهات مختلفة ، وتتدرّج بين العرض المباشر ، والسرد القصصي (الواقعي) لتجارب عدد من الجماعات البشرية ، وبين استخلاص (للسنن التاريخية) التي تحكم حركة الجماعات (عبر الزمان والمكان) مروراً بمواقف الانسان المتغيرة من الطبيعة والعالم ، وتبلغ هذه المسألة (أي التاريخية) حداً من الثقل والاتساع في القرآن الكريم ، بحيث أن جلّ سوره ، لا تكاد تخلو من عرض (لواقعة تاريخية) ، أو إشارة سريعة لحدث ما ، أو تأكيد على قانون أو سنّة ، تتشكّل بموجبها حركة التاريخ .

ان القرآن الكريم لا يقدّم قصصه ومشاهداته لمجرد ترف ذهني ، بل انه

يأتي بمعطياته التاريخية ، من أجل أن يحرّك الانسان نحو غاية الاسلام (نحــو الحكمة والرحمة والعدالة الإلهية) ويبعده في الوقت ذاته (فرداً وجماعة) عــن مزالق الشقاء، التي أودت (ويمكن أن تودي) بمصائر عشرات الأمم والشعوب ، لتنكّبها جــادة الصواب وطريق العدالة ، وانحرافها عن منهاج الله ، الذي ارتضاه الله لعبــاده المؤمنين ، ليمثّلوا إرادته ، ويحقّقوا مــراده ، في ســعادة الانسان والانسانية ، في الحاضر والمستقبل . قال تعالى :

● « قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هــذا بيان للناس وهــدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » [1] .

ان أي حــدث تاريخي ، إنما يأتي (في الأصل) تعبيراً عن إرادة الله ، التي تصوغه (في الواقع) من خلال إرادة الانسان ، وقد منحه الله الحرية لكي يصنع تاريخه الفردي والجماعي، ربطاً بين الماضي والحاضر ، وبحثاً عن المستقبل الأفضل.

حرية مسؤولة عن هندسة السلوك (وصياغة الحدث التاريخي) ولا بد أن يكون الجزاء في شريعة الله من جنس العمل .

وعندما يستخدم الانسان حريته لصياغة الحدث التاريخي ، وتوجيه المصير ، انما يمارس نشاطه ، معتمداً على ما ركّب في وجوده من قوى العقل والإرادة ، والانفعال والحسّ والحــركة ، في حــدود قدراته وخبراته وامكاناته الذاتية ، والمؤثرات البيئية ، وفي حدود التخطيط الإلهي الشامل (النظام العــام الكوني للحياة) والتي تعتبر إرادة الانسان الحرّة منطوية في مضمونه .

والنتيجة التاريخية (التي ترتّبها المشيئة الإلهيــة ــ على التجربة الفردية والجماعية) انما تأتي منبثقة عن طبيعة التجربة (وهل تجزون إلا ما كنتم تعملون) متشكّلة بشكلها ، حاملة بصماتها ، وهذا هو العدل الإلهي ، بمفهومه الشامل

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ١٣٨ ــ ١٣٩ .

الدقيق (١) .

هذه نظرة الاسلام الشاملة الى (فلسفة التاريخ) نظرة واعية محقّقة ، تربط بين الماضي والحاضر والمستقبل ، تؤدب المؤمن على مواجهة مسؤوليات الحياة ، بقوة العلم ويقظة الايمان (٢) ، إيماناً بعدالة الله (٣) وحرصاً على صياغة السلوك

---

(١) ينظر كتاب ـ التفسير الاسلامي للتاريخ للدكتور عماد الدين خليل .

(٢) قال الله تعالى :

● « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقو الله ان الله خبير بما تعملون » . سورة الحشر : ١٨

(٣) ان الايمان بعدالة الله (في مكافاة المحسن ـ أو مؤاخذة المسيء) هو ذروة الايمان ، ومحور العقيدة ، ولا باس ان يعلم المؤمن في هذا المجال ، بان الله تعالى ، سبق في علمه وإحاطته الازلية ، مقادير الاشياء ، واحوالها التي ستكون عليها بحيث يكون ايجادها بعد ، (مقرونة باسبابها) طبقا لما أحاط به علمه ، وسبق به كتابه ، قال الله تعالى :

● « ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم **إلا في كتاب** ، من قبل ان نبرأها ، إن ذلك على الله يسير ، لكي لاتاسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ..... سورة الحديد : ٢٢ .

● « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس **إلا في كتاب مبين** . » سورة الانعام : ٥٩

● « وما تكون في شان وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر **إلا في كتاب مبين** . » سورة يونس : ٦١

● ولقدخلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . » سورة ق : ١٦

(**والكتاب المبين**) الوارد في الآيات الكريمة ، هو اللوح المحفوظ ، الذي ذكره القرآن الكريم ، مشيرا الى التخطيط الإلهي الشامل (والنظام العام الكوني للحياة) (الذي يشع بعدل الله الشامل ـ وعلمه المحيط) .

وقد أخبرنا الله سبحانه مسبقا عن ذلك ، حتى نؤمن بالقضاء والقدر (بعدالة الله الشاملة وعلمه المحيط) فلا يصيبنا الحزن والياس (إذا واجهنا قدر المؤاخذة) ولا الفرح المفرط (في حال المكافاة) لان كلا الحالين ينطوي على الاثر السيء بمستقبلنا الصحي (نتيجة للهيجان المصادم ـ سلبا او ايجابا).

فالايمان يدعونا للصمود في مواجهة الاحداث ، كما يهيب بنا لتصحيح الاتجاه وتعديل السلوك على ضوء المنهاج الإلهي .

وتاكيدا لهذه المعاني (لعدالة الله الشاملة ـ وعلمه المحيط) يقول الله تعالى :

● « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ... » سورة الرعد : ١١

● « لكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ... » الرعد : ٣٩

● « فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون » الصافات . ١٢٢ ـ ١٢٣

● « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » الزلزلة : ٧ ـ ٨

لقد أدركنا بوضوح مفهوم الايمان بعدالة الله ، بالقضاء والقدر ، خيره وشره من الله تعالى ، خيره (في مكافاة المحسن) وشره (في مؤاخذة المسيء) .

وقد يزعم الانسان (جهلا بشريعة الله) أنه لا بد من وقوع القدر (ولو منقطعاً عن أسبابه) وحينئذ ، لا فائدة من اكتساب العلم النافع ، أو ممارسة العمل المثمر ، ولا من جهاد النفس والهوى ، ولا من أية محاولة للوصول الى المقاصد المشروعة : من طرقها المعهودة ، التي جرت بها سنة الله في الوجود ، إذ لا بد (بهذا الزعم الباطل) من وقوع الحدث التاريخي (القدر) سواء أوقعت أسبابه أم لم تقع !!...

إن من زعم هذا ، فقد أخطأ الفهم لشريعة الله ، وشوّه (في نفسه) الايمان بعداله الله ، وفكك معنى القدر ، وآمن ببعضه ، ولم يؤمن بالبعض الآخر !! ذلك ، إن الله تعالى (وهو الحكم العدل) وسع كل شيء رحمه وعلما ، وسع كرسيه السموات والارض ، كما علم الأشياء ، علم أسبابها ونتائجها وأحوالها وظروفها ، وربط بعضها ببعض في علمه ، ومجموع ذلك هو القضاء والقدر (وقل إن شئت ــ النظام العام الكوني للحياة ــ الذي تمتزج في معناه ، عدالة الله الشاملة وعلمه المحيط) . فاذا أراد الله أمراً ، يسر له أسبابه الموصلة إليه (في علمه) حتى يقع على الوجه الذي علمه .

وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ، حين سأله الجهني فقال :

« يا رسول الله ... فيم العمل ؟... ويعني بذلك (في مواجهة القضاء والقدر) فقال (ص) : مشيرا الى سنة الله في الكون (**العقيدة منطلق السلوك ـ والجزاء من جنس العمل**) .

- « إن أهل الجنة ييسرون لعمل أهل الجنه ... وأهل النار ييسرون لعمل أهل النار ... » مؤكداً بذلك قول الله تعالى .
- فاما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى .» سوره (والليل اذا يغشى) . الآية : ٥ ــ ٦
- « ان الذين لا يرجون لقاءنا ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ، تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . » سورة يونس الآيات : ٦ ــ ٩

لقد قررت شريعة الله بوضوح وصراحة ، ان الرزق مرتبط بالسعي ، وان الأمن مقرون بتحقيق العدالة وحراستها ، وان النصر مع الصبر (والصمود) .

وهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قولية وعملية ، توجهنا الى ممارسة الاسباب ، وإتيان البيوت من أبوابها ، فقد لبس الرسول الكريم الدروع في الحروب ، وحفر الخنادق ، واستعمل العيون والحرّاس ، واستنصر بالحلفاء ، واستعان بالاصحاب ، وتداوى وأمر بالتداوي ، وكان يدخر لقوت أهله ما يكفيهم عاما : وأمر بالاقتصاد في العيش ، والشورى في الرأي ، والتعاون على البر والتقوى .

ومن جوامع الكلم وفصل الخطاب (في هذا المعنى) قوله صلى الله عليه وسلم (فيما يرويه مسلم في صحيحه) « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وان أصابك شيء ، فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا ، ولكن قل : قدّر الله وما شاء فعل ، فان (لو) تفتح عمل الشيطان .

(ينظر كتاب ـ من روائع الادب النبوي للدكتور محمد كامل الدقس ص ٢١٢ وما بعدها) ٠

فالمؤمن مكلف بتنفيذ أمـر الله (علما بشريعة الله ـ وعملا بطاعته) يأخـذ بالاسباب ، ويغتنـم الفرص ، ما وسعته الطـاقة ، وحالفته الظروف **يرجـو معـونة الله** ، **ويتلمس عنـايته** ، **ويتمثل عدالته** في مثـل قـوله تعـالى :

- « ولكـن البرّ من اتقى ٠٠٠٠ » سورة البقرة : ١٨٩ (وهـذه الآيـة تعني أن العنـاية الإلهيـة منطلقهـا تعظيـم المؤمن لأمـر الله) ٠
- « ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخـر ، والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المـال على حبـه ، ذوي القـربى واليـامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقامالصلاةوآتىالزكاة، والموفون بعهـدهم اذا عاهدوا ، والصابرين في البأسـاء والضراء وحين البأس ، أولئك الـذين صدقوا وأولئك هم المتقون ٠ » سورة البقرة : ١٧٧ ٠

ـ وهذه الآية الكريمة ـ تصف التقوى وتعظيم أمر الله ، في ميدان الاخلاق والعلاقات الاجتماعية ـ ٠

كما يذكـر المؤمن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما اخرجه الامام مسلم :

- « كل شـيء بقضـاء وقـدر ، حتى العجز والكيس » ٠
- « الكيس ، من دان نفسه ، وعمل لما بعـد الموت ، والعاجز ، من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الامـاني » ٠

أجل ـ حين يسلك المؤمن سبيل البر والخـير والتقـوى (والمكافـأة) ، فهـذا السلوك داخل في مضمون القضاء والقـدر (والنظـام العـام الكوني للحيـاة) ، كما ان سلوك الانسان (الغافل) سبيل المؤاخـذة (وانبـاع الهـوى) لا يخرج عن مضمون القضاء والقـدر (والعدالة الإلهية الشاملة) ، ولا بد أن يكون الجـزاء ، في شـريعة الله ، من جنس العمل ٠ قـال تعـالى :

- « فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فان الجحيم هي المأوى ٠ واما من خـاف مقـام ربـه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى ٠ » النازعات : الآيات : ٣٧ ـ ٤١ ٠

لقـد أعطـانا القـرآن الكريم ، درسا بليغـا (عقب غـزوة أحـد) ، في معنى القضاء والقـدر ، معللا أسباب الفشل والهزيمة ٠٠٠٠ قـال تعـالى :

- « أولمـا أصابتكم مصيبة ، قد أصبتم مثليها ، قلتم أنى هـذا ؟٠٠٠ قل هو من عنـد أنفسكم إن الله عـلى كل شـيء قـدير ٠ » آل عمـران : الآية : ١٦٥

ومعنى لآية الكريمة : أولما أصابتكم مصيبة (في قتل سبعين من المسلمين في غـزوة أحـد) ٠

قد أصبتم مثليها (يوم بدر ، حين قتلتم من عدوكم سبعين ، وأسرتم سبعين) ٠

قلتم أنى هـذا (من أين جـاءت هـذه المصيبة ، وهـذه الهزيمة ؟ !!) ٠

قل هـو من عنـد أنفسكم (أي بسبب إهمال الرماة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٠

هذه حيوية **الاسلام** ونظـرته الشاملة الى أحـداث التاريخ ، يدعونا الى يقظة العـلم والايمـان في (المنطلق) ، كما يدعونا الى الاطمئنان الى عـدالة الله ـ بعد وقوع القـدر ـ صموداً في مواجهة الأحداث ، لنستدرك التقصير ، ونصحح الاتجـاه ، ونستأنف السلوك السويّ المنسجم مع عـدالة الله ٠

إن الايمان بعدالة الله (بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى) يوقظ في المؤمن شعوره بالمسؤولية، نحـو نفسه ونحـو الآخرين ، وهـو الذي جعـل من أمتنا العربية خـير أمـة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عـن المنـكر وتؤمن بالله ٠

الفصل السابع

العلوم العقلية عند العرب
الفلسفة

تقديم :

امتاز الانسان عن الحيوان ، بموهبة العقل (القوة المفكرة ــ المتطوّرة) التي وهبه الله تعالى إياها ، تكريماً له ، وتنويهاً بشأنه ، قال تعالى :

- « ولقد كرّمنا بني آدم » سورة الاسراء : آية : ٧٠

قال ابن عباس : كرّمهم سبحانه ، بالعقل .

والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ، وهو أيضاً ميزان التعادل (التوازن) في الانسان ، وسرّ الله فيه وعلاقته القائمة بينه وبينه ، به تعرفه (أي تدرك حكمته ورحمته وعدالته) وتعرف نفسك (حيث خلقك فسوّاك فعدلك) وتعرف مبدأك ومنتهاك ، وتعرف مكانك في الوجود الذي أنت فيه .

وعقل الشيء معرفته بدلائله ، وفهمه بأسبابه ونتائجه [١] ، العقل قبس من نور الله ، مناط التكريم والتكليف (والمسؤولية) في الانسان ، أودع الله فيه خصائصه المميزة وقوانينه المنظمة (كمركز قيادة في الذات الانسانية) تمكّن الانسان من التلاؤم مع واقعه ، وتنمية مواهبه ومكاسبه ، وتنسيق علاقاته بالآخرين ، تحقيقاً لغاية وجوده .

ومن أوضح سمات القرآن الكريم التي لفتت أنظار الباحثين والدارسين

(١) ينظر ـ تعريف العقل للشيخ محمد عبده ـ كتاب اصول التربية الاسلامية للدكتور سعيد اسماعيل علي ص ٣٠ .

(الاشادة بالعقل) ، وتوجيه النظر الى استخدامه بما يفيد وينفع ، فدعا القرآن الى تقدير العقل والرجوع اليه ، فيما اختص به من تفكير ، ويحرص القرآن على تأكيد هذا المعنى حتى أنه ليكرر الدعوة بشكل يلفت النظر ويثير الاهتمام .

وقد وردت مادة « عقل » بصيغة المضارع « يعقلون » تعقلون ، نعقل ، في خمسين آية من آيات القرآن الكريم .

ويشير القرآن الى العقل بمعانيه المختلفة ، مستخدماً لذلك كل الألفاظ التي تدل عليه أو تشير اليه ، من قريب أو بعيد : من التفكر ، والنظر ، والتدبّر ، والرأي ، والحكمة ، والعلم ، والفقه ، والرّشد ، والبصر ، الى غير ذلك من الألفاظ التي تدور حول الوظائف العقلية على اختلاف معانيها وخصائصها وظلالها، مما يعتبر ايحاءات قوية بدور العقل وأهميته بالنسبة للانسان .

والقرآن الكريم ، لا يذكر العقل الا في مقام التعظيم ، والتنبيه الى وجوب العمل بمقتضاه والرجوع اليه ، ولا يأتي تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه (التي يشرحها علماء النفس في العصر الحديث) بل تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف خصائصها ، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص ، في مواطن الخطاب ومناسباته ، فلا ينحصر خطاب العقل (في العقل الوازع) ولا (في العقل المدرك) ولا (بالعقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح) ، بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية ، كل ما يتسع له الذهن الانساني من خاصة أو وظيفة .

وفريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الانساني (بكل ما احتواه من هذه الخصائص) فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ، تحقيقاً لتنمية القوى الواعية لدى الانسان المؤمن ، الذي اتصل تفكيره بشريعة الله، واتصلت إرادته (سلوكه في الحياة) بمراد الله (بمقتضى حكمته ورحمته وعدالته) فاذا هو الانسان (المدرك لغاية وجوده) الواعي لمعنى (خلافة الله في الأرض) يمثل القوى الدافعة للحركة الحضارية ، يسير بالحياة ، ويرقى بها

نحـو التطور والازدهار والتكامل .

وسنتابع ـ معاً بإذن الله ـ نظرة الاسلام الشاملة إلى فاعية العقل ونشاطه، بعدأن نستعرض علماً من أعلام الفكر والفلسفة الاسلامية .

بعد هذه ـ الاشارة العابرة ـ الى تعريف العقل، ونظـرة الاسلام اليه، سنأتي على استعراض صور جذّابة من صـور النشاط العقلي عنـد المسلمين (الفلسفة الاسلامية) بالحديث عن علم من أعلامها هو (الفارابي) .

ولد (أبو النصر الفارابي) محمد بن محمد بن طرخان، في بلدة (فاراب) في بلاد الترك، من أرض خراسان، وذلك عام ٨٧٢م وتوفي في دمشق عام ٩٥٠م .

وقـد جمع الى الفلسفة العربية، الرياضيات والموسيقى، وكان يتقن مـع (العربية) التركية، والفارسية، واليونانية .

كان منتجاً أبعد حدود الانتاج، أخـرج الى الناس من المؤلفات والرسائل ما يزيد عن المائة أهمها : (آراء أهـل المدينة الفاضلة) و (المدخل الى علـم الموسيقى) و (احصاء العلوم والتعريف بأغراضها) و (المدخل الى علم المنطق) و (تحصيل السعادة) .

وقد سار في عرض أكثرها على أسلوب ممتاز، بالقصد في اللفظ، والعمق في المعنى، مع دقّة في التعبير، وقوة في التماسك، وحسن الانسجام والنظام في التأليف، وربط المواضيع ربطاً محكماً منطقياً .

ومن المؤسف حقاً أن تضيع أكثر مؤلفاته أثناء الانقلابات والفتن، وقد سلم منها القليل، ومن هذا القليل ترجم الأوربيون ما وقع في أيديهم .

وأثنى (روجر بيكون) على الفارابي وعلى بعض مؤلفاته، وكان نبراسـاً لحكماء الشرق والغرب، وسـراجاً وهّاجاً يستضيئون بنوره، ويسيرون على هداه، ولا يزال رجال العلم والفلسفة في أوربا وأمريكا يهتمون به الى اليوم .

اشتهر بالمنطق، واهتم بشرح آراء المعلم الأول (أرسطو) وبيان فلسفته،

وتقريب فهمه إلى معاصريه ، مما جعل له عند العرب مكانة مرموقة حتى لقبوه بـ (المعلم الثاني) بعد أرسطو (المعلم الأول) قد جعل الفيلسوفين على قدم واحدة من المساواة ، ومن المؤرخين من سماه : (فيلسوف الاسلام) ، أما (ابن خلكان) فقد ذكر أنه (أكبر فلاسفة المسلمين) .

واطلع المؤرخون في أوربا وأمريكا على فلسفة الفارابي ، ودرسوها وتأثروا بهـا ، وخرجوا بالقول أن الفارابي مؤسس الفلسفة العربية ، وقال : (دي فو) : إنا لفارابي شخصية قوية وغريبة حقاً وهو عندي أعظم جاذبية وأكثر طرافة من ابن سينا ، لأن روحه كانت أكثر تدفّقاً وجيشاناً ، ونفسه أشد تأجّجاً وحماساً ، لفكره وثبات كوثبات الفنان ، وله منطق مرهف بارع ، ولأسلوبه مزيّة الايجاز والعمـق .

وكان للفارابي أثر بليغ في الاسلام وفلاسفة القرون الوسطى ، يدلنا على ذلك آثاره التي نجدها في مصنفات هؤلاء ، التي تناولت آراء الفارابي ونظرياته ، بالعناية والاهتمام بهـا ، (شرحاً وتعليقاً) .

وقد اشتهر بتفسيره لكتب (أرسطو) لا سيما فيما يتعلق بالمنطق ، وهـو يعدّ في هـذا المضمار من أعظم المفسّرين ، ولكن فضله لا يقف عند التفسير ، ولا عند التمهيد للنهضة الفلسفية في الاسلام ، بل ان أنظاره المبتدعة ، وبحوثه في الحكمة (العلمية والعملية) لم يتهيـأ بعـد للباحثين كـل الوسائل لتفصيلها تفصيلا وافيـاً .... » .

ويرى كثيرون أن اهتمام الفارابي بالمنطق بهذا الاهتمام العظيم ، قد أثّر في التفكير عند العرب ، وتقدم به خطوات ، فقد اعتبره آلة للفلسفة ، وأداة يمكـن بواسطتها الوصول الى التفكير الواضح الصحيح ، وقد قال في هذا الشأن مايلي :

« وأقول ، ولما كانت الفلسفة انما تحصل بجودة التمييز ، وكانت جـودة التمييز انما تحصل بقوة الذهن على ادراك الصواب ، كانت قوة الذهن حاصلة لنا قبل جميع هذه ، وقوة الذهن إنما تحصل متى كانت لنا قوة بهـا نقف على الحق ،

أنه حقّ يقين فنعتقده ، وبها نقف على الباطل أنه باطل يقين فنجتنبه ، ونقف على الباطل الشبيه بالحق فلا نغلط فيه ، ونقف على ما هو حق في ذاته وقد أشبه بالباطل فلا نغلط فيه ولا نخدع ، والصناعة التي بها نستفيد هذه القوة تسمى صناعة المنطق ، وقد انتهى الفارابي الى تعريف المنطق بالمعنى التالي :

« المنطق هو العلم الذي نعلم به الطرق التي توصلنا الى تصوّر الأشياء ، والى تصديق تصوّرها على حقيقتها » .

وفي نظر الفارابي قانون للتعبير بلغة العقل الانساني عند جميع الأمم ، فنسبة صناعة المنطق الى العقل والمعقولات ، كنسبة صناعة النحو الى اللسان والألفاظ ، فكل ما يعطينا علم النحو من القوانين في الألفاظ ، فان علم المنطق يعطينا نظائرها في المعقولات .... وعلم النحو انما يعطي قوانين تخصّ ألفاظه أمة ما ، وعلم المنطق انما يعطي قوانين مشتركة تعمّ ألفاظ الأمم كلها ... » .

ولقد أنصف (ابن صاعد) في كتابه « طبقات الأمم » الفارابي ، فاعترف بأنه بزّ في صناعة المنطق أقرانه ، وأربى عليهم في التحقق بها ، فشرح غامضها وكشف أسرارها ، وقرّب تناولها ، وجمع ما يحتاج اليه منها ، في كتب صحيحة العبارة ، لطيفة الاشارة ، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة ... » .

وتعرّض الفارابي لنظرية المعرفة ، وقد أودع بعض عناصرها متفرقة في كتبه ورسائله ، فمن عناصر نظرية المعرفة الصحيحة ـ عند الفارابي ـ كما جاء في كتاب الدكتور عمر فروخ عن الفارابي وابن سينا ، المباينة ، أي اختلاف شيء من آخر ، في ناحية تشعر بها الحواس ، كالاختلاف في الحجم والملمس واللون والطعم والرائحة ، ومنها المعرفة ببادىء الرأي ، أي معرفة هذه الأشياء (معقولة في نفوسنا) وقد استقرت منذ الطفولة الأولى ، ومنها التخيّل ، أي قياس ما لا نعرف على ما نعرف » .

وكان الفارابي يؤمن بالمنطق وبفوائده وأثره البالغ في الحياة العقلية ، وكيف أنه يمكن بالمنطق معرفة الآراء صحيحها وفاسدها ، سواء أكانت منّا أم

من غيرنا ، وإدراك الزلل أو الصواب ، وقد قال الفارابي في هذا الشأن : « فإنا إن جهلنا المنطق لم نقف (من حيث تتيقّن) على صواب من أصاب منهم ، كيف أصاب ؟.. ومن أيّ جهة أصاب ، وكيف صارت حجّته توجب صحة رأيه ... ولا على غلط مهم أو كيف غلط ، ومن أيّ جهة غالط أو غلط ، وكيف صارت حجته لا توجب صحة رأيه ... فيعرض لنا عند ذلك ، إما أن نتحيّر في الآراء كلها ، حتى لا ندري أيها الصحيح وأيها الفاسد ؟ وإما أن نظن أن جميعها على تضادها حق ، أو نظن أنه ليس في شيء منها حق ، وإما أن نسرع في تصحيح بعضها وتزييف بعضها ... » .

وله كتاب جدير بالذكر هو كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » وضع فيه مذهبه الفلسفي كله ، فيما يتعلق بآرائه في الإلهيّات والنفس الانسانية ، وفي الأخلاق والسياسة ، ويقول الاستاذ العقاد في صدد هذا الكتاب : « ويمتاز الفارابي من بين فلاسفة الاسلام ، بأنه عالج البحث في السياسة ، من الناحية الفلسفية الخالصة ، فالتفكير السياسي في نظام الدولة ، وتصوّر المثل الأعلى للحكم ، ووضع الموازين الخلقية ، والمقاييس السياسية ، وتحديد الغاية من الحاكم والمحكوم ، ونقد المجتمع الذي يؤدي إلى الشرور والمفاسد ، كل هذه من الوسائل التي انفرد الفارابي بالبحث فيها ، والتي تدل على قوة الشخصية واستقلال الرأي... إلى أن يقول (أي الاستاذ العقاد) والمدنية الفاضلة اسم أطلقه الفارابي على (المثل الأعلى للحكم) ويريد به المدنية التي تحقق لأعضائها السعادة القصوى في الدارين ... (الدنيا والآخرة) » .

وفي الواقع ، ان مدنية الفارابي هذه ، ليست كما يتصور بعض المؤرخين ، صورة مصغّرة لجمهورية أفلاطون اليوناني (على الرغم من بعض المشاركات والتشابه بينهما في الأصول) ولكن اختلافاً كبيراً في الفروع والتفاصيل ، فلقد استعان الفارابي بفلسفة اليونان ، واستعان بالاسلام وأحكامه ، وأضاف إلى هذا كله تجاربه وخبراته ، فكانت مدينته الفاضلة مدينة جديدة ، أحسن فيها الاختيار والاقتباس ، وأحسن فيها المزج والاستنباط ، فظهرت فيها قواعد سامية وأصول

علمية ، يجدر بكل أمـــة السير عليها والاقتراب منها .

من هذه القواعد والأصول ما يتصل بالأمة وأنها جسم واحد ، لا يستقيم أمره إلا بالتضامن والتعاون ، وتوزيع الأعمال وتنسيقها ، على أساس الاستعدادات والمواهب والقابليات ، وان الدولة لا تتقدم ، ولا تسير نحو السعادة قدماً ، إذا لم يكن على رأسها الحكماء والفلاسفة ، المعروفون بكمال العقل وقـــوة الارادة ، وخصوبة الادراك والخيال ، وخصال أخرى سردها (الفارابي) على الوجه التالي :

« ويجب أن يقوم بإدارة المدينة المثالية رئيس عادل ، حائز للخصال الآتية : أن يكون بالطبع جيّد الفهم والتصوّر لما يقال له ، جيّد الحفظ لما يفهمه ، ولمـا يراه ويسمعه ، ولما يدركه ، جيـد الفطنة ذكيّاً ، وإذا رأى الشيء بأدنى دليـل فطن له ، محباً للتعليم والاستفادة ، منقاداً له ، سهل القبول ، لا يؤلمه تعب التعليم ، ولا يؤذيه الكدّ الذي يناله منه ، محباً للصدق وأهله ، مبغضاً للكذب وذويه ، كبـير النفس ، محباً للكرامة ، تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين من الأمـور ، وتسمو نفسه بالطبع إلى الأرفع منها ، ثم أن يكون بالطبع محباً للعدل وأهله ، ومبغضاً للجور والظلم وأهلهما ، يعطي النصف (الانصاف) من نفسه وأهـله ، ومن غيره ، ويحثّ عليه ، عدلا غير صعب القياد ، ولا جموحاً ولا لجوجاً إذا دعي الى العدل ، بل صعب القياد إذا دعي الى الجور ، والى القبيح ، ثم أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يُفعل ، جسوراً ، مقداماً ، غير خائف ولا ضعيف النفس .... » .

فاذا لم تجتمع هذه الخصال كلها في رجل واحد ، بحث عن رجلين أو ثلاثة رجال أو أكثر ، جامعين معاً للخصال المطلوبة من الرئيس ، وعهد اليهم (كمجلس قيادة) في الحكومة .

والفارابي فوق ذلك كلـه ، أول من عني بإحصاء العلوم ، يتجلى ذلك في كتـابه « إحصاء العلوم » الذي نشره الدكتور عثمان أمين . ويرى « مونك » و « فارمر » أن هـذا الكتاب يدل على أن الفارابي هـو أول من وضع النواة

لدوائر المعارف في العالم ، وقد أيّد هذا القول ، الاستاذ مصطفى عبد الرزاق فقال : « فليس مجانباً للحق ، قول من يرى أن الفارابي هو أول من وضع دائرة معارف ، ولسنا نعرف من قبل الفارابي ، من قصد الى تدوين جملة المعارف الانسانية في زمنه ، موطأة مجملة ، يسهل تناولها على المتأدبين ... » .

وكان هذا الكتاب محل عناية المؤلفين والعلماء في الغرب ، وقد ترك أبلغ الأثر في نظريات تصنيف العلوم في القرون الوسطى .

والفارابي مخلص للحقيقة ، محباً لها ، ويدعو الى محبتها والاخلاص لها ، فقد جاء في كتابه : « **ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة** » في الفصل الذي يبحث في (معرفة الحال التي يجب أن يكون عليها الرجل الذي يؤخذ عنه على الفلسفة) ما يلي :

« وأما الحال التي يجب أن يكون عليها الرجل الذي يؤخذ عنه علم الفلسفة — فهي أن يكون في نفسه قد تقدّم ، وأصلح الأخلاق في نفسه الشهوانية ، كيما تكون شهوته للحق فقط ، لا للذّة ، وأصلح مع ذلك قوة النفس الناطقة ، كيما يكون ذا إرادة صحيحة .

ولقد دفعت محبة الفارابي للحق ، واخلاصه للحقيقة ، الى أن يقول بإبطال صناعة التنجيم بحجج عقلية مشبعة بروح التهكّم ، وبيّن الفارابي ، أن من الخطأ الكبير ما يزعمه الزاعمون ، من أن بعض الكواكب تجلب السعادة ، وأن بعضها يجلب النحس ، ودعاوى المنجّمين ونبوءاتهم لا تستحق منا إلا الشك والارتياب .

ويذكر الفارابي كذلك السبيل التي يسلكها من أراد الفلسفة ، ويبين أن السبيل هي القصد الى الأعمال ، فالقصد الى الأعمال يكون بالعلم ، وذلك أن تمام العلم بالعمل .

وأما بلوغ الغاية بالعمل ، فيكون أولا باصلاح الانسان نفسه ، ثم إصلاح غيره ، ممن في منزله أو مدينته .

ومن هنا يتجلّى أن الفارابي كان يؤمن بالكفاح وحياة العمل ، ويدعو الى

عدم الانطواء ، والانعكاف ، وأن الانسان يجب أن لا يقف عند العلم والتحصيل النظـــري فهو يقــول :

« إن للفيلسوف في هذا الكون رسالة تتجاوز العلم والتحصيل ، وهو الذي يحصّل الفضائل النظرية أولا ، ثم الفضائل العملية ببصيرة ويقينية » •

إن تحقيق رسالة الفيلسوف يخرجه الى حيـــاة العمل والكفاح والاختلاط بالناس ، حتى يتمكن الفيلسوف من القيام بما عليه من تبعات وواجبات هي اصلاح الفرد والجماعة ، فالحياة علم وعمل ، وعقيدة وجهاد ، ولا بد للفيلسوف من أن يمتاز في عمله ، كما يمتاز في علمه ، ولهذا لا عجب إذا رأيناه أهمية كبرى لعـــلم الأخلاق وعلم السياسة ، وقد تجلى ذلك في كتابه : (آراء أهل المدينة الفاضلة) الذي تحدثنا عنه آنفـاً •

وبعــد أن استعرضنا صورة (تنبض بالحياة) من صور النشاط العقــلي (الفلسفي) عند المسلمين بالحديث عن فيلسوفنا الفذّ ، نأتي على ختام هذا البحث باستكمال نظــرة الاسلام الى النشاط العقلي •

نظرة الاسلام (الشاملة) الى فاعية العقل ونشاطه :

إذا كان من شأن المنهج الاسلامي ، أن يرشد العقل ، ويقوّم الفكر ، ويسير به في الطريق المستقيم ، فان الاسلام أتبع ذلك بمبادىء قيّمة ، من شأنها أن تصل بالناس الى طريق الحق والهدى والخـــير والسلام •

أولاً : إن الناس في الفهم والتفكير وإدراك حقــائق الأشياء لن يكونوا متماثلين ولا متشابهين ، لأن الناس على درجات مختلفة ، ومراتب متباينة ، فهناك فريق من الناس ، قــد لا تهيىء له حالاته والظروف المحيطة به ، إلا شذرات من المعـــرفة ، وكم من الناس من قصرته البيئة على القشور من الحقائق ، أو حصرته التربية في دائرة ضيقة من المرئيات ، وهنـــاك من سجنته الخرافات والأساطير ، لهذا طالب الاسلام جميع المستويات الانسانية، بالنظر والتأمل والتفكير في ملكوت السماوات والأرض ، ليصل الانسان الى الايمان بالله بحركة الفكر (ارتقـــاء من

الواقع الى المثل الأعلى ــ ومن النظر بالأكوان الى الايمان بالمكوّن) .

ثانياً : لم يكتف الاسلام بتوجيه الناس الى النظر والتفكّر والتدبّر ، بل استنهض العقول ووجّه الأفهام وأيقظ الحواس ، ونبّه المشاعر ، وذلك بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية ، بمثل قوله تعالى :

- « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . إن في ذلك لآيات لأولي النهى . إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون . إنما يتذكر أولوا الألباب . وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون . سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .. » .

- « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبثّ فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون . » .

وهكذا نرى أن الاسلام (كرسالة علمية ــ تربوية) حرص على طهارة النفس ، واعتدال النظر ، واستقامة التفكير ، ليكون مراد الله (حكمته ، رحمته ، عدالته) واضحاً في الذهن ، مشرقاً في القلب والضمير ، حافزاً للسير في فلك العمل الصالح الذي تبنى به الحياة السعيدة .

وطريق الفكر الصحيح قد حدده الاسلام (بالقرآن والسنة) فيما يتعلق بالقضايا الأساسية والاعتقادية في حياة الناس ، أما ما سوى ذلك ، فانه يمكن أن يؤخذ عن طريق الحواس والتجربة والخبرة ، والنشاط العقلي (الذي يزن كل معطيات الحس) .

ولقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الطريق السويّ بقوله تعالى :

- « ولا تَقْفُ (أي تتبع) ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد ،

كل أولئك كان عنه مسؤولا • » الاسراء : ٣٦

وهذه الآية الكريمة (تنهى عن اتباع) ما لم يقم به علم ، يستند الى حجّة سمعية أو رؤية بصرية ، أو براهين عقلية (وهي طرق الاستدلال المعهودة) حتى يكـون نشاط المسلم العقلي (وهندسة سلوكه) قائماً على أساس علمي تربوي صحيح •

شمس العرب المسلمين تشرق على العالم

« شهادة من الدكتور أنور حاتم لأمته »

إذا كانت الكاتبة الألمانية « زيغريد هونكه » قد شهدت للعرب (المسلمين) بأنهم ، هم الذين حرروا أوربا وعلموها وهذبوها ، وألّفت في ذلك كتابها الجليل (شمس العرب تسطع على الغرب) ، فمن حق أديب عالم مثل الدكتور أنور حاتم (الاستاذ في جامعة فريبورغ في سويسرا) ، أن يؤدي لأمته العربية مثل هـذه الشهادة وأكثر •

الحضارة اليونانية جاءت من الشرق :

ولد الفكر الأوربي في جزيرة اليونان ، والعلماء مجمعون على القول ، ان هـذا الفكر قد انطلق من الديانات والبحوث والتأملات التي نشأت في الشرق الأدنى ، واعترف اليونان بذلك منذ عهد (هيرودوت) المؤرخ ، فالحكماء السبعة الذين سبقوا سقراط ، ومهدوا له السبيل ، من أصل شرقي •

وعن كهّان ومفكـري (مصر ، وكلدة ، وآشور) وبلاد كنعان ، أخـذ (تاليس) ــ وهو من أصل فينيقي ــ مبادىء علم الفلك ، ونظرته الوحدوية الى الكون (٦٢٣) ق•م •

وعلى كهّان مصر وكلدة وآشور ، وفينيقيا ، تتلمذ (فيثاغورس) صاحب النظرية القائلة ، بأن كل شيء يعود الى العدد ، وهو واضع قواعـد الرياضيات والفيزياء والموسيقى ، وقد سيطرت اتجاهاته على الغرب أجيالا عديدة ، ونشـأ عليهـا سقراط وأفلاطون •

وهكذا ، أنجب الشرق الأدنى أوربا قديماً ، وان ما سمّاه (أرنست رينان) معجزة اليونان ، تتلخص بقيام اليونان بتدوين ما ابتدعته عبقريات الشرق الأدنى من الآثار ، بشكل منسّق ••••

ثم انتقلت أوربا من اليونان إلى روما (التي جاء سكانها وسكان شبه الجزيرة الايطالية ــ هم أيضاً ــ من أقطارنا) ، إلا أن الرومان سلكوا في بادىء الأمر سبيلا خاصة بهم ، فاستعاضوا عن الفردية (بتأليه الدولة) وآثروا ذبح شخصية الفرد ، تحقيقاً لمجد الحكم، وبنوا المبادىء الحقوقية على المظاهر الخارجية والشكليات بدلا من اعتبار الاعمال بالنيّات •

واشتهرت أوربا الأولى (اليونان والرومان) بعبقريات من أبناء بلادنا ، كان لهم أبلغ الأثر في تكوين هذه القارة الجديدة (في ذلك الزمن) وتطوير حضارتها ، ومنهم (أبو لودور ــ الدمشقي) أعظم المهندسين المعماريين في الامبراطورية الرومانية ، وكان أول من شيّد جسراً على (الدانوب) وله الفضل بتخطيط أجمل ساحة عرفتها روما ، وعمود الامبراطور تراجان المرمري ، الذي قلّده نابوليون في ساحة فاندوم في باريس •

البرابرة يغزون أوربا ويدمرونها والمسلمون العرب ينقذونها ويعمرونها

لم يتح لهذا الازدهار الفكري أن يعيش طويلا ، إذ جاءت قبائل البربر من أوربا الوسطى ، وأوربا الشرقية والشمالية ، واجتاحت هذه القارة الفتيّة ، وهدمت معالم الحضارة فيها ، وفي تلك المرحلة من التاريخ ، شاءت العناية الإلهية أن ينقذ العرب العالم من الدّمار والفساد والاضمحلال ، فظهر الاسلام داعياً الى التوحيد والعدل والاخاء ، والسلم والعلم والمساواة ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، محققاً أسمى ما يصبو إليه الانسان من كرامة وعزة وكمال وسعادة •

وجاء الاسلام الى أوربا حاملا شعلة الحق والحرية ، فحطّم فيها الظلم

والأصنام ، وقضى على الخرافات والأوهام ، حيث وجدت ، وبسط لواء الأمن ، وشيد المسلمون العرب في أوربا حضارة ، ستفاخر بها الانسانية ، ما دام الانسان على الأرض •

وان نصر المسلمين ، والسرعة التي تمّت بهـا فتوحاتهم ، قـد ضمنا للقيم الانسانية العليا ، البقاء ، وشيّد الاسلام أوربا من جديد، بعد أن دمّرها البرابرة، وفرض عليها حرمة حقوق الانسان ، وغيّر وجه القارّة بل وجـه العالم أجمع ، ودفع بعجلة الانسانية ، دفعة جبارة الى الأمـام •

• المسلمون العرب كانوا أرقى شعوب أوربا،وحملوا اليها كل ألوان الحضارةوالسعادة:

كان العـرب المسلمون هم أرقى عنصر في أوربا ، وكانت بلادهم الأوربية (الأندلس) أكثر المناطق حيوية وعلماً وتقـدماً وازدهاراً ، وشأناً في الدنيـا ، وكان سائر الأوربيين ينظرون اليهم نظرة التلميذ الى معلمه ، وكان العـرب هم القدوة للأوربيين ، وكانت الثقافة الأوربية بأسمى مظاهرها تنمو في ظلال القرآن ، وكان العرب مثالا لمستوى الحيـاة الرفيع •

والمعلوم أن (قرطبة) كانت أعظم المدن الأوربية ، مساحة وسكاناً ، ويروي المؤرخون ، أن قرطبة كانت تضم نصف مليون نسمة ، ومائتي ألف بيت ، وستين ألف قصر ، وستمائة جامع ، وسبعمائة صرح للسباحة والرياضية ، وسبعين مكتبة عـامة ، منها المكتبة الملكية الكبـرى ، الذي كانت تملك نيّفاً وأربعمائة ألف مخطوط ، وكانت شوارع قرطبة تشع ليلا بالأنوار ، وكان ذلك (قبل سبعمائة سنة) من تفكير سائر الغربيين باضاءة مدنهم ، وحدّد العرب فنون عمران المدن ، وإنشاء الحدائق ، وتخطيط الشوارع ، وكان العـرب هم الذين نشروا في أوربا مبـادىء حفظ الصحة ، وعلموا الغرب بنـاء المستشفيات وإدارتها وتنظيمها ، ونهضوا بالجراحة ، وكان كبار الغربيين النصارى عندما يحتاجون إلى طبيب أو جرّاح ماهر يلجأون الى العرب ، وان أساليب العرب في تدريس الطب غدت قاعدة للطب الحـديث ، وبفضلهم اشتهرت مدارس (بادوفا) و (سالرنو) وبولونيا ــ في ايطاليا ــ و (مونبيلييه) في فرنسا •

- **لولا المسلمين ما عرفت أوربا النظـام :**

ووضع المسلمون العرب في أوربا قواعد للادارة الحديثة ، قائمة على المساواة بين المواطنين ، وتقـدير العامل في الدولة على أساس كفاءته وانتاجه ، مهما كان أصـله أو وضعه الاجتماعي ، وعلى ضـوء الشريعة السمحاء ، حطّموا الطبقية والعنصرية ، وكانت ادارتهم تجمع بين أبنـاء العرب الأصليين وبين الصقلبي (أي الروسي أو مواطن أوربا الشرقية) والصقلي والاسباني والبورتغالي والرومي ، على السّواء في خدمة الشعب تحت راية الاسلام ، تحقيقاً للعدل الشامل •

وكان العرب منذ ذلك الزمن يعتبرون التداوي هو حق من حقوق الانسان والمواطن ، فقضوا بذلك في بلادهم على الأوبئة التي كانت تفتك فتكاً في أقطـار المسيحيين •

وكان العرب منذ ذلك الزمن يعتبرون أن توفير العلم للجميع دون استثناء هو واجب من واجبات الدولة ، وتحصيل العلم هو فرض على المواطن عملا بأحكام الاسلام ، فكانوا أول شعب في التاريخ قضى على الأمية في أوربا المسلمة ، كمـا اعترف لهم بهـذا الفضل العظيم المستشرقون النصارى، وكان العرب هم السابقين في تنظيم (ديبلوماسية منفتحة ــ للعالم أجمع)وتنظيم القضاء والبريد والمواصلات والشرطة وجبـاية الأمـوال • وقـال المستشرق (جـاك ريسلر) في كتـابه عن حضارة العـرب :

« إن واردات الدولة في امارة قرطبة كانت تفوق وحدها واردات جميع أوربا اللاتينية المسيحية • والمعلوم أن الدنانير الذهبية والدراهم الفضيّة العربية كانت خلال قرون ، أثبت العملات الأوربية وأقواها ، وكانت تطلب وتدّخر في شـتى بلاد القارة ــ من البرتغال إلى البلاد الاسكندينافية » •

ومن البديهي التذكير بما للعـرب من أثر بليغ في نهضة الزراعة الأوربية ، إذ كانوا معلمين ومجدّدين ومبتكرين في انشـاء شبكات الـريّ ، والمزارع النموذجية ، ورفع مستوى الفلاحين وتربية المواشي وادخال أنواع جـديدة من

الفاكهة والخضار الى أوربا ، ومنها الكرمة (العنب) ، والزيتون والنخيل والحمضيات والسفرجل والهليون ٠

ومن البديهي التذكير بما كان للعرب من أثر بالنهوض في الصناعة الأوربية ، بما في ذلك استغلال المعادن وصنعها ، وكلّ يعلم مثلا ، ما بلغته من شهرة (دروع قرطبة) و (سيوف طليطلة) وصناعة الجلود التي لم يزل المغرب العربي يمتاز بها ٠

ونقل العرب من بلادهم الشرقية إلى البلاد الاوربية ، تربية دود القز ، وفنون النسيج ، ونبغوا في صناعة الحرير والقطن والمخمل ، والأنسجة الجميلة ، والتي لم تزل حتى الآن تحمل أسماء المدن العربية الكبرى ، وأدخل العرب الى أوربا صناعة الورق ، وصناعة الأسلحة ٠

ومن البديهي أيضاً التذكير بما للعرب من أثر بليغ على التجارة الأوربية والملاحة ، إذ غدا البحر المتوسط بعد الفتح الاسلامي ، بحيرة عربية كما قيل ، وكانت التجارة في حوض هذا البحر وفي العالم بيدهم ، وبيد عملائهم من أبناء (البندقية — وجنوة) ، وكانت المرافىء المتوسطية وخطوط المواصلات خاضعة لإشراف العرب ، من جبل طارق حتى بحر الصين ٠

● **والعرب كانوا روّاد الثقافة والأدب في الغرب ، وكانت لغتهم لغة العلم والحضارة :**

وكان العرب روّاد الأدب وعمدته في أوربا ، إذ كان إنتاجهم الشعري والخيالي هو الانتاج الفكري الأول والأسبق في أوربا ، وكان الكتّاب والفلاسفة والمفكرون العرب ، يدرّسون في مختلف جامعات أوربا المسيحيّة ، وعنهم يؤخذ الإلهام ، والأفكار وفنون الشعر وموضوعاته ، وكان رجال الفكر العرب أمثال : ابن سينا ، وابن خلدون ، وابن الهيثم والفارابي والخوارزمي ، والبيروني والرازي يعتبرون أقطاب الثقافة الأوربية ٠

والمعلوم أن اللغة العربية كانت لغة العلم والأدب الرفيع والديبلوماسية ، وكان كل من يريد أن يطّلع على أحدث المخترعات وأجمل المصنفات ، يضطر الى تعلم اللغة العربية ٠

● **حركة الترجمة عن العربية في أوربا :**

ولا بد هنا من التنويه بحركتين لترجمة المؤلفات العربية إلى اللاتينية (التي كانت لغة أوربا المسيحية) قام بها الغربيون والنصارى ، وقد تزعّم الواحدة منهما الملك الاسباني العالم (الفونس الحكيم) ١٢٥٢ ــ ١٢٨٤ ، وكان كريماً جداً على العلماء والأدباء ، وقد أنفق ثروة طائلة في سبيل تعميم التراث العربي الاسلامي ، ونشره في أوربا • وتولى الحركة الثانية الايطالي (جيراردي كريمون) الذي جاء من وطنه (لومبارديا) إلى الأندلس ، لينهل من العلوم والفنون (من مصدرها الصافي) ، وتعلّم العربية ، وشرع ينقل الى لغات الغرب آثار العرب النفيسة الخالدة ، وانضم اليه المترجمون الاسبان : (دومينيك غودسلفي) ومارك الطليطلي ، وجان الاشبيلي ، والبريطاني (روبير دوشيستر) والألماني (هرمان دوريشنو) والصقلبي (هرمان دلمان) • وبذلك حطّمت الثقافة العربية الاسلامية الحدود ، وقضت على التعصب والتفرقة ، ووحّدت بين جميع القوميات في أوربا ، فكانت نبراساً لوحدة أوربية فكرية مثلى •

ويعتقد علماء غربيون منصفون ، أن أوربا وصلت الى ما وصلت اليه من رقيّ فكري ، وتطوّر صاعد بفضل العرب ، في العصر الاسلامي الزاهر (في القرون الوسطى) •

لقد بدأت سيطرت أوربا على العالم انطلاقاً من عصر النهضة (القرن السادس عشر) ، ويدفع العدل الى القول أن أوربا مدينة للمسلمين العرب بالأسس التي قامت عليها نهضتها المذكورة •

ومن هذه الأسس ، مفهوم معتدل للحياة ، يستنكر المغالاة بالتقشّف ، والاسراف بالزهد واحتقار الجسد ، إذ جاء في القرآن الكريم :

● « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ••• » •

● « قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي

للذين آمنوا في الحيـاة الدنيا خالصة يوم القيامة ••• قل إنما حـرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق ••• » •

يقول الاستاذ (كريستوفر داوس) :

« عن العرب أخذت التقاليد العلمية في أوربا الحديثة ، وقد أسهم العرب في توسيع آفـاق الأوربيين توسيعاً لم يسبق له مثيل ، إذ بفضلهم انتقلت الى أوربا حضارات الصين والهند والفرس ، وبفضل العرب انتقلت علوم الشرق الى أوربا ، لتكون شاهدة بما للاسـلام من (عظمة علميـة تربوية) وفضل على الانسان والانسانية » •

وخلق العرب في نفوس الأوربيين ، الوعي السياحي ، والملاحة عبر البحار ، والتأمل في الأفلاك ، وعلموهم استعمال البوصلة وإنشاء المراصد ، ولولا العرب لما كان (كبلر) (وكوبرنيك)،بل ، لما كان (كولومبس) و(فاسكو دي غاما)(١)•

★ ★ ★

(١) مقـال للدكتور ـ أنور حـاتم ـ استاذ بجامعة فريبورغ في سويسرا ، عن المجـلة العـربية (الرياضي) العدد الافتتاحي الاول آب ١٩٧٥ ص ١٣٥ وما بعـدها •

خاتمة

مقابلة ممتعة
بين الدين والفلسفة والعلم

لقد بدأنا بحثنا الأساسي بعرض تمهيدي(تعريفاً بكتاب الله وسنة رسول الله) كقوة دافعة للحركة الحضارية في الاسلام ، انتهى بوضع الاطار التربوي لشخصية الرسول ﷺ ، مشفوعاً بمنتخبات ، من أقوال المنصفين من الغرب ، في عظمة الرسول الكريم ﷺ .

وتحدثنا عن الآثار الحضارية في شتّى العلوم(الطبية، والرياضية، والطبيعية، والاجتماعية، والعقلية)مستعرضين خلالها أبطال الفكر وأعلام الحضارة الاسلامية، أمثال : ابن سينا ، وابن الهيثم ، وابن خلدون ، والرازي والبيروني والخوارزمي والفارابي وغيرهم .... الذين جمعوا الى النشاط العقلي والبحث العلمي ، الايمان الصادق ، والوعي الاسلامي الصحيح ، فكانوا بحق من مفاخر الحضارة العربية الاسلامية على مرّ الدهور .

وتأكيداً لهذه المعاني ، نختم بحثنا الأساسي (أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية)بمقابلة ممتعة ، بين الدين والعلم والفلسفة ، ليعلم كل منصف أن الاسلام كان (ولا يزال) دين الحضارة الانسانية علماً وعملا وأخلاقاً ، ينطوي على مقومات (علمية ــ تربوية) تؤهله لقيادة الركب الحضاري ، ومسيرة الحياة الانسانية .

فالاسلام (كعنصر علمي) يكشف للانسان قانون الحياة وسنّة الوجود[١].

---

(١) العلم الحقيقي النافع ، ما نفذ الى شعور الانسان ، وحرّك طاقته للعمل (بما علم) بالجهود التربوية المخلصة ، التي تبني الحياة السعيدة بالعمل الصالح .

والاسلام (كعنصر تربوي) [1] يوجه الانسان نحو غـاية وجوده ، ويعمل على تكوين الانسجام بين واقع الانسان ومثله الأعلى (جهاداً للنفس والهوى) حتى يكون هواه (سلوكه في الحياة) منسجماً مع منهاج الله •

والاسلام (كعنصر قيادة وتوجيه) ينظم فاعليات الانسان (فرداً وجماعة) (في مجـالات التشريع والتنفيذ والقضاء) ، ويعمـل عـلى انسجامها وتعاونها (انطـلاقاً من الثقة والايمان بالله) •

الاسلام ــ وحي إلهي ــ موصوف بالعصمة ، وبريء من ازدواجية القيادة ، يضمن تآلف القلوب ، ووحدة الرأي والهدف ، يعمـل على تحقيق العـدالة ، ويستهدف شمول الرحمة والسعادة •

ان الاسلام (عقيدة ومنهجاً ، عبادة وسلوكاً) قوة دافعة للحركة الحضارية ، ملاك السعادة للانسان والانسانية ، يسير بركب الحياة نحو التطور والازدهار والتكامل •

المقابلة بين الدين والعلم والفلسفة (ما هي الحكمة الشاملة التي تجمع بين الدين والعـلم والفلسفة) ؟ :

قـد يخال لطلاب العـلم ، الذين لم يرتشفوا منه إلا بأطراف الشفاه ، أن اختلافاً وتبايناً واقعان لا محالة ، بين الدين والعلم ، ولا سيما العـلم الحديث ، على أن هذا الرأي لا يقرّه العلماء ، الذين ارتووا من مناهل العلم الصافية ، ولم يتناولوه بأطراف الشفاه ، وواقع الأمر أنه لا خلاف (في المؤدّى) بين العلم والدين •

---

(١) تهدف تربية الاسلام ، الى تنمية الشخصية المعنوية للانسان ، في نطاق الفكر ومجال الروح ، (والمرء بأصغريه قلبه ولسانه) لينجه نحو غـاية وجوده ، بقـوة العـلم ويقظـة الايمان ، فهي تربط القلب (منبع الرغبات ــ ومنطلق السلوك الانساني) بحب الله ورسوله، كما تربط العقل والفكر بمنهاج الله ، حتى تكون ارادة المؤمن (سلوكه في الحيـاه) ، على مقتضى حكمة الله ورحمته وعـدالته •

أما ثمـرة التربية الاسلامية ، فهي قوة في العلم ، ويقظة في الايمان ، ووضوح لمراد الله (في الذهن) واشـراقه (في القلب والضمـير) •

يعبر عن هـذه المعـاني ، هـذا الأثر الانعكاسـي المتبادل ، بين الايمان (كثقة بين الانسان وخالقه) والوعي الاجتماعي (كثقـة متبادلة بين المؤمن واخوانه) كما نشهد ذلك بالتفصيل ــ باذن الله ــ في مقابلتنا الممتعـة بين العـلم والدين والفلسفة •

● **يقول العــالم الاجتماعي الكبير « اوغست كونت » :**

« إن العلم الحقيقي لا يمكن أن يؤدي الى القول بالإلحاد ، ولا بالمــادّية البحتة ، لأنه لا ينكر النفس ولا الله ، ولكنه يجهلهما » .

ثم إن المنطق العلمي الصحيح ، يأمر أهله بألا يعادوا ما يجهلون من الحقائق، التي ربما تتكشّف لهم في المستقبل ، فيسلّموا بهــا ، وإن لم تتناولها تجاربهم الحسية .

● **يقول العلاّمة « كرتسون »** مدرّس الفلسفة في جامعة ليون ، إن العلم في مجموعه ، لا يعطينا إلا معارف مبهمة للغــاية ، (وذلك من جهة العلل الخفيّة ، التي لا تتعلق بهــا تجاربه) .

● **ويقول العلاّمة « وليم جيمس »** مؤسس فلسفة الذرائع (براجماتيزم) ، إن علمنا ليس إلا نقطة ، ولكن جهلنا بحر زاخر ، والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشيء من التأكيد ، هو أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية ، محاط بعالم أوسع منه ، من نوع آخر ، لم يدرك خواصه المكونة الى اليوم .

● **أما العــالم الرياضي « اينشتاين » فيقول :** إن الايمان هو أقوى وأنبــل البحوث العلمية .

بعد هــذه المقدمة البسيطة (وقبل أن نستهل المقابلة ، بين الدين والعــلم والفلسفة) ، جدير بنا أن نستعرض التعريف الموجز لكل هذه المعاني (الدين ــ الفلسفة ــ العــلم) .

١ ــ معنى الدين :

تستعمل كلمة (الدين) في اللغة العربية ، بمعنى الخضوع والانقياد ، نقول دان له ، أي أطــاعه وخضع له ، والدين لله ــ أي الحكم لله ، وتقول (دان به) ودان بالشيء : أي اتخــذه ديناً ومذهباً .

ومادة الكلمة ، تدل على الخضوع والانقياد ، وهي تشير الى العلاقــة بين طرفين ، يعظم أحدهما الآخر ويخضع له ، وينقاد لأوامره وأحكامه .

ويختلف التعريف الاصطلاحي للدين بين علماء كل دين ، وذلك لأن كل عالم يعرّف الدين بطريقة تتناسب مع دينه ، وطبيعة نظرته لذلك الدين ، ومن هنا كان تعريف الدين مختلفاً كل الاختلاف .

أما العلماء المسلمون ، يعرّفون الدين بأنه : « وضع إلهي ، سائق لذوي العقول السليمة ، باختيارهم ، الى الصلاح والفلاح في المآل » .

وهذا التعريف يشير الى ذلك الوضع الذي يرشد الناس الى الاعتقاد الصحيح ، والسلوك الحسن ، والمعاملة المستقيمة (بحيث يؤدي إلى تنظيم حياة الانسان ــ من حيث صلته بخالقه ــ ومن حيث صلته بالمجتمع الذي يعيش فيه) .

الدين ــ على العموم ــ دعوة الى الحياة الكريمة ، للانسان والانسانية . قال تعالى :

- « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ، إذا دعاكم لما يحييكم . » سورة الأنفال : ٢٤
- « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . » سورة الأنبياء : ١٠٧

الدين دعوة ، الى العلم النافع ، والعمل المثمر ، والخلق الكريم ، وهي المنطلقات الطبيعية، التي تسير بالحياة نحو التطور والازدهار والتكامل. قال تعالى:

- « اقرأ باسم ربك الذي خلق [١] » العلم في الاسلام (موجّه بتوجيه الله)
- « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم[٢] » العمل في الاسلام(مقرون بالايمان ــ بعدالة الله) .
- « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين [٣] » .
- « وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً [٤] » .
- « واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون [٥] » .

الخلق في الاسلام (ثمرة العقيدة الصحيحة)

---

(١) سورة العلق : ١
(٢) التوبة : ١٠٦
(٣) التوبة . ١١٩
(٤) الاسراء : ٣٣
(٥) البقرة : ١٧٢

٢ ـ معنى الفلسفة :

الفلسفة (في أصلها اليوناني) تقابل الحكمة [١] (أو البحث عن الحقيقة) قـال تعـالى :

- « يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خـيراً كثـيراً ، وما يذكّر إلا أولوا الألباب » [٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « الحكمة ضالّة المؤمن ، أينما وجدها فهو أحـق بهـا » . رواه ابن ماجة .

والفلسفة ــ عند الفارابي ــ ايثار الحكمة .

والفلسفة ــ عند ابن خلدون ــ القاعدة التي يهتدي بها العقل الى التمييز بين الحق والباطل ، ويسمي هذه القاعدة (المنطق) وثمرته شحذ الذهن في ترتيب الأدلة ، لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين .

والفلسفة (على العموم) عـلم يهدف الى اكتشاف قوانين العقـل المنظمة (لنشاطه) توصلا الى المعرفة الصحيحة .

٣ ـ معنى العـلم (ويقصد به العـلم التجريبي) :

هـو ناحية تأمليّة ، يراها الناظر المدقّق ، كأنها نزعـة من نزعات الدين ، (ممهّدة له ــ وباعثة عليه) ، وذلك حينما يدفع العالم عقله الى البحث الدائب ، لاستطلاع ما وراء تجاربه (العلمية ــ التطبيقية) من أسرار ونواميس ، تعلو على متناول الحسّ المباشر ، ويفعل ذلك بقصد الوصول إلى اليقين العلمي (والألفة العقلية) التي تربط بين الأسباب ومسبّباتها (قانون السببيّة) .

بعد أن استعرضنا التعريف الموجز ، لكل من الدين والفلسفة والعلم ، وقبل أن نستهل مقابلتنا بين هـذه المعاني ، وإذا اعتبرنا (مبدئياً) ، أن الفلسفة زاوية

---

(١) الحكمه (في الاصل) معرفه الأشياء بحقائقها (باسبابها ونتائجها) والحكمة (في الواقـع) الوصول الى الغـاية ، إصابة الهـدف في القول والعمل ، وحكمه القـانون (أسبابه الموجبه) ومن الحكمة العمليه ، (وضع الشخص الملائم ـ في المكان المناسـب) .

(٢) البقره . ٢٦٩

خاصة من زوايا العلم ، فسنقابل بين العلم والدين (في المنطلق) لنعود في نهاية المطاف الى الفلسفة ، فندخلها في الاطار العام للمقابلة استكمالا للمعنى المقصود من ذلك .

- **بين الدين والعلم :**

ما كان للعلم الصحيح أن يعاند الدين ، أو يتنكّر له ، أو يحكم عليه(فيحكم على شيء ليس من مفهوم بحثه) ولا هو داخل ضمن دائرة نظرياته ، التجريبية الحسيّة .

وما كان للعلم الصحيح أن يخرج عن وظيفته (أو يخرج عن دائرة اختصاصه) وهي مجرّد الاستقراء والملاحظة ، للظواهر الطبيعية ، ولا يقول بالنفي والاثبات ، لما يجهله من الحقائق الكامنة وراء الظواهر الطبيعية ، وانما يعتبر الدين (الاسلام) صديقاً للعلم ، بما فيه من نصوص تبعث على طلب العلم والتمرّس به . قال تعالى :

- « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (١) .

والاسلام ــ يهيب بالانسان أن يحرّك مداركه وطاقاته ، ليمارس نشاطه العقلي ، في اكتشاف حقائق الكون مستدلاً بالمكون على المكوّن ، قال تعالى :

- « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . والى الأرض كيف سطحت ...» الغاشية:١٧ــ٢٠
- « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبثّ فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون . » البقرة : ١٦٤

والاسلام يضع الأسس المنطقية (كمنطلقات) لفاعلية العقل ، الهادية للايمان بالله في مثل قوله تعالى :

---

(١) سورة المجادلة : ١١ .

- « أفمن يمشي مكبّاً على وجهه أهدى أمّن يمشي سويّاً على صراط مستقيم • » سورة الملك : ٢٢
- « أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون • » سورة البقرة : ٤٤
- « أم حسب الذين اجترحوا السيئات ، أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء ، محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون • وخلق الله السموات والأرض بالحق (أي على أساس العدل) ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » (١) •

والنتيجة المنطقية ــ أنه لا خلاف في الجوهر والموضوع ، في نظر العالم المحقّق ، والمتدين المخلص ، بين الوحي والعلم ، فكأن العلم بداية ومنطلق للدين ، والدين نهاية العلم الصحيح ، فهل يجمع بينهما الهدف المشترك ؟ •

بين غاية الاسلام (٢) وهدف العلم :

يهدف الاسلام والعلم الى سعادة الانسان ، عن طريق كشف أسرار الله ، التي أودعها الكائنات ، ويمثل المعتقد الديني القوة المحركة (الدافعة) بينما يمثل العلم عنصر الإرادة والمنطلق •

---

(١) سوره الحائية : ٢٢ •

(٢) الاسلام رسالة (علمية ــ تربويه) رسالة الرحمة والسعادة للانسان والانسانية ، انها شريعه الله ، ومنهاجه فى الحياه ، ارتضاه الله لعباده المؤمنين ، ممثلون بسلوكهم حكمه الله ورحمته وعدالته ، حين يفقهون عن الله مراده ، ويعملون بطاعته •

الاسلام تعريف بالخالق العظيم ، وتوجيه تربوي نحو صراطه المستقيم ، نحو قانونه في الحياة وسننه في الوجود • لقد أراد الله الحياة لنا حرة كريمة ، إخاء وتعاونا ، وتنافسا شريفا فى سبيل الحياة الافضل ، وجعل الثقة والايمان به والاعتصام بهديه سبحانه ، نورا هاديا الى السعادة ، لمن ابتغى رضوان الله•

غاية الاسلام ــ تربية الانسان المؤمن (على حب الله ــ ونفع الآخرين) وتنظيم العلاقات الاجتماعية: على هدي الحكمة والرحمة والعدالة •

غايه الاسلام أن تكون كلمة الله هي العليا ، رائدة موجهة ، ضابطه للسلوك ، تضمن تآلف القلوب ، ووحده الرأي والهدف ، وشمول الرحمه والسعادة ، تمثل القوة المحركة للحضارة الانسانية ، ترقى بالحياة نحو التطور والازدهار والتكامل •

ولقد أعلن الدين غـاية الانسان في الحيـاة (وهي كشف القانون الإلهي العادل ــ والانسجام مع مقتضاه) والتعاون على صعيد التنافس الشريف لبناء الحيـاة الأفضل •

وأن هذه الغاية النبيلة (كشف العدالة ــ والنظام العـام الكوني للحياة) منطوية في أصل تكوين الانسان ، وكما قال تعالى :

- « سبّح اسم ربك الأعلى • الذي خلق فسوّى • والذي قدّر فهدى • »
  سورة الأعلى : الآيات : ١ ــ ٣
- « يا أيها الانسان ما غرّك بربّك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك • »
  سورة الانفطار: ١٠

لقد أمـر الله الانسان بالعدل ــ والعدل مطويّ في أصل فطرته ، وأساس تكوينه • (وتربية الاسلام عـودة بالفرد الى صفاء الفطرة ــ وانطلاق بالمجتمع لبنـاء الحيـاة السعيدة) •

- « وعلّم آدم الأسماءَ كلهـا •••• » سورة البقرة : ٣٠

وهي أسماء أعـلام الحقائق الكونية ، بأن جعله مستعداً لمعرفة خصائص الأشياء ، لينتفع بها • فعلى أساس العدالة الإلهية قامت الكائنات جميعاً (من أصغر ذرّة إلى أكبـر مجـرّة) •

غـاية الاسلام ــ تربية الانسان الفاضل ، واقامة الدولة الراشدة ، التي تحرس العقيدة ، وتنمي الوعي الاجتماعي ، وتسير مع الحياة الحضارية في تطورها وازدهارها وتكاملها •

لقد تجلى لنا بوضوح (الهدف المشترك) بين العـلم والدين ، ويمكن أن نصرح بأن الخلاف بينهما (وهميّ) يكاد ينحصر في طبيعة المنهج والأسلوب •

فأسلوب العلم في بحثه ، حسّي تجريبي ، يؤيده الدين (في الأصل) وينمّيه (في الواقع) ومنهج العلم يدعو الى المعرفة الصحيحة ، وتنتهي مهمته لدى تكوين النظـرية العلميـة •

أما المنهج الديني فانه دعوة (لا إلى المعرفة الصحيحة فحسب) ولكنه دعوة الى الايمان والثقة بالله (واهب الحياة) والى إعلاء كلمته ، من خلال (فاعلية الفكر ــ ونشاط النفس) استدلالاً بالأكوان على المكوّن وبتصاريف الحياة ، على واهب الحياة .

الدين يستنفر كل طاقات الانسان لبناء الحياة الفاضلة(علماً وعملاً وأخلاقاً) وهو عنصر قيادة عليا يربط بين أفكار الانسان وعواطفه ، بين علمه وعمله ، وينسق (فاعلياته) وعلاقاته الفردية والاجتماعية ويضمن للحياة سيراً طبيعياً في طريق التطور والازدهار والتكامل .

الوحي الديني ، حقائق موضوعية ، ألقيت في روع واحد من البشر ، امتاز عن غيره ، (بموهبة خاصة ــ واصطفاء إلهي) والله أعلم حيث يجعل رسالته ، امتاز الرسول بسموّ مداركه ورقّة احساسه ، وباستعداد خاص ، يجعل قلبه (١) (جوهر كيانه الذاتي) (منبع الرغبات ــ منطلق السلوك الانساني) متصلاً بالملأ الأعلى ، لتلقّي وحي ربّه المنزل ، لارشاد الخلق ــ بإذن الله ــ الى حكمة الله ورحمته وعدالته ، عن طريق الحس والعقل المؤيدين بالوحي .

وقد أيّد الله الوحي والرسالة ، بالمعجزات الخارقة لقانون الحياة العادي ، حتى يذعن الفكر ، ويستسلم العقل البشري لوحي الله ، بلا مناقشة ، وعلى هذا الأساس نقول : إن الوحي موصوف بالعصمة ، وبريء من ازدواجية القيادة ، فهو ضمان (لوحدة الرأي ــ وتآلف القلوب) لصيانة الحكمة وحراسة العدالة وشمول الرحمة والسعادة .

وحين ينمو (النشاط العقلي ــ والبحث العلمي) في ظلال الوحي الإلهي ، فسنقطف من شجرة التعاون بين العلم والدين أشهى الثمرات ، كما قال تعالى :

- « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينّه حياة طيبة ، ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون . » سورة النحل ٩٧

---

(١) قال الله تعالى : ● « قل من كان عدواً لجبريل فانه نزّله على قلبك باذن الله . . » البقرة ٩٧

● « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين . . » الشعراء ١٩٣-١٩٤

● « ولو أن أهـل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات مـن السماء والأرض ••• » سورة الأعراف : ٩٦

ولئن كان (الدين) يمثل في الحياة (القلب النابض) فان العـلم الصحيح ، هو عقل الحياة المفكر ، والمهم هو فاعلية الدم بين القلب والدماغ ، المهم هو فاعلية الايمان والانسجام بين ارادة الانسان (سلوكه في الحياة) ومراد الله (شريعة الله) تعظيماً لأمر الله ، وطاعة لمنهاجه القويم •

المهم هو وجود التربية المثلى (المربّين الأكفاء ، العلماء الأمناء ورثة الأنبياء) حيث نربط بين واقع الانسان ومثله الأعلى ، ونوجه الانسان نحو غاية وجوده •

نعود الى موضوع المقابلة بين الدين والعـلم فنقول : ان الدين يأتينا عن طريق الوحي ، وهو (كما أشرنا) حقائق موضوعية ، ألقيت في روع واحـد من البشر (يتمتع بامتيازات خاصة ــ بالاصطفاء الإلهي) •

وكذلك العلم الصحيح ونظرياته ، هي أيضا حقائق موضوعية ، كانت ثمرة نظر واستقراء وحصيلة استنتاج وتجربة ، ألقيت في روع العلماء ، ممّن أدمنوا التفكير والتأمل، ثم أدمنوا الاختبار التطبيقي، وامعان النظر ، في وحدات الكائنات ونواميسها وعلائقها ، بحثاً عن الصلة الواقعـة بين بعضها البعض ، **فتمّ لهـم** ــ عن طريق البحث في خواص الأشياء ومنافعها، طلباً لتسخير قواها الكامنة فيها ــ **ما أرادوا فقرّروها كنظريات علمية** ، وتمّ لهم من ذلك (قواعد علمية) ، تؤيدها ما تكشفه عقول العلماء ، وأبحاثهم ، ثم يتركونها لخلفائهم وأعقابهم لاتمام بحثها ، والوصول الى النتائج المرجوة ، من خصائصها ومنافعها •

فالدين ــ يكاد يستوي هو والعلم ــ في مأتاهما المتوحد ، وهو الإلهـام الإلهي ، والتعليم ، بالمعلومات الدينية، أو النظريات العلمية التي يستنتجها العقل ، أو يقع عليها في أجواء الطبيعة ، الحسيّة أو العقلية ، ثم تركزت هـذه المعلومات وطبّقت ، فأصبحت فروضاً وفنوناً شتّى ، يجمعها في عمومها اسم العلم •

وها نحن نرى أن مبعث الدين والعلم بل (والفلسفة أيضاً) مبعث واحد ،

هو الشخصية المعنوية للانسان ، وما استقر في فطرته من إلهام إلهي ، أو إدراك عقلي ، أو خبرات حسيّة ، وليس ـ على التحقيق ـ في العقيدة (بالوحي) ما يتنافى مع صريح (العلم) ، وخصوصاً في عصر تلاقت فيه التجربة الذرّية بالخبرة الرياضية ، مع العلوم النفسية الحديثة ، كل ذلك دلّ على أن وراء الكون المنظور ، عجائب وغرائب (لا تنظر ـ ولا تحسّ) منها (الاشعاعات الذرية) فيما فوق البنفسجي وما تحت الأحمر ، ومنها الكائنات الحيّة غير المنظورة (كالميكروبات ـ الجراثيم وغيرها) .

ومنها (الروح) أو قل (الحياة) ، التي يعجز علمنا الحاضر عن اكتناه سرّها ، ولا يعلم منها إلا ظاهرتها ، قال تعالى :

● « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . » الاسراء : ٨٥

لقد علّمتنا النظرية الذرية،أن كتلة المادة تنبىبالكهرباء (بالنواة والكهارب)، وقل إن شئت ، بالنور تبنى كتلة المادة ، وبالروح (وهي نور أيضاً ـ غير منظور) تظهر تصاريفالحياة، ألا يدلكل هذا علىأنه يقع وراء المادة والنور(الذرّي ـ أو الروحي) والتطور الحيوي وجود عقل كلّي أرقى من عقولنا وله مدارك أسمى من مداركنا ، هو الوجود المنظّم لهذا الكون (أعني وجود الله سبحانه) جعل هذه الحقائق كلها ، يتصل بعضها بالبعض الآخر ، عن طريق منظور مباشر ، أو عن طريق غير منظور ، غير مباشر ، حرّك القلوب بنبضات الحياة ، أودع الحنان في قلوب الأمهات ، وهبنا السمع والبصر ، نوّر السموات والأرض بضياء الشمس ونور القمر ، أجرى الأنهار ، وأنبت لنا الثمار ، أسعدنا بروائح الزهور ، وتغريد الطيور ، وهب لنا الحياة وما تزدهر به الحياة . قال تعالى :

● « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البرّ والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمّى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم

ينبئكم بما كنتم تعملون • » سورة الأنعام : الآيات : ٥٩ ــ ٦٠ •

- « إن الله فالق الحب والنّوى ، يخرج الحيّ من الميت ، ومخرج الميت من الحي ، ذلكم الله فأنّى تؤفكون • فالق الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم • وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر،قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون• وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون • وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً ، نخرج منه حبّاً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنّات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون • وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون • بديع السموات والأرض ، أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم • ذلكم الله ربّكم لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل • لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير • » سورة الأنعام : الآيات : ٩٤ ــ ١٠٢

وختاماً لهذه المقابلة الممتعة (بين العلم والدين) سنشهد معاً ، كيف يحدث الاسلام تناغماً (أثراً انعكاسياً متبادلا) بين الدين والحياة (بين الايمان الصادق ــ والوعي الاجتماعي الصحيح) حتى يكون أحدهما ، منمّياً للآخر ، ويكون المؤمن لأخيه مفتاحاً لرحمة الله ، وعوناً على مرضات الله • قال تعالى :

- « وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه ــ وبالوالدين إحساناً •» الاسراء:٢٣
- « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ــ وكونوا مع الصادقين • » التوبة : ١١٩
- « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ــ إذا دعاكم لما يحييكم • » الأنفال : ٢٤

ففي كل آية ، يمثـــل الشطر الاول ــ العقيدة والايمان ، كثقة بين الانسان وخالقه • بينما يمثل الشطر الثاني ــ الوعي الاجتماعي كثقة متبادلة بين المؤمن واخــوانه •

فالاسلام ــ اهتم بتنمية الايمان ، والوعي الاجتماعي ، على نفس المستوى (من الأهمية) ، وفوق ذلك نشهد (تناغماً) (أثراً انعكاسياً متبادلا) بين هذين المعينين ، بحيث يغذي أحدهما الآخر ، قال تعالى :

- « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله [1] • »
- « ولكنّ الله ألّف بينهم [2] • »
- « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعــداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخــواناً [3] » •

وقال رسول الله ﷺ : الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل [4] •

فالإخاء ثمرة الايمان (إنما المؤمنون إخــوة ــ ولكن الله ألّف بينهم ــ فأصبحتم بنعمته إخــواناً) •

والايمان ينمو بالوعي الاجتماعي ، كما قال ﷺ :

- (الله في عــون العبــد ما دام العبــد في عون أخيه) [5] •
- (وجبت محبــة الله للمتحابّين في الله) •
- (لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنون حتى تحابّوا ، أو َلا أدلكم على شــيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام فيما بينكم) •

ولنذكر بهذه المناسبة عبارة (التحيّة الاسلامية) (السلام عليكم ورحمة الله) كيف ختم الله بها العبادة (الصلاة) وجعلها في نفس الوقت شعاراً للحب المتبادل بين المؤمنين ، ومنطلقاً لتوطيد العلاقات الاجتماعية الطيّبة •

هكذا يحدث الاسلام تناغماً (أثراً انعكاسياً متبادلا) بين الايمان الصادق

---

(١) سورة الحجرات : ١٠
(٢) الأنفــال : ٦٣
(٣) آل عمران : ١٠٣
(٤) رواه أبو داود والترمذي عن أبي هــريرة •
(٥) رواه الامام مسلم عن أبي هــريرة •

والوعي الاجتماعي الصحيح ، حتى يكون أحدهما منمّياً للآخر ، ويكون المؤمن لأخيه مفتاحاً لرحمة الله ، عوناً على مرضات الله .

وحرصاً على جمال هذه المقابلة (بين العلم والدين) نحاول أن نضعها ضمن إطار من الأزهار (باقة من الأبيات الشعرية) في صورة حوار لطيف ، حرّكه خيال شاعر مؤمن :

علم العليم وعقل العاقل اختلفا — من ذا الذي منهما قد أحرز الشّرفا
العلم قال (أنا) أحرزت غايته — والعقل قال (أنا) الرحمن بي عرفا
فأفصح العقل إفصاحاً وقال له — بأيّنا الله في فرقانه اتّصفا[1]
فبان للعقل أن العلم سيّده — فقبّل العقل رأس العلم وانصرفا
هذا حوار لطيف قاده أدب — لولا المربّي لكان الكلّ منحرفا

أما الشخصية المعنوية ، فهي غير منظورة ، وانما تجسّدت (التربية الدينية) ناطقة على لسان كل من طرفي الحوار ، بقبول التحكيم إلى شرع الله ....

- ففي البيت الأول : يصطنع شاعرنا الخلاف بين طرفي الحوار .
- وفي البيت الثاني : تتجلى نزعة الأنانية في كلّ منهما (العلم قال أنا ــ والعقل قال أنا) .
- وفي البيت الثالث : أحال (العلم) موضوع الخلاف للتحكيم .
- وفي البيت الرابع : يعلن العقل ــ راضياً ــ قبوله بالرأي (العلمي ــ التربوي) مقبّلا رأس العلم اعترافاً بالفضل والقيادة .
- وفي البيت الخامس : تظهر الغاية من الحوار ، هو الخضوع المشترك (لكلمة الله العليا) بفضل الأدب التربوي الذي تحلّى به كل من طرفي الحوار ، ولولا ذلك لتغلّبت نزعات الأنانية والانحراف ، التي من ورائها استحكام الخلاف وضياع المصالح .

---

(١) ان الله تعالى موصوف (بالقرآن الكريم) (بالعليم ــ الحكيم) ،ولم يوصف سبحانه (بالعاقل) وهي حجة العلم في مواجهة العقل ، والتي ادت الى إنهاء الخلاف المصطنع .

إن عنصر(التربية الدينية)ضروري في رقيّ المجتمعات، يضمن نصرة الحق ، وتآلف القلوب ووحدة الرأي ، وشمول الرحمة والسعادة ، في ظلال الايمان الصادق والوعي الاسلامي الصحيح .

قال تعالى :

- « فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً (١) » .

المؤمن ـ بعدالة الله ـ يحتكم الى شرع الله ومنهاجه في الحياة ، في مواجهة أزماته وحلّ مشاكله ، ولا يستشعر الحرج ـ من حيث النتيجة ـ رضي بحكم الله ، ولو حكم الاسلام عليه ، وإلاّ اتّهم من جهة ايمانه وثقته بالله ، أليس ذلك بدليل واضح ، يشير الى حرص الاسلام على تكوين الانسجام بين أفكار المؤمن وعواطفه (بين عمل القلب وعمل العقل) ، حتى تكون شخصيته المعنوية متّزنة ، في صياغة السّلوك السويّ .

- قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به (٢) » .

أما حوارنا اللطيف ، فقد حرّكه خيال شاعر مؤمن ، آمن بأن سرّ العظمة في الاسلام ، يكمن وراء تربيته المثلى التي اقتبسها الصحابة الكرام ، من المربّي الأعظم صلى الله عليه وسلم ، صحبة الحب والاجلال والتكريم ، تربية فريدة تؤدب المؤمن على حب الله ـ والانقياد لحكمه العادل الرحيم ـ وتخرجه (راضياً) من حدود أنانيته المفرطة وايثار مصلحته الشخصية ، إلى رحاب رضوان الله ، والخضوع للقاعدة التربوية العامة في السلوك ، لا خضوع العقل فحسب ، وانما خضوع العقل والقلب معاً ، خضوع الفطرة الصافية ، رضى بحكم الله .

هـذا حوار لطيف قاده أدب لولا المربي لكان الكـلّ منحرفا

من هذه المقابلة الممتعة (بين الدين والفلسفة والعلم) تجلت لنا عظمة الاسلام

---

(١) سوره النساء : الآية : ٦٥

(٢) اخرجه الطبراني ، وقال النووي حديث حسن صحيح .

(في تربيته الفاضلة) حيث مثل الدين (القلب النابض) بينما مثّل العلم ــ والفلسفة صورة من النشاط العلمي ــ عقل الحياة المفكر ، أما الشخصية المعنوية للانسان المهذب (الــذي روّضته تربية الاسلام على قبول الحق) فهي هــذا (التوازن والانسجام) بين أفكار الانسان وعواطفه (في الأصل) وانسجامه مــع منهــاج الوحي الإلهي (في الواقع) .

لقــد ظهــر لنا جمال الاسلام بمقوماته (العلمية ــ التربوية) التالية :

- كعنصر علمي ــ كاشف لقانون الحياة وسنّة الوجود ، يدفع المؤمن نحو غايته ، في اكتساب العلم ، توصلا للمعرفة الصحيحة ، وممارسة العمــل الصالح ، لبنــاء الحياة السعيدة .
- كعنصر تربوي ــ يؤدب المؤمن على حب الله والانقياد للحــق ، يهيب به لجهاد النفس والهوى ، لتكوين هــذا الانسجام بين ارادته (سلوكه في الحياة) ومراد الله (منهاجه القويم) .
- وكعنصر قيادة وتوجيه ــ يخطط للانسان وللانسانية ، مسيرة الحيــاة الفاضلة ، ينظم للانسان فاعلياته (الفــردية والاجتماعية) (في مجالات التشريع والتنفيذ والقضاء) ويضمن عملها بانسجام ، على صعيد التعاون المشترك ، يسير بالحياة ، ويرقى بها نحو التطور والازدهار والتكامل .

ما أشد حاجتنا إلى الوعي الاسلامي الصحيح (فقهاً لكتاب الله ــ واتبــاعاً لسنة رسول الله) إلى المربّين الأكفاء ، العلماء الأمناء ورثة الأنبيــاء ، يقودون المسيرة إلى مجد الاسلام وعزته وكرامته إلى العلم النافع والعمل المثمر والخلــق الكريم ، يبعثون في المجتمع القوة الدافعة لمسايرة الركب الحضاري ،إنهــا قــوة العلم ويقظة الايمان التي جعلت من أمتنا العربية خير أمة أخرجت للناس ، تأمــر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

بالعلم الصحيح (المترافق بتربية الوحي والايمان) بنينا حضارتنا الخالدة ، التي نستعرض عظمتها بذهــول ودهشة ، وبالعــلم نستطيع أن نواصل السير ، ونواكب المسيرة ، لنكون بحق جديرين بالاسهام الحضاري البنّاء .

إن الاسلام (عقيدة ومنهجاً ، عبادة وسلوكاً) يوحي لنا بالتنافس الشريف ، لبناء الحياة الأفضل ، وان التراث الحضاري الانساني ملك للجميع . قال تعالى :

● « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . سورة الملك ـ الآية : ١ ـ ٢

ان ارتباطنا بعقيدتنا ، وتراثنا ، ولغتنا [٢] ، يدفعنا لمواجهة الركب الحضاري بقوة العلم ويقظة الايمان ، تتخير من الحضارة المعاصرة ، الجوانب العلمية ، والخبرات الفنية ، لنبني بذلك مجتمعنا ، بناء صحيحاً متكاملا ، متميزاً في مقوماته ، مستقلاً في إراداته ، قوياً في اقتصاده ، ترتفع في ربوعه راية الايمان ومنارة العلم .

أمتنا اليوم ـ مدعوة لبناء نفسها بناء حديثاً ، في شتى المجالات (الاجتماعية والاقتصادية وغيرها) والطريق الى ذلك ، هو تعميق الثقة بالنفس (انطلاقاً من الثقة والايمان بالله) وابراز الكيان الفكري لأمتنا، والذي يعتمد على الفكر الاسلامي .

وهذا الكيان الفكري (المترافق بأصالته التربوية) يمكّن أجيالنا المقبلة أن ينهلوا من معين الحضارة ما يحتاجونه لبناء مجتمعهم واقتصادهم ، دون أن تحمل هذه الاستفادة أخطار الذوبان والضياع في متاهات تبعدنا عن أرضنا الطيبة ، وتراثنا الفكري المشرق .

ان الاسلام كان (ولا يزال) قوة دافعة للحركة الحضارية ، سعادة للانسان والانسانية ، يسير بالحياة (بقوة العلم ويقظة الايمان) ويرقى بها نحو التطور والازدهار والتكامل .

---

(١) يقول الدكتور مراد كامل (عضو مجمع اللغة العربية في مصر) : ان لغتنا العربيه ستصبح لغة عالمية ، يسهل للاجنبى دراستها والتكلم بها ، وقراءة مؤلفات رجالها ، لقد كانت هذه اللغة عالمية (في القرون الوسطى) وان العالم ليتوق الى دراسة لغة واحدة ، تكون سبيله للتفاهم .

وقد قرر المكتب التنفيذي لهيئة اليونسكو « فى هيئة الامم المتحدة » اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في المنظمات الدولية ، جاء هذا القرار بعد خمس سنوات ، سعت فيها الدول العربية ، في سبيل إقناع العالم بأهمية اللغه العربية ، وضرورة اعتمادها لغة رسمية في المنظمات والمؤتمرات الدولية ، وبدأ العمل بهذا القرار التاريخي في ـ ١٥ / أكتوبر / تشرين الاول ١٩٦٨ .

(ينظر كتاب فضل الحضارة الاسلامية على العالم للاستاذ زكريا هاشم زكريا ص ٢٩٣) .

مراجع البحث

القرآن الكـريم	
المصحف المفسر	الأستاذ عبـد الجليل عيسى
السيرة النبويـة	ابــن هشـام
رياض الصالحين	الامـام النـووي
محاضرات في تفسير القرآن	سماحة المفتي الدكتور أحمد كفتارو
منبر الدعـاة	فضيلة القاضي محمـد بشير الباني
مباحث علوم القرآن	الدكتور صبحي الصـالح
التفسير والمفسرون	الشيخ محمد حسين الذهبي
مبادىء الثقافة الاسلامية	الدكتور محمد فاروق النبهـان
أدب الحديث النبوي	الدكتور بكـري الشيخ أمـين
أصول الحديث	الدكتور محمد عجـاج الخطيب
المدخل الى الثقافة الاسلامية	الدكتور محمد رشـاد سـالم
من روائع الأدب النبوي	الدكتور كامل سـلامة الدقس
المدخل الفقهي العام	الأستاذ مصطفى الزرقـا
المدخل الفقهي العام	الدكتور محمد سلام مدكور
أصول التشريع الاسلامي	عـلي حسب الله
تاريخ الفقـه الاسلامي	الدكتور علي حسن عبـد القادر
تاريخ المذاهب الاسلامية	للاستاذ المرحوم محمد أبو زهـرة
مبادىء تاريخ القانون	الدكتور صوفي ،بو طـالب
محاضرات في الثقافة الاسلامية	الأستاذ محمد أحمد جمـال
فضل الحضارة الاسلامية على العالم	الأستاذ زكريا هاشـم زكريا
أصول التربية الاسلامية	الدكتور سـعيد اسماعيل علي
مجـالي الاسـلام	الأستاذ حيـدر بامات
دراسات في الحضارة الاسلامية	الدكتور أحمـد شـلبي

تابع مراجع البحث

- الحضارة العربية الاسلامية الدكتور أحمد شوكت الشطي
- الاصول العامة لوحدة الدين الحق الدكتور وهبة الزحيلي
- نظام الاسلام الدكتور وهبة الزحيلي
- كبرى اليقينيات الكونية الدكتور سعيد رمضان البوطي
- من الفكر والقلب الدكتور سعيد رمضان البوطي
- التشريع والفقه في الاسلام الأستاذ مناع قطان
- تاريخ العلوم عند العرب الدكتور عمر فروح
- تاريخ الفكر العربي الدكتور عمر فروح
- التفسير الاسلامي للتاريخ الدكتور عماد الدين خليل
- دراسة في السيرة الدكتور عماد الدين خليل
- مختارات اللواء مصطفى طلاس
- الخالدون العرب قدري حافظ طوقان
- شمس العرب تسطع على الغرب المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه
- روائع الأدب العربي الدكتور محمد نبيه حجاب
- قصة الايمان الأستاذ نديم الجسر
- دراسات فنية في الأدب العربي الدكتور عبد الكريم اليافي
- أسمى الرسالات الأستاذ المرحوم عبد الحميد الخطيب
- الوصايا الخالدة عبد البديع صقر
- اعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي
- الايمان والحياة الدكتور يوسف قرضاوي
- مغازي الرسول الكريم الامام الواقدي
- مصطلح التاريخ أسد رستم
- الاسلام منهاج وسلوك الاستاذ عبد الجواد الدومي
- دعوة الاسلام السيد سابق
- ضحى الاسلام أحمد أمين
- الشريعة الاسلامية والقانون الدولي علي علي منصور

تابع مراجع البحث

• تاريخ العلوم	الدكتور عبد الحليم منتصر
• قصة الحضارة	ديل ديورانت
• تاريخ العلم	جورج سارتون
• الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة	كويلر بونج
• تاريخ الحضارات العام	ادوار بروي

المجلات العربية والاسلامية

• المجلة العربية	الرياض	مجلة منار الاسلام	أبو ظبي
• مجلة الفيصل	الرياض	مجلة حضارة الاسلام	دمشق
• مجلة الوعي الاسلامي	الكويت	مجلة منبر الاسلام	القاهرة
• مجلة العربي	الكويت	مجلة البلاغ	الكويت

★ ★ ★

الفهرس

الموضـــوع		الصفحة
	مصطلح الحـــديث	٤٥
	أثر الاسلام في الأمـــة العربية	٤٧
الفصل الرابع	: الحركة العلمية في صـــدر الاسلام	٤٩
	نشأة المدارس العلميـــة	٥٣
	دور المكتبات في نشر الثقـــافة	٥٥
	الباب الثالث	
	التطـــور التاريخى للتشريع الاسلامي	٦٠
الفصل الأول	:الاجتهـــاد	٦٢
الفصل الثاني	: المدارس الفقهية	٦٦
الفصل الثالث	: المذاهب الفقهية	٧٠
الفصل الرابع	: استقلال الشريعة الاسلامية	٧٨
الفصل الخامس	:مدى تأثر الشريعة الاسلامية بالفقه الروماني	٨٢
	مناقشة بعض شبهات المستشرقين	٨٣
	أوجه الاختلاف بين الشريعة والقانون الروماني	٨٤
	الباب الرابع	
	عظمة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم	٩٠
	فلاسفة الغرب يعترفون بعظمة الرسول الكريم	١٠٣
	نبي الإســلام (في حـــديث تولستوي الأديب الروســي الكبير)	١٠٥

*   *   *